مجموعة شركات نهضة مصر
75 سنة
اليوبيل الماسي

تُرجُمانُ المَلِك

رواية

عمر فضل اللّه



عمر فضل الله

ترجمان الملك

تمّ إنتاج الكتاب الإلكتروني من قبل Hekayh
نشر الكتاب الإلكتروني 2017 ب Booqla
نشرت بواسطة دار نهضة مصر للنشر

حق النشر

روايـــة

تُرجُمانُ المَلِك

تأليـف: عمر فضل اللَّه

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم

الترقيم الدولي: 978-977-14-4376-3

رقـــم الإيـــداع: 2013/10779

الطبعة الأولـى: مـايـــو 2013

دار نهضة مصر للنشر

أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي – المهندسين – الجيزة

تليفـــون : 33466434 - 33472864 02

فاكـــــس : 33462576 02

خدمة العملاء : 16766

Website: www.nahdetmisr.com

E-mail:

publishing@nahdetmisr.com

إهداء

إلى سَيّدي المَلك النَّجَاشِي «أَصْحَمَةَ بن الأَبْجَر» (مَلك مَمْلَكة عَلَوَة). وَقْفَةَ إِعْجَاب وَتَقْدير بَيْنَ يَدَي المَلك الشَّابّ، سَلِيل المُلُوك العُظَمَاءِ، وَالذي بيعَ عَبْدًا فَعَادَ مِنَ الأَسْر مَلكًا مُتَوَّجًا. وَتَحِيَّةً إِلَى المَلك الشُّجَاع الذي وَقَفَ بِجَسَارَة مُخَالفًا مُعْتَقدَات الكَنيسَة في زَمَانه رَغْمَ أَنَّهُ كَان يَعْلَمُ أَنَّ ذَلكَ قَدْ يَجُرُّهُ لخَسَارَة مُلْكه. إلى المَلك العَادل الذي لَمْ يَظْلَمْ رَعيَّتَهُ، وَعَفَا عَنْ كُلّ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْه. إِلَى المَلك الحَكِيم الذي رَعَى العُهُودَ وَحُسْنَ الجوَار وَأَسَّسَ فِي وَسَطِ إِفْرِيقِيَا قُوَّةً ثَالثَةً عُظْمِي بَعْدَ دَوْلَتِي الفُرْس وَالرُّوم. أُهْدي هَذَا العَمَلَ المُتواضِع لِشَخْصِيَّتِك الفَذَّةِ وَرُوحكَ المُؤْمنَة. لَيْتَ جَميعَ المُلوك اليومَ في زَمَانِنَا مِثْلُكَ بِالأَمْسِ في زَمَانِك.

سَلامٌ عَلَيْكَ في الخَالِدِينَ.

المُــؤَلِّــفُ

مُقَدِّمَةُ المُؤَلِّفِ

هَذه الروايةُ تَعْكسُ بَعْضَ جَوَانِب شَغَفِي بحِقْبَةٍ هَامَّةٍ في تَاريخ شَمَال شَرْقِ إفريقيا؛ فَهِيَ تَرْوِي أَحْدَاثًا وَوَقَائِعَ علىِ ضفاف النيل الأزرَق في القُرُون الوُسْطَى، نَسِيَهَا النَاسُ، إلا بَقَايَا أَطلال قَديمةٍ هَامدةٍ، أو عِبَارَات نُقشَتْ عَلى صَفحَاتِ الكُتُبِ القَديمة المَنْسِيَّة الَتي لَمْ يَعُدْ يَقْرَؤهَا أَحَدٌ. قَرَّرْتُ أَنْ أَتَخلَّى عنْ حَاضِرِي قَليلًا وَأَسْتَنْطِقَ ذَلكَ الماضِي بعَقْلِي وَكِيَانِي. وَحِينَ انتقلْتُ إليه حَدَّثني أَنَّ تلك الأَمَاكِنَ والوقائعَ كانت نُقْطَةَ تَحَوُّلٍ في تاريخ المنْطَقَة عَلي الأقلّ إنْ لَمْ يَكُنْ في تاريخ الإنسانيةِ كُلِّهَا. لَقَدْ كَانَ البَرُّ الغَرْبِيُّ لِلْبَحْرِ الأَحْمَرِ وَضِفَافُ النّيلِ الأَزْرَقِ في تِلْكَ الحِقْبَةِ مِنَ الزَّمَانِ مَلاذًا لِلْعَرَب المسلمينَ المهاجِرينَ مِنْ مَكَّةَ في جزيرةِ العرب بدينِهم الجديد إلي مَمْلَكَة عَلَوَةَ المَسيحيَّة في إفْرِيقيَا التي آوَتْهُمْ وَمَكَّنَتْهُمْ مِنْ بِنَاءِ عَلاقَاتٍ إِنْسَانِيَّةٍ

رَاسخَةٍ مَعَ أَهْلِهَا. وَكَانَتْ هِجْرَتُهُمْ هِيَ أَوَّلَ سِفَارَةٍ إِسْلامِيَّةٍ سِلْمِيَّةٍ وَبَقِيَتْ هُنَاكَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ عَامًا وَفَتَحَتْ أَمَامَ المسلمينَ سُبُلَ الدَّعْوَةِ للدينِ الجَدِيد.

وَبِقِرَاءَةٍ ثَانِيَةٍ وَجَدْتُ أَنَّهَا كَانَتْ نَظْرَةً اسْتِرَاتِيجِيَّةً عَسْكَرِيَّةً نَاجِحَةً مِنْ قِبَلِ المسلمين تِجَاهَ مُسْتَقْبَلِ الإِسلامِ فِي إِفْرِيقِيَا، لأَنَّكَ إِنْ كُنْتَ سَتُقَاتِلُ فَلا بُدَّ أَنْ يَكُونَ ظَهْرُكَ مَحْمِيًّا. وَإِذَا قَضَتِ المؤسَّسَاتُ العَسْكَرِيَّةُ، وَمِنْ وَرَائِهَا الكِيَانُ السِّيَاسِيُّ الذي يَحْرُسُ الدَّعْوَةَ أَنَّهَا سَوْفَ تَتَّجِهُ إِلى آسِيَا (الفُرْس) وَإِلى أُورُبَّا (الرُّوم) فَكَانَ لا بُدَّ مِنْ تَحْيِيد ظَهْرِهَا الذي هُوَ الجَبْهَةُ الثَّالِثَةُ فِي إِفْرِيقيَا (الحَبَش) حَتَّى لا تَطْعَنَهُمْ جَبْهَةُ الحَبَشِ مِنَ الخَلْف، وَقَدْ كَانَ فِي مَقْدُورِهَا أَنْ تَفْعَلَ؛ لأَنَّهُ ثَبَتَ مِنْ مُحَاوَلاتِ الرُّومَانِ المُتَكَرِّرَةِ للسَّيْطَرَةِ عَلى الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ وَمُحَاوَلاتِ الفُرْسِ قَبْلَ الإِسْلامِ أَنَّ أَوْجَعَ الضَّرَبَاتِ للجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ كَانَتْ مِنْ قِبَلِ الحَبَش؛ وَلِذَا فَالخَطَرُ الحَقِيقِيُّ كانَ هُوَ مِنْ جِهَةِ إِفْرِيقِيَا. وَإِذَنْ

فَقَدْ كانَ تَحْيِيدُ الحَبَشِ هُوَ الهَمَّ الأَكْبَرَ وَالخُطَّةَ الاسْتراتيجيةَ الناجِحَةَ. وَلذلكَ فَإِنَّ الرَّسُولَ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ أَرْسَلَ وَفْدَهُ إِلَى أَقْوَى المَمَالك فِي بِلاد الحَبَشَة، وَأَكْثَرِهَا اسْتِقْرَارًا (مَمْلَكَةِ عَلَوَة المَسِيحِيَّة) وَذَلكَ قَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ إِلَى المَدينَةِ، وَقَبْلَ أَنْ يُقِيمَ الكِيَانَ السِّيَاسِيَّ، فَكَانَتْ هَذِه أَنْجَحَ سِفَارَةٍ فِي تَارِيخِ الإِسْلامِ كُلِّه؛ لأَنَّهَا أَدَّتْ أَهْدَافَهَا وَحَيَّدَتِ الحَبَشَ حِيَاداً تَامًّا إِزَاءَ النِّزَاعِ العَالَمِي الذي نَشَأَ بَعْدَ ذلكَ بَيْنَ المسلمينَ وبينَ كُلّ منَ الفُرْسِ والرُّوم. وَيُلاحَظُ أَنَّ الحَبَشَ تَدَخَّلُوا قَبْلَ الإسلامِ فِي أيامِ ذي نُوَاسٍ بإِيعَازٍ مِنَ الرُّومِ فَوَصَلُوا حَتَّى مَشَارِف مَكَّةَ. وَلَكِنْ بَعْدَ مَجِيءِ الإِسلامِ وَشُروعِهِ فِي مُوَاجَهَةِ الرُّوم، عَجَزَ الرُّومُ أَنْ يُوعِزُوا إِلى الحبَشِ بالتدخُّل. وَقَدْ آثرَ الأحباشُ ألا يَتَدَخَّلُوا بَعْدَما عَلِمُوا حَقِيقَةَ الدّين الجديد القادم الذي هُوَ خَيْرٌ لهُمْ من مُوَالاةَ الرُّومِ. وَكَانوا قَدْ رَأَوْا سَيْطَرَةَ الرُّوم وَسَيْطَرَةَ الكَنِيسَةَ مِنْ وَرَائِهِ عَلى مِنْطَقَة الحَبَشِ الذين رَأَوا أَنَّ الخَيْرَ لَهُمْ يَكْمُنُ في انتصَارِ هذهِ

الدعوةِ الجديدة، فَمنْطَقَةُ الحَبَشِ تَعْتَبرُ جَزيرَةَ العَرَبِ أَقْرَبَ إِلَى إفْريقيَّتِهَا؛ لأَنَّ الحَبَشَ كَكِيَانٍ إفريقيِّ كانَ مُنْحَازًا نحوَ إفريقيته أَكْثَرَ من انحيازِه لمسيحيتهِ، وَبِذَا فَلَمْ يَكُنْ مُتَحَمِّسًا لاتباعِ سِيَادَةِ دَوْلَةٍ قَائمةٍ في أُورُبا (الرُّومِ) حَتَّى لَوْ كانتْ مَسيحِيَّةً فَلَمْ يَكُنْ يَكْفِي كَوْنُهَا مسيحيةً. وَرُبَّمَا لَوْ كانتْ إفريقيةً لكانتْ تَبَعِيَّتُهُ وَطَاعَتُهُ لَهَا أَكْبَرَ. وَيُمْكِنُنَا القَوْلُ إِنَّ الخُلَفَاءَ الرَّاشِدِينَ أَجَّلُوا غَزْوَ هَذهِ المنْطَقَة عَسْكَرِيًّا حَتَّى فُتِحَت الفُرْس (الجبهَةُ الشَّرْقَيَّةُ) قَبْلَ أَنْ يُديرُوا ظَهْرَهُمْ مُتَّجِهِينَ للجبهةِ الغربيةِ (الحبش)، وإلا فقدْ كانُوا سَيَهْدِمُونَ استراتيجيةَ السِّفَارَةِ السِّلْمِيَّةِ التي أَسَّسَهَا الرسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وَيُحَرِّكُونَ الجَبْهَةَ السَّاكِنَةَ التي أَرَادَ لهَا الرَّسُولُ أَنْ تَكُونَ مُحَايدَةً. وَكَانَ مَنْ بَدَأَ غَزْوَ هذهِ المنْطَقَةِ عَسْكَرِيًّا هُوَ الخليفةَ الثَّاني عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ، وَهُوَ لَمْ يَكُنْ مِنَ المُهَاجرينَ إِلى الحَبَشَةِ، وَلذا فَهُوَ لَمْ يَتعَرَّفْ إلى الحَبَش منْ قَريبٍ كَمَا تَعَرَّفَ إِلَيْهِم الخليفةُ الثالثُ عُثْمَانُ

بنُ عَفَّان، وَلَمْ يَفْهَمْ طبيعةَ إنسانِ النُّوبَة القَديمِ الذي وَصَفَتْهُ التوراةُ بأنَّهُ : «أُمَّةٌ طَويلَةٌ وَجَرْدَاءُ... شَعْبٌ مَخُوفٌ مُنْذُ كَانَ فَصَاعِدًا أُمَّة قُوَّةٍ وَشِدَّةٍ وَدَوْسٍ قَدْ خَرَقَت الأَنْهارُ أَرْضَهَا»[1]. وَرُبَّمَا لَوْ بَقِيَ الحَالُ كَمَا هُوَ فِي عَهْد عُمَرَ لاسْتَمَرَّ القتالُ مَعَهُمْ بلا نِهايَةٍ. وَلَكِنْ لَمَّا جَاءَ الخليفةُ عُثْمَانُ بنُ عفانَ إلى الخلافةِ أَوْقَفَ الحرْبَ وَعَقَدَ مُعَاهَدَةَ الصُّلْح مَعَ إِحْدَى مَمَالِكِهِم الشَّمَالِيَّةِ، وَأَعَادَ الأُمُورَ إلَى نِصَابِهَا لأنهُ كَانَ قَدْ هَاجَرَ الهِجْرَتَينِ الأُولى والثانيةَ للحَبَشَةِ وَعَرَفَ أَهْلَهَا وَكَانَ قَدْ أَسَّسَ جُذُورًا للإسْلامِ فِي تِلكَ البلاد.

وَكَانَ أَهلُ الحَبَشَةِ قَدْ تَأَثَّرُوا جدًّا بالعرب المُهَاجرينَ، فَقَدْ أَحَبُّوهُم لدَرَجَةِ أَنَّهُمْ بَقَوْا فَي ذَاكِرَةِ المَنْطَقَة إلى يَوْمِنَا هَذا فَمَا تَزَالُ الأسماءُ الغَالِبَةُ علَى أَهْل تِلْكَ المَنطَقَةِ هِيَ أَسْمَاءَ الصَّحَابَةِ المُهَاجِرينَ الأَوائل من الرِّجَال والنِّسَاءِ: «جَعْفَرُ»، وَ«الزُّبَيْرَ»، وَ«عُثْمَانُ»، وَ«ابنُ عَوْفٍ»، وَ«رُقَيَّة»، وَ«أَسْمَاءُ». وَاخْتَفَتِ

الأسماءُ القَدِيمَةُ «دُوجُّو» و«سمْبَا» و«دُومَاكَا» وَ«عِبْدِي» وَ«سِيسِّيا» وَ«مُونيتًا» وَ«سُونِيتَا» وَ«سُنْجَاتَا».

المُـؤَلِّـفُ

مُقَدّمَةُ الرَّاوِي

لَمْ أَعْجَبْ حِينَمَا استَدْعَانِي مِنْ بينِ أطلالِ الماضِي الغَابرِ، لتقديمِ روَايَتِه للناسِ، في زَمَانِكُمْ هَذَا، فَقَدْ كُنتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ يَحْتَاجُنِي. أنا الشابُّ «سيسِّي بن أَبِيلُّو بن دَلمار» الذِي عاشَ حياةً حافلةً في زمانه، ثم ماتَ وماتتْ مَعَهُ قِصَّتُهُ. لم يسمعْ بِهِ أَحَدٌ في عصرِكُمْ هذا. وَحِينَ حَدَّثَنِي أَنَّ أَحَدًا فِي زَمَانه لا يقْدِرُ أَنْ يُقَدّمَ روَايَتِي أَفْضَلَ مِنِّي صَدَّقْتُهُ، مِثْلَمَا صَدَّقْتُ حِينَ عَادَ إِلى الماضِي باحِثًا عَنِّي يَنْبشُ القُبُورَ في خَرَائِبِ مَدَافِنِ «العَنَج» العَمَالِيَق جَنُوبَ سويأ، وَيَقْرَأُ الشَّوَاهِدَ لِيَجدَنِي آخِرَ الأَمرِ ثُمَّ يُخْبِرَنِي أَنَّ العَالَمَ بقِي بَعْدَنَا أَلفًا وَخَمْسمِائةَ عَامٍ! وأَنَّ نِهَايَةَ العَالَم لَمْ تحِنْ بَعْدُ. صَدَّقْتُهُ في كُلّ هَذَا، وَلَكنَّنِي لَمْ أُصَدّقْ أَنَّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ لا يَعْرِفُ سويأَ العَاصِمَةَ، وَ«مَمْلَكَةَ عَلَوَة العَظِيمة»، بَعْدَ مُضِيّ خَمْسةَ عَشَرَ قَرْنًا فَقَطْ. كُنْتُ أَتَوَقَّعُ أَنْ تَبْقَى في

ذَاكِرَةِ العَالَمِ مِائَةَ قَرْنٍ أُخْرَى!! لَولا هَذَا ما وَافَقْتُ عَلى العَوْدَةِ لِأَرْوِيَ لَكُمْ.

أَقِفُ الآنَ جَنُوبَ سوبأ العَاصِمَةَ فِي زَمَانِنَا القَدِيمِ مُتَأَهِّبًا لِلإطْلالَةِ عَلَى زَمَانِكُمْ والشُّرُوقُ يُزَيِّنُ بِفُرْشَاتِه أَسْوَارَها، وَأَسْوَاقَهَا، والبُيُوتَ، وَالأَحْيَاءَ، أَمَلًا في مَجِيءِ نَسِيمِ (البُطَانَة)[2] الشَّرْقِيَّة ليتَأَمَّلَ هذه اللَّوْحَةَ، قَبْلَ أَنْ يَنْفُثَ سِحْرَهُ فِيهَا يَرْجُو لَهَا الخُلُودَ، والنيلُ يَرْبِضُ غَرْبَهَا مِثْلَ طِفْلٍ بَرِيءٍ يَخْتَبِئُ مِنْ أَقْرَانه في لُعْبَةِ «دَسُّوسِيَّة»[3] بَدءوهَا عِنْدَ العَشِيَّات ثُمَّ غَلَبَهُمُ النَّوْمُ، والنِّيلُ مَا يَزَالُ مُسْتَمِرًّا فِي اللَّعِبِ يَنْتَظِرُ مَجِيءَ الأَقْرَانِ. لَوْ ذَهَبْتُمْ لِلنِّيلِ لَحَدَّثَكُمْ عَنِّي وَعَنَّا، وَعَنْ سوبأ وَعَلَوَة، وَالمُلُوك العُظَمَاء وَالنَّاس. النِّيلُ رَاوِيَةٌ قَدِيمٌ، لا يَمَلُّ مِنَ التَّكْرَارِ. «أَسَاطِيلُ عَلَوَة» وَهِيَ تَزْحَمُ النِّيلَ بِأَشْرِعَتِهَا البَيْضَاءِ المُنَشَّرَة. وَأَنَاشِيدُ الجُيوشِ العَظِيمَةِ، وَ«العَنَجُ» العَمَالِقَةُ الذينَ تَهْتَزُّ الأَرْضُ تَحْتَ أَقْدَامِهِمِ الضَّخمَةِ حِينَ يَعْرِضُونَ القُوَّةَ وَالبَأْسَ الشَّدِيدَ فِي مَسِيرَاتِهِمْ عَبْرَ طُرُقَاتِ سوبأ وَخَارِجَ

أَسْوَارِهَا. الطُّبُولُ «النُّحَاسِيَّةُ» المَرْصُوصَةُ جَنْبًا إِلى جَنْب في سَاحَة المدينَة والتي تَخْلَعُ أَصْوَاتُهَا القُلُوبَ حِينَ يَتَقَافَزُ الضَّارِبُونَ حَوْلَهَا وَيَدُورُونَ وَهُمْ يَنْقُرُونَهَا بالعِصِيّ الخَشَبِيَّةِ القَصِيرَةِ المُدَبَّبَةِ المَكْسُوَّةِ بجُلُود البَقَر. والرَّاقِصُونَ عَلَى وَقْعِ الطُّبُول نَهَارًا أَوْ لَيْلًا وَهُمْ يَلْعَبُونَ بِالحِرَاب وَالعِصِيّ والنُّشَّاب وَالدرَق. عَبَقُ الطُّيُوبِ الشَّرْقِيَّة التي تَضَعُهَا نِسَاءُ عَلَوَة مَا زَالَ فِي أَنْفِي بَعْدَ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ عَامٍ! أَيْنَ ذَهَبَ كُلُّ هَذَا؟

حِينَ دَعَانِي للعَوْدَةِ إِلى سوبأ لأَتَأَكَّدَ بنفسي لم أُصَدّقْ مَا رَأَيْتُهُ. بَقَايا كَنِيسَةِ «مَارِيَّةَ» العَظِيمَةِ أَطْلالٌ مِنَ الطُّوب المُسَوَّى بالأرض. قَصْرُ الملك المُنِيف إِلى الشَّمَال صَارَ مَزَارِعَ لِلْدَّوَاجِن. وَمَاذَا فَعَلْتُمْ بِالنّيل؟ نِيلُ سوبأ العَظِيمُ انحَسَرَ مَجْرَاهُ وَصَارَ كَأَنَّهُ أَحَدُ الجَدَاوِل التي تَسِيلُ مِنَ الشَّرْقِ أَيَّامَ الخَرِيف فِي زَمَانِنَا. وَاختفتْ مِنْ فَوْقِهِ الأسَاطِيلُ المَهِيبَةُ ذَاتُ الأَشْرِعَةِ البَيْضَاءِ. «جَزِيرَةُ التِّمْسَاحِ» تَقَطَّعَتْ

أَوْصَالُهَا وَصَارَتْ عِدَّةَ جُزُرٍ صَغِيرَةٍ تَحْتَمِي بِكَبِدِ النِّيلِ الحَرَّى وَتَسْتَغِيثُ مِنَ الغَرَقِ. وَاخْتَفَت الأَسواقُ والسُّورُ وَمَرَابِطُ الخَيْلِ وَثُكْنَاتُ الجُيُوشِ وَبُيُوتُ الكَهَنَةِ وَأَدْيِرَةُ الرُّهْبَانِ وَأَحْيَاءُ سويأ الجَمِيلَةِ وَمَبَانِي الجَصِّ وَالطُّوبِ والحَجَرِ. أَيْنَ أَشجارُ النَّخِيلِ البَاسِقَةِ والدَّوْمِ وَالمَانْجُو واللَّيْمُونِ؟ أَيْنَ السَّاحَاتُ الخَضْرَاءُ؟ أَنْتُمْ بَارِعُونَ جِدًّا في القَضَاءِ عَلى كُلِّ مَا هُوَ جَمِيلٌ.

لا أَرَى حَوْلِي في زَمَانِكُمْ إِلا صَحْرَاءَ جَرْدَاءَ قَاحِلَةً مَدَّ البَصَرِ، يَشُقُّهَا طَرِيقٌ أَسْوَدُ قَمِيءٌ، وَعَرَبَاتٌ كَئِيبَةٌ تَجْرِي فَوْقَهُ بِلا أَحْصِنَةٍ وَلا خُيُولٍ، وكَأَنَّمَا تُطَارِدُهَا أَشْبَاحُ سِيمُونَةَ[4] المَسْعُورَةُ. بَدَأْتُ أُصَدِّقُ أَنَّ نِهَايَةَ العَالَمِ قَد اقْتَرَبَتْ. وَلَكِنِّي نَسِيتُ أَنْ أَسْأَلَ المُؤَلِّفَ: لِمَنْ تُرِيدُنِي أَنْ أُقَدِّمَ هَذِهِ الرِّوَايَةَ؟ هَلْ بَقِيَ فِي العَالَمِ قُرَّاءٌ مِثْلَمَا كُنَّا فِي زَمَانِنَا؟

مَلْحوظَةٌ: سَوْفَ أَتَوَلَّى رِوَايَةَ قِصَّتِي بِنَفْسِي في

الصَّفَحَاتِ التَّالِيَةِ. لَنْ أَسْمَحَ أَنْ يَرْوِيَهَا أَحَدٌ غَيْرِي!

«لَيْسَ كُلُّ مَا يَلْمَعُ ذَهَبًا وَلَيْسَ كُلُّ شَقْرَاءَ مَلِيحَةً».

«مثل حديث»

في سوبأ: «كلُّ مُا يَلْمَعُ ذَهَبٌ وَكُلُّ سَمْرَاءَ مَلِيحَةٌ».

«مثل قديم»

تُرْجُمَانُ المَلِكِ

«سِيسِّي بن أَبِيلُّو» يروي من خرائب مدافن العَنَج شمال غَرب
أم قحف جنوب سوبأ عاصمة مملكة عَلَوَة العظيمة

كانَ جَدّي «دَلمارُ» تُرْجُمَانَ المَلِك النَّجَاشِي وَكاتِبَهُ لِمُلُوك العَرَب. تَعَلَّمَ العَرَبِيَّةَ وَهُوَ صغيرٌ، حِينَ كانَ يُرافِقُ قَوَافِلَ العَرَب الَتي تأْتي من الشَّرْقِ، وَيَمْكُثُ معهم فيستمعُ إلى كلامِهِمْ وَيَأْكُلُ طَعَامَهُمْ. حَدَّثَني جَدّي أَنهُ تَعَلَّمَ العَربيةَ من قوافل تجار مكةَ، حين كانوا يأتون على مَتْنِ الإبلِ البِجَاوِيَّةِ [5] السريعةِ التي كانوا يستأجرونها مع الأَدِلَّاءِ على ساحلِ بحر الجار (القُلْزُم)[6] كُلَّ شتاءٍ، وكان رئيسُهُم شيخًا شديدَ الوَسَامَةِ وضيءَ الجبين، طَلْقَ المُحَيَّا، مُهابًا، نَديًّا، يقالُ له «هاشم». كان يأتي أَرْضَنَا فَيُقِيمُ ثَلاثَةَ أشهرٍ يَبِيعُنَا اللِّبَانَ والمُرَّ اليمني،

والبضائعَ المجلُوبةَ من الهند إلى اليمن، ويشتري منا الذهبَ والعاجَ وَدَرَقَ السُّلَحْفَاةِ، وَجُلُودَ أَفْرَاس النهر، وأخشابَ الأَبَنُوس، والصمغَ وريشَ النَّعَامِ، ثم يتوجهُ إلى اليَمن فيبيعُ ذلك ويشتري البَضائعَ الهنديةَ مثلَ التَّوَابلِ والزُّمُرُّد والمَرْجَانِ والعقاقيرِ والرِّمَاحِ والكافور. وكانَ يذَهبُ في الصَيف إلى أَرضِ الشَّام وربما دَخَلَ على قَيْصرَ فَيُكْرِمُهُ. ثم انقطعَتْ أخبارُ «هاشم» وصار أبناؤه مِنْ بَعْدِهِ يأتونَ للتجارة. قال لي جدي: عَلِمْتُ من «أبي طالب» حفيدِ «هاشم» أن جَدَّهم مات بغَزَّةَ، حين لم يَعُدْ يأتينا كما عَوَّدَنا كُلَّ شِتَاءَ. وكان «هاشم» حين يأتي إلى عَلَوَة يدعو جدي لمرافقته؛ إذ كانت تُعْجِبُهُ سُرعةُ إتقانِ جدي للعربية، مع صِغَرِ سنهَ، فلم يكن يومَهَا قد بلغَ العاشرةَ. وكان يُقَرِّبُهُ إليه ويُطْعِمُهُ الثَّريدَ والقَديدَ. وكان يصحبُهُ معه إلى النجاشي ليقدمَ التحيةَ والهدايا المصنوعةَ من أفخرِ أنواعِ الجلود. وكان النجاشي يعرفُ أن «هاشمَ» سيدُ قَومِهِ فيبادلُهُ

الهديةَ بمثلِها، وكان يأمُرُ جدي أن يترجمَ كلامَ «هاشم»، ويترجمَ كلامَهُ لـ«هاشم». ثم أُصبح جدي هو تُرْجُمَانَ الملك كلما جاءت قافلةٌ من المشرقِ عَبْرَ بحرِ الجار مع أن جدي كان حينها صغيرَ السن جداًّ.

كانَ جدي يُحِبُّنِي حُبًّا عظيمًا، فكان يَصْطَحِبُنِي إلى تلك القوافل، نَسْتَقْبِلُهَا ونُحَيِّي أَهْلَهَا، ونَشْهَدُ بَيْعَهُمْ وشراءَهُمْ خارجَ الأسوارِ في سوقِ المدينةِ، وجَلْسَات الأُنسِ والسَّمَرِ ليلًا، حين يتحلقون حولَ نارٍ يوقدونها لِتُضِيءَ ساحَتَهُمْ، فيستخدمونها للشواء، ويستدفئون بها من برد شتائنا الجاف الذي تتشققُ منه الجلود. وكانوا يجمعون الحَطَبَ نَهارًا من الأشجارِ المتناثرة خارجَ أسوارِ المدينةِ، وهي كثيرةٌ ومتنوعةٌ، فقد يكتفونَ بأغصانِ النَّجمِ الذي بلا ساقٍ، وقد يحتطبونَ من أشجارِ الهجْلِيلَجِ والقَرَظِ والسِّدْرِ والتَّنْطُب والسَّرْحِ والشَّهَانة، ويجتنبونَ العُشَرَ الذي ينمو كثيراً؛ لأن رائحَتَهُ مُنْتِنَةٌ ودُخَانَهُ كثيفٌ، ولأنه يُفْسِدُ الشِّوَاءَ. وقد

يتسامرون بعد أكل شِواءِ الحُبَارَى والقَطَا والنَّعَامِ والدَّجَاجِ البرّي بأكل البَلَحِ واللالُوب[7] والنَّبَق[8] والهُمْقُع [9] الذي يُشْبِهُ المِشْمِشَ، فإذا شَبِعُوا قاموا يتناشدون الأشْعَارَ. وكانَ رَجُلٌ منهم لا يأتي إلا لزيارةِ أُسْقُف الكنيسة ومحادثَتِهِ والجلوس معه. وكان من حالِهِ أنَهُ إذا شَبِعَ شَرَبَ الخمرَ وَلَبسَ ثوبينِ أسودين ثم قامَ واقِفًا يُنْشِدُ الشِّعْرَ، فيتجمعون حَوْلَهُ يستمعون ويُعْجِبُهُمْ شِعْرُهُ ويَطْرَبُونَ له. قلت لجدي مرة:

يا جدي، مَنْ هذا الرجلُ؟

هذا «أُمَيَّةُ بنُ الصَّلْت». تَعْرِفُهُ كُوَرُ بيت المقْدس وقُرَى عَلَوَة وحُصونُ اليمن وأسوَاقُ العربَ. تَرَكَ بناتِهِ في اليمن وجاء إلى سوبا؛ ليُحَاوِرَ الأسْقُفَ حولَ المذهب الذي تَتْبَعُهُ الكنيسةُ، فقدْ سَمِعَ أنهُ يدعو للتوحيد. «أُمَيَّةُ» يَظُنُّ أنهُ سَيَكُونُ نَبيَّ هذا الزمانِ يومًا ما! سَمِعَ أَحَدَ الكُهَّانِ في الشَامِ يتحدثُ عن قُرْب مجيءِ المُعَزِّي، فانَقدحَ في بَالهِ أنهُ سيصبحُ هو

المُعَزّي، وَاسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَحلُمُ بأَنَّهُ سَيَكُونُ لَهُ خُضُوعَ شُعُوب! أرجو ألا تَكُونَ عَلَوَةُ واحدةً من تلك الشعوب!!

كانَ جَدّي سَاخِرًا ولكنهُ كانَ حَكيمًا، ولهُ مَعْرِفَةٌ مدهَشَةٌ بالرجال، وكانَ نَظَرُهُ فِيهِمْ ثَاقِبًا وحُكْمُهُ صَائِبًا لا يَكَادُ يُخْطِئُ. وكان يُحِبُّ الجلوسَ خارجَ أسوارِ سوبأَ وله مجلسٌ مسقوفٌ بخشب السُّنْط، ومقاعدُ من خشب السَّاج مُزَيَّنَةٌ بالحَريرِ الأَحمرِ ومُطَرَّزَةٌ بالذهبَ الخالصِ. وكان يحبُّ الجلوسَ في هذا المجلسِ دُونَ غيرِه من المنازلِ الكثيرةِ التي يَمْلكُهَا، وقد اتخذَ طاوَلةً يَكْتُبُ عليهَا مُدَوَّنَاته و«منْبَرًا»[10] من الخشبِ يجْلِسُ عَلَيْهِ إذَا أرادَ أنْ يَكْتُبَ.

قُلتُ لجدي مُشيرًا بإصبعي لأعمدَةِ السُّنْطِ الزاهي التي زَيَّنَتْ سقفَ المجلسِ:

بكَم اشتريتَ هذا الخشبَ الجيدَ يا جدي؟ فابتَسَمَ ابتسامةً ماكرةً ثم قال:

دَفعْتُ فِيهِ ثَمَنَ أُجْرَةِ الحَمَّالِ الذي أَوْصَلَهُ من

النيل إلى هُنَا. فقدْ أَتى به النيلُ فى وقت الزيادةِ، فالتقطْتُهُ من الماءِ وَصَنَعْتُ منهُ هذا المَجلسَ الفاخرَ الذي تراهُ. ومع ذلك فهو ليسَ أفخرَ من مجلسِ «أَنطونيوس» الكاهن، المجاور لكنيسةِ «مارية»، من حيثُ مادتُهُ، ولكنَّ العبرةَ هي في بَرَاعَةِ «حَمْرُون» النجارِ الذي جعلَ مجلسي هذا تُحْفَةً وأُعْجُوبَةً، مع أن مجلسَ الكاهن من خَشَب السَّاج الفاخرِ الثَّقِيل، وقد جاءَ بِهِ النيلُ كما جاءِ بسقفِ مجلسي هذا.

ولكن يا جدي من أين يأتي به النيلُ؟

كان جدي يتحلى بقَدْرٍ من الصبر عظيم، وكان يعلمُ شَغَفِي للمعرفةِ وَنَهَمِيَ الذي لا يُشْبِعُهُ شيءٌ، فَوَضَعَ الريشةَ، وطوى مُصْحَفَ[11] مُذَكِّرَاتِه، وقام عن مِنبَرِهِ الصغيرِ المصنوعِ من خشب السَّاج، والمنسوجةِ لُحْمَتُهُ وسُدَاه من الحبالِ الناعمةِ الدقيقةِ، المفتولةِ من سَعْفِ أَشْجَارِ الدَّوْمِ، وانطلق يحدثُنِي:

«يَا وَلَدِي، هَذِهِ الأخشابُ تأتي مع النيلِ

الأخضرِ، من الأعالي، من حيثُ أتى أجدادُكَ الأقدمون، من مكانٍ يقال له «أكسوم» بلد الملك العظيم «عِيزَاَنَا» الذي قضى على مُلْك «مَرَوَي» وكانت عَلَوَةُ في زمانِهِ متسعةً جداً، تشملُ بلادَ «المَقُرَةِ» الحالية إلى مُنْتَهَى النيل، وبلادَ البجَاةِ حتى بحرِ الجار وبلادَ أكسوم، ثَم جاء «عيزانا» فَضَمَّ «مَرَوِي» إليها. ومِنْ حَيْثُ أتى هذا الملكُ تُوجَدُ الغاباتُ والأحراش، ونبعُ الماءِ الحلو الهدَّار في أعالي الجبال، حيثُ أجدادُكَ القُدَمَاءُ الَذين هَاجَروا إلى أكسوم بعدَ دَمَارِ السَّدّ في «سبأ» القديمة، سَنَةَ السَّيْل العظيم، ونَحنُ من سُلالَةِ أولئك الأماجد. حَكى لنا أجدادُنا أن مملكةَ «سَبأ» القديمة كَانت من أعظمِ ممالك الدنيا عُمرانًا وأكثرِها خُضرةً. وكلُّ ما تراهُ في عَلَوَة من خُضرةٍ وَجَمَالٍ لا يُساوي شيئًا إنْ قِستَهُ بحدائق مَأربٍ الجميلةِ وَجَنَّات «سبأ» الظليلةِ فِيمَا حَكَاهُ الأسلافُ. وقد بقيَ لنا من ذكراهم الكثيرُ من العادات والعهودِ مِثْلَ عهدِ الخِتَانِ الذي لا نزالُ نجمَعُ

بينهُ وبينَ المعموديةِ في عَلَوَة، وهو أحدُ مواضعِ الخلاف بيننا وبين الكنيسة، فالمطران يُريدُنا أن نتخلى عن الختانِ وَيَزْعُمُ أَنَّ المعموديةَ تقومُ مَقَامَهُ، ولكن هيهاتَ فهذهِ عاداتُ الآباءِ والأجداد، والناسُ هُنا اعتادُوها ولن يتخلوا عنها بسهولةٍ، فلا بُدَّ من الختانِ قبلَ المعموديةِ. وهناك عاداتٌ وَرِثْنَاهَا من أجدادنا في القديمِ مثلَ تقدمةِ بواكيرِ كُلِّ غِلالِ الأرضِ إلى «سَيِّدِ الكَوْنِ»، وعدمِ أَكلِ لَحمِ الحيواناتَ التي لم يَسِلْ دَمُهَا أو التي هي غيرُ طاهرةٍ بِحَسَبِ شريعةِ موسى، وكذلك طقوسُ الزواجِ مع مواكب «أَصدقاءِ العريس»، وواجب الأخ أن يتزوَّجَ أَرْمَلَةَ أخيهِ لِيُؤَمِّنَ لأخيهِ نَسْلًا، بل إنهُ حتَّى رَقْصَاتُ الكهنةِ هِيَ مُسْتَمَدَّةٌ من عاداتنا القديمةِ، وكذلكَ أعيادُ الاحتفال بآدمَ، ونُوحٍ، وإبراهيمَ، وداودَ، وسليمانَ، وعادَتُنَا في تكريمِ يومِ السبت.

أما مدينَتُنَا هذه (سوبأ الجديدة) فيُقالُ إنَّهُ بناها أجدادُنَا تَخْلِيدًا لِذِكْرَى مملكةِ (سوبأ

القديمة). ويقالُ أيضًا إِنَّ مُؤَسِّسَهَا هو «سَبَا بنُ كوش» كما ذَكَرَت التَّوْرَاةُ في سِفْرِ التكوين[12] وأخبارِ الأيامِ [13] «وَبَنُو كوشٍ سَبَا وَحَوِيلَةُ وَسَبْتَةُ وَرَعْمَةُ وَسَبْتَكَا». وأنها تأسستْ حينَ هاجرَ «سَبَا بنُ كُوش» جَنوبًا في بلاد «كُوش» فَأَسَّسَ مملكةَ سوبأ الَحاليةَ التي شَعْبُهَا أُمَّةٌ مقاتلةٌ طِوَالُ الأجساد، عُرَاةٌ لا يلبسونَ الملابسَ، وقد وَصَفَت التوراةُ في سِفْرِ أَشْعِيَاءَ[14] أَرْضَهُمْ وَرِجَالَهُمْ: « يَا أَرْضَ حَفِيفِ الأَجْنِحَةِ الَّتِي فِي عَبْرِ أَنْهَارِ كُوشَ، الْمُرْسِلَةَ رُسُلًا فِي الْبَحْرِ وَفِي قَوَارِبَ مِنَ الْبَرْدِيِّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ. اذْهَبُوا أَيُّهَا الرُّسُلُ السَّرِيعُونَ إِلَى أُمَّةٍ طَوِيلَةٍ وَجَرْدَاءَ، إِلَى شَعْبٍ مَخُوفٍ مُنْذُ كَانَ فَصَاعِدًا، أُمَّةِ قُوَّةٍ وَشِدَّةٍ وَدَوْسٍ، قَدْ خَرَقَتِ الأَنْهَارُ أَرْضَهَا».

ويقالُ إِنَّ «مَعْبَدَ أكسوم» ما يزالُ في أعالي الجبالِ مِنْ حيثُ يأتي النهرُ فقدْ شُيِّدَ في قِمَّةِ الجبلِ حينَ كانت أكسومُ هي عاصمةَ عَلَوَة قَبْلَ أن تنتَقلَ إلى سوبأ، وفيه يحتفظون بتابوتِ

العَهْدِ ولَوحَي الوصايا، فقد حَمَلَ «فنيليكْ» كُلَّ هذا مَن أورشليم خِفْيَةً حين أُحْرِقَ الهيكلُ.

وهل رأيتَ مملكةَ عَلَوَة كُلَّهَا يَا جَدّي؟

«يا ولدي، لقد كبرَ جَدُّكَ في السّنّ، ولكنني حين كنتُ في مثل عُمُرِكَ طُفْتُ مُعْظَمَ أَنْحَاءِ عَلَوَة وهي واسعةٌ ممتدةٌ جدًّا، ورأيتُ أَنَاسِيَّ وأجناسًا كثيرينَ يتكلمونَ بألسنةٍ لَمْ أَفْهَمْهَا، يَقْطُنُونَ القُرَى وَالضّيَاعِ والجزائرَ، ورأيتُ المواشيَ والشجرَ والنَّخْلَ والمَقْلَ والزرعَ والكَرْمَ، ورأيتُ النيلَ يَتَعَطَّفُ وَعَلى ضفتيه التماسيحُ وأفراسُ البَحْرِ، ورأيتُ جَزَائِرَ عِظَامًا وَقِفَارًا إِلى الشَّرْقِ من «الأبواب» مَسيرَةَ أَيَّامٍ، فيها الجبالُ والوحشُ والسباعُ، وَمَفَاوِزَ فيهَا العَطَشُ والموتُ، وسافرتُ كثيرًا مع العربِ التجارِ حَتَّى بَرّ اليمن، وَبَرّ عَيْذَابَ، فرأيتُ سَوَاكِنَ وبَاضِعَ ودَهْلَكَ وَجَزَائِرَ البحرِ وَ...».

كان جدي مندفعًا في الكلام بحَمَاسٍ مُتَوقّدٍ، فلمْ يَلْحَظْ دَهْشَتِي وانتباهي وأنا أستمعُ إِليهِ،

حَتَّى إننَّي توقفتُ – دونَ أنْ أَشْعُرَ – عنْ تحضيرِ أوراقِ الكتابةِ «لمُصْحَفِه»، وقمتُ عن «المِنْبَرِ» الذيَ كنتُ أَجْلَسُ عليَهِ دُونِ أنْ أنتبهَ إلى المِحْبَرَةِ التي كِدتُ أَن أَقْلِبَهَا فَأسْكُبَ الحبرَ الذي عكفتُ على تحضيرهِ من الصَّمْغ ومَسْحُوقِ الفَحْم الأسودِ المخلوطِ بالرَّماد. ووقفتُ قريبًا منه أُحَدّقُ إلى وجهِهِ وهو يتحدثُ باندفاعٍ وعيناهُ تَتَوَقَّدَانِ. وحينَ التفتَ فَجأةً فَلَاحَظَنِي قَالَ:

حِينَ كنتُ صَبيًّا مثْلَكَ سافرتُ مُسْفِلًا إلى بلاد «المَقُرَة» وكَنتُ أتحدثُ بلسانِهم، وطُفتُ بلادَهُمْ جميعَهَا، وزرتُ «أَخْمِيمَ» و«ليكُوبُوليسَ» (أسيوط) ووصلتُ خرائبَ «تَافَة» على مرحلةِ من «أسْوَان» وزرتُ «نَجْرَاشَ»، وهناكً علمتُ أن أهْلَهَا كانوا صَابئَةً يَعْبُدونَ الكواكبَ وينصبونَ التَّمَاثيلَ ثم صاروا يَعَاقِبَةً، وزرتُ «دُنْقُلَة» ثم عدتُ بَرًّا حتى دخلتُ عَلَوَةَ من ناحيةِ «الأبواب» في الشرقِ على شاطئِ النيلِ، ثم أخذتُ مَرْكبًا من هناك حيثُ

رأيتُ سفينةَ «الرَّحْرَاح» (الوالي) من قِبَلِ النَّجَاشِيِّ تتهادَى على صَفحةِ الماءِ وقد زُيِّنَتْ بالأشرعةِ.

ولكنْ، من أينَ تأتي مياهُ النيلِ يا جَدّي؟

«هذا النيلُ يا ولدِي هوَ النيلُ الأخضرُ يأتي من ناحيةِ المشرقِ منحدرًا منَ الجبالِ، وتراه فى الصيف شديد الخضرة صافي اللون جداً يُرَى ما في قعره من السمك، فإذا كان وقت زيادة النيل كما هو اليوم – نبع فيه الماء وزادت البرك التي حوله وأقبل المطر والسيول في سائر البلد فوقعت الزيادة في النيل، وحمل الطين وتغير لونه فصار بين الحمرة والسواد، ويأتي فيه وقت الزيادة خشب الساج والبقم والغثاء، تتناثر على شاطئيه، ويتنافس النجارون في التقاطه واقتنائه، مثلما فعلت أنا، ويأتي عود البخور، ونتخذ منه سقالات الساج المنحوتة، ويجتمع هذا البحر[15] الأخضر مع آخر أبيض إلى الشمال من سوبأ، يأتي من بلاد الزنج

ويبقيان على ألوانهما قريبًا من مرحلة، ثم يختلطان بعد ذلك وبينهما أمواج كبار عظيمة بتلاطمهما وبين هذين النهرين جزيرة غير مأهولة».

وبينما كان جدي مندفعًا في شرحه التفت فجأة فرأى رسول النجاشي قادمًا على فرسه المهيب المسرج والموشى بالحرير، فقطع حديثه معي وخرج إليه وجلسا غير بعيد يتحدثان، وقامت الجواري تخدمهما وتسقيهما نبيذ التمر.

كان جدي مقربًا من النجاشي وكاتمًا لأسراره؛ فقد كان واسع المعرفة، متوقد الذكاء، قوي الذاكرة، عظيم الحيلة، وكان يمتاز بروحه الطيبة وتواضعه الجم، ولهذا فقد صار محبوبًا من العامة والخاصة، فإذا دخل قصر النجاشي هشَّ له الحراس واستقبلته الحاشية بالترحاب وكان كل من له مظلمة أو حاجة عند النجاشي يعلم أنه ما من أحد أضمن لقضاء حاجته لدى

الملك من جدي «دلمار»، فهو «الداوكاتي»[16] للجميع، وهو الذي عمل مترجمًا وكاتم أسرار لأكثر من نجاشي في هذا القصر المنيف، آخرهم النجاشي الحالي «أَصْحَمَة بن الأبجر»، ويعرف أسرار المملكة ودسائس حبائل السياسة وحيل الكهان وتقلبات الكنيسة، كما أنه عاصر التجار، خاصة العرب، ويعرف أسماءهم وأنسابهم وقبائلهم لطول مكثه معهم ومرافقته لهم حين يأتون إلى عَلَوَة. وكانت له معرفة كبيرة بالقبائل والأجناس الكثيرة في عَلَوَة وما حولها من القبائل من النوبة العنج والبجاة والزنافج والزنج والكارنينا والفرس والعرب واليهود القاطنين في أعالي الجبال وقبالة ساحل اليمن، وكان يقرأ ويكتب العربية والآرامية والعبرية والرومية اليونانية كما يقرأ ويكتب الحبشية. وكان عظيم المعرفة بأسفار العهد القديم وأناجيل العهد الجديد، وعاصر كثيرًا من المطارنة والكهان، حتى إنه في شبابه سافر إلى الإسكندرية وشهد

بعض الأحداث التي وقعت هناك أثناء إقامته بها، وقد كانت الإسكندرية حبلى بالأحداث في زمانه، وكان يرافق المطارنة والأساقفة الذين تبعث بهم الإسكندرية إلى بلاد عَلَوَة، وسافر على النيل شمالًا حتى بلغ منتهاه إلى بحر الروم.

كان جدي حينما يطوف مدينة سوبأ يحرص على أن أكون ضمن موكبه فيجعل فرسي قريبة من جواده حيث نمر ببيوت سوبأ الجميلة المبنية من الآجُرِّ الأحمر، وحدائقها وبساتينها الغناء ودورها الواسعة وقد انتثرت مباني الكنائس هنا وهناك حول الدور والقصور، وانتصبت كنيسة «مارية» شامخة في وسط المدينة بجدرانها العالية الحجرية وأعمدتها المَرَوِيَّةِ القديمة، وأبوابها المصنوعة من الذهب الخالص، ونقوشها الجميلة وتصاويرها المزينة، وقد تم تحويلها إلى كنيسة بعد أن كانت معبدًا مرويًّا قديمًا فجمعت بين عراقة التصميم القديم وجمال العمران المسيحي

الحديث. وتوزعت مقار الجيش ومرابط الخيل خارج أسوار المدينة، فعَلَوَة بها جيش جرار كثير العدة والعتاد، يتكون معظمه من النوبة «العَنَج» العمالقة طوال الأجسام، وهو جيش لا تتسع له سوبأ؛ ولهذا فقد أحاطت مقاره بالمدينة خارج الأسوار من جهاتها الثلاث، أما جهة النيل فليس بها أسوار لأن النيل يحميها، وللملك أسطول كبير من السفن والمراكب الشراعية يرسو غربي قصره، قبالة الطرف الشمالي منه، وكل من يريد دخول المدينة لا بد أن يمر عبر أبوابها إلا إذا جاء من ناحية النيل.

تقع أسواق سوبأ خارج أسوار المدينة، وقد قصدوا ذلك حين إنشائها حتى تكون سوبأ خالصة لأهلها ويتمكن القاصي والداني من البيع والشراء دون الحاجة للدخول. حتى النساء والجواري يبعن ويشترين في أسواق سوبأ دون خوف أو وجل، فإذا جئت إلى سوق الخضر وجدته عامرًا بأنواع الخضراوات والفواكه والبطيخ والتمر، وجواره سوق

الحبوب حيث الذرة البيضاء التي يصنع منها الخبز والكسر والمزر، وأما سوق الألبان فتجد فيها ألبان الضأن والمعز والإبل والبقر. المواشي في عَلَوَة تفوق العد والحصر، وتأتي نساء الرعاة إلى السوق بجلابيبهن المزركشة، يركبن على ظهور الحمير الجرداء، يأتين من المروج الواسعة التي تقع إلى الشرق من سوبأ يبعن الحليب واللبن الرائب والسمن المستخلص من الألبان، يستبدلن هذا بزكائب الذرة البيضاء والحبوب، ينقلنها على ظهور الحمير.. والرعاة حول سوبأ عندهم خيل عتاق وجمال صهب عراب. وفي سوبأ لا نذبح الإبل ولا المواشي إلا إذا لم يكن موسم صيد، فسوق اللحم يعج بلحم الطرائد من الغزلان والأريل وحمر الزرد ولحم الطير من الحبارى. وأما السمك فنصطاده من النيل الأخضر. وهناك سوق الخيل، وأسواق الصناعات مثل سوق الحديد والزجاج والسلاح، والدروع وسروج الخيل والإبل، وسوق الأحذية، وسوق الصاغة

وسوق النجارين وسوق النساجين وسوق العبيد والجواري وأسواق أخرى كثيرة سمعت عنها ولم أرها كلها حتى اليوم، مع أنني في الخامسة عشرة من عمري. وعلى ذكر سوق العبيد فقد قال لي جدي مرة ونحن في السوق وكان الملك يمر ناحيته فسجد له جميع من في السوق وكان الناس يهتفون (الملك يعيش فليكن أمره).

«يستطيع سيدنا النجاشي أن يجعل أي إنسان في مملكة عَلَوَة عبدًا له أو خادمًا ويجب على الناس ألا يمتنعوا، بل إنهم يقبلون بهذا وهم ممتنون للملك فهو شرف عظيم أن تكون عبدًا للملك ويجب على الجميع أن يسجدوا للملك كلما مر في الطرقات أو الأسواق أو في أي مكان».

قصر الملك مليء بالجواري والعبيد الذين لا حصر لهم، ومعظمهم ليس من بلاد عَلَوَة، فكثير منهم يتم أسرهم في الحروب، أو شراؤهم من

تجار العبيد الذين يختطفونهم وهم صغار السن من خارج مملكة عَلَوَة من القرى البعيدة، فينشئون في قصر الملك ولا يعرفون ولاء إلا له. وهناك كثير من الجواري على قدر كبير من الجمال، وهن لا يغطين صدورهن، بل يكتفين بلبس إزار مكون من شرائط متعددة الألوان يلف حول وسطهن. والعجيب أنهن يحرصن على تغطية شعر الرأس بقطع من القماش. بعض الجواري من الزنج وأخريات من الزنافج أو النوبة والتكرور. قليل من العبيد والجواري يذكرون من أين جيء بهم، والبعض الآخر كانوا صغارًا فلا يعرفون بلادهم، بل إن بعضهم لا يذكر أباه وأمه. الجواري تتولى رعايتهن «أمنا سيتا» وهي راهبة بالكنيسة، بينما يتولى رعاية الصبيان «أبونا يوأنس» الذي هو خادم في الكنيسة.

كنت أرتاد الكنيسة بدافع الفضول، فقد كانت أصوات الأجراس تشدني إليها منذ الصغر، وكان جدي يصحب «أمية» إليها كلما جاء إلى

سوياً ليقابل الأسقف المعين من قبل صاحب الإسكندرية يقرأ له الكتب التي بالرومية ويفسرها بلسان الحبشة ويقوم جدي بترجمتها للعربية حتى يفهمها «أمية»؛ فقد كانا صديقين منذ زمان وكان يحكي له تاريخ الكنيسة. وبينما ينشغل جدي و«أمية» بالكتب والقراءة والحوار أشغل نفسي بمطالعة الصور الملونة على جدران الكنيسة، والزخارف الجميلة والنقوش والكتابة، وكنت أدهش لكثرة الذهب في كل معلم من معالمها؛ فقد كانت أبواب الكنيسة من الذهب الخالص، وكان تاج رئيس الكهنة وقلنسوته وصليبه ومنسأته من الذهب الخالص وكان يلبس ذهبًا كثيرًا حول عنقه وأسورة من الذهب في يديه. وبين الفينة والفينة كنت أستمع إلى حواراتهم فسمعت الأسقف يحكي لأمية بعض تاريخ الكنيسة وكان «أمية» يتابع باهتمام. قال رئيس الكهنة:

أنت سمعت القصة المختلقة من أهل غزة يا «ابن أبي الصلت» وهم يزعمون أن البشارة

وصلت إلينا عن طريق «متى» العشار حين أمره «بطرس» بالقدوم إلى بلادنا بعد أن بنى كنيسة روما، في العام 62 لميلاد المسيح له المجد، لتنفيذ وصية المسيح بتلمذة جميع الأمم، ولكنني أؤكد لك أن هذه قصة لا أساس لها وأن «متى» تنيح قبل أن يصل إلى بلادنا، وأن من جاء إلينا بهذا النور هو جدي «فرمنتيوس»، بعد أن تمت رسامته من قبل «أثناسيوس» بطريرك الإسكندرية عام 326، وهو أول مطران لبلادنا. وأنت تعلم أنه بعد مجمع «نيقية» ثم مجمع «خلقيدونية» عام 451 انفصلنا عن روما وغيرها وأنني كمطران لكنيسة عَلَوَة لا أتبع إلا للإسكندرية.

قال «أمية» ضاحكًا:

أتفق معك أيها الكاهن أن «متى» لم يقتل في هذه البلاد، ولكنها مشهورة بقتل المؤمنين بدينكم والتلاميذ، فقد قتلوا «متياس» الذي خلف «يهوذا الإسخريوطي».. وحتى

«فرمنتيوس» نجا من الموت بأعجوبة، فقد قتلوا كل من كان معه.. والعجيب هو أن كنيستكم هذه غيرت تبعيتها فجأة، ففي حين وجدت أن أهل المقرة يعاقبة إذا بي أجدكم ملكانيين، وقد سمعت أن كنيستكم هذه في القديم كانت تنتسب إلى الرسول «برتلماوس» وإلى القديس «متى»، فما الذي حدث ليجعلها تغير انتسابها إلى «فرمنتيوس» و«أثناسيوس»؟

هذا أمر يخص الكنيسة وحدها ولا شأن لك به!!

هأهأ. حسنًا. أنت تعلم أنني ما جئت بلادكم إلا لأنني أبحث عن الدين الحق، ولو وجدته عندكم لقبلته، ولكنني لا أؤمن بديانتكم هذه، فأنا أقرب إلى «الأريوسيين» في فهمي من مذهبكم هذا الذي يحمل في ظاهره التوحيد وفي باطنه عقيدة أخرى. فالإله الواحد الأحد هو الأزلي، والابن ليس أزليًّا ولكنه خَلْقٌ من خَلْق الله، فالله هو الوحيد الذي لم يولد وليس لَه بداية أو

نهاية، وهو ليس مخلوقًا أما المسيح فهو كائن مولود مستقل ومختلف عن الله وله طبيعة مغايرة ومشيئة مختلفة. وما لا أفهمه هو أنكم تقولون بالطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة.

قال رئيس الكهنة مقاطعًا:

أنت هكذا يا عزيزي لا تكون أقرب إلى «الأريوسية»، بل تكون أقرب إلى «النسطورية» التي تقول إن السيدة العذراء لم تلد إلهًا لأن ما يولد من الجسد ليس إلا جسدًا والمخلوق لا يلد خالقًا وبهذا فهي ليست والدة الإله بل والدة المسيح الإنسان .

قال أمية معترضًا:

«النسطورية» ليست دين توحيد أيها الكاهن المحترم، فهم يعتقدون أن في المسيح طبيعتين بشرية وإلهية.

قال رئيس الكهنة:

أنا مندهش من اجتهادك من أجل معرفة

عقائد الكنيسة يا «ابن أبي الصلت» مع أنك أخطأت فهمها. وعلى كل حال أنت حرٌّ في أن تعتقد ما تشاء ولكن مذهبنا هو الحق الذي أقره مجمع «أفسس» منذ عام 431 فنحن نعتقد أن للمسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة وأن اتحاده مثل الماء يلقى على الخمر فيصيران شيئًا واحدًا إلهيًّا اتحد بالطبيعة الإنسانية اتحادًا تامًّا بلا اختلاط أو امتزاج، والسيدة العذراء هي بحق والدة الإله، فقد ولدت الله المتجسد له المجد، فالمسيح هو الله.

قال هذا ورسم بالصليب على الهواء من وسط جبهته إلى أسفل صدره، ثم نقلها إلى كتفه اليمنى ثم كتفه اليسرى. وقال متمتمًا: «بسم الأب والابن والروح القدس، الإله الواحد آمين». وبعد ذلك أدار رأسه بعيدًا عن «أمية» كأنه يريد أن ينهي هذا الحوار.

كنت أستعرض هذه المشاهد في ذهني وأنا جالس في مسقوفة المجلس حين قطعها صوت

جدي فجأة إذ وقف وأمر العبيد بإسراج فرسينا، وقال يخاطبني: نحن سنذهب لمقابلة سيدي النجاشي، فهل تأتي معنا؟ ولم ينتظر إجابتي فقد كان جدي عازمًا على اصطحابي معه. وفي الطريق إلى قصر النجاشي قابلنا موكب رئيس الكهنة في كامل زينته فَقَدَّرتُ أن الأمر جلل. كان رئيس الكهنة قد جاوز السبعين من العمر وقد رسمت السنون آثارها على جبينه ووجهه وخط الشيب صُدغيه ولحيته فبدا مهيبًا في زيه بكامل لباس الكنيسة، فهو يلبس «التُّونِيَّة» إشارة إلى ثوب المسيح الذي ألقى عليه اليهود القرعة، وقد علق «البتراشيل» على عنقه وعاتقه وقد رسمت عليه صور الرسل القديسين الاثني عشر، وعلى الحجرين أسماء الأسباط الاثني عشر وقد حملها على كتفي الرداء تذكارًا لبني إسرائيل. وكان يتمنطق عند ثدييه بمنطقة من ذهب، وكانت تونيته تنتهي بأكمام نقشت عليها نصوص من المزامير: «يداك صنعتاني وأنشأتاني، فهمني فأتعلم وصاياك، تمد يدك

وتخلصني يمينك، يمين الرب مرتفعة، يمين الرب صانعة بقوة». وكان يلبس «البُلِّين» على هيئة صليب من أمام وخلف ويضع «البُرْنُس» وهو مثل الرداء يحيطه من كل جهة، وفوق ذلك كله يضع «التاج» وعليه صفيحة «الإكليل» المنقوش من الذهب، وكانت جميع ملابس رئيس الكهنة بيضاء.

وكان الكهنة يتحلقون حول رئيسهم ويتبعونه وهم يلبسون «التونية» و«البدرشين» و«البرنس» و«الأكمام» و«الشملة»، وأما الشمامسة فيلبسون «التونية» و«الزنار» ويسيرون وراء الكهنة.

أشار جدي بالتحية لرئيس الكهنة دون أن ينبس بكلمة، ورد رئيس الكهنة التحية بمثلها، وواصل الموكبان سيرهما في صمت لا تسمع فيه إلا وقع حوافر الخيل وزفرات أنفاسها وصوت أقدام الشمامسة الذين كانوا يسيرون ولا يركبون.

ودلفنا إلى الطريق الواسع المؤدي إلى بوابة قصر النجاشي، وكان القصر شامخًا وراء البوابة بأبنيته العالية من الحجر الناصع، والآجر بألوانه المائلة للحمرة وزخارفه والنقوش التي تزين جدرانه من الخارج، وعلى المدخل يربض أسدان من الحجر الأبيض، وقد أحيط القصر بخندق مائي عريض. ووقف الحراس خارج البوابة الرئيسية بوجوههم التي أنضجتها حرارة الشمس، فهم لا يبتسمون أبدًا ولا يتكلمون، ولم يبتسموا لرئيس الكهنة عندما مر بموكبه، ولكنهم لما رأوني وجدي رحبوا بنا بوجوه أوشكت أن ترسم الابتسامة عليها، ولكنهم أطبقوا عليها قبل أن تَفْتَرَّ فكبتوها، واستبدلوها بصرامة مزيفة، حتى لا تفضحهم دواخلهم. وترجلنا من أفراسنا فأخذها الخدم إلى مرابط قريبة، من البوابة، وسار موكبنا راجلًا عبر الممر الطويل النظيف المرصوف بالحجر، والمؤدي إلى البهو الكبير غير المسقوف عند مدخل القصر والذي يعج

بالجواري والخدم، الذين كانوا يسيرون هنا وهناك، في صمت مهيب. وأجلسونا على منابر من الحجر الصَّوَّان المصقول في انتظار الإذن بالدخول على الملك!

وبعد برهة جاء رئيس الخدم فحيانا وقال:

إن سيدي النجاشي يأذن لرئيس الكهنة للتشرف بالدخول والتحية. قال هذا وأشار لبقية الحضور من الكهان والشمامسة لينتظروا خارجًا. وعلى الفور خلعنا أحذيتنا المصنوعة من جلود الأصلة والنمور، وجاءت الجواري فأخذنها ومضين ليضعنها حيث يحتفظون بأحذية الضيوف. أمسك جدي بيدي ففهمت أنه يريدني أن أدخل معه. وبالفعل دخلنا القاعة التي تؤدي إلى عرش النجاشي!! قلت لجدي هامسًا:

– لم يذكر رئيس الخدم اسمك يا جدي، وذكر اسم رئيس الكهنة فقط، ومع ذلك دخلنا ولم يمنعونا مع أنهم لم يسمحوا لبقية الكهنة

بالدخول فلماذا؟.

– لأننا نعتبر من حاشية الملك يا ولدي، بينما الكاهن يعتبر زائرًا، وكنا سندخل في جميع الأحوال ورئيس الخدم يعرف هذا فلم يذكر اسمي، وأنا أدخل على الملك بغير استئذان، وكل من يصحبني بالطبع! وسترى هذا بعد قليل. قال هذا وضغط على يدي براحة يده ضغطة حانية.

القاعة الملكية واسعة جدًّا ومقسومة قسمين: قسم عالٍ وعليه سرير الملك وقسم منخفض تقف عليهِ الحاشية والزوار، وسرير الملك لا يستقبلك وأنت تدخل، ولا تراه حتى تسير في القاعة ثم تستدير يمينًا فتراه وتصعد إليه بضع درجات على هيئة أنصاف دوائر متراكبة فوق بعضها ومغطاة بالمخمل. وسجدنا جميعنا للنجاشي، ثم نظرت خلسة وأنا ساجد، فرأيت أن جدي ورئيس الكهنة قد شرعا في رفع رأسيهما والاعتدال واقفين فقلدتهما. وأومأ

النجاشي لجدي للاقتراب منه ففعل! وبقيت أنا ورئيس الكهنة ننظر وننتظر.

ملأت الدهشة جوانبي حين نظرت إلى الملك فرأيت أنه صغير السن مثلي، بل كان أصغر مني سنًّا!. كان يجلس على سرير المُلْك وهو يضع تاجه الذهبي الطويل فوق رأسه، وقد بدا التاج وكأنه حمل ثقيل فوق رأسه الصغير، وقد لبس حلته الحمراء البراقة المصنوعة من الحرير والموشاة بخيوط الذهب، والتي تلمع تحت ضوء الشمس المنساب من فتحات السقف الزجاجي الملون، وقد أمسك بيده اليمنى منسأته المصنوعة من خشب الأبنوس الأسود والمرصعة بالجواهر والذهب. وكان البخور يعبق من كل مكان فتشم رائحته ولا ترى مكان انبعاثه، وفي أقصى اليمين واليسار خلف عرش الملك وقفت الجواري على أهبة الاستعداد لتلبية أي إشارة من الملك. وكان البعض منهن يحمل مراوح ذوات أذرع طويلة من القنا، وقد ركب عليها ريش النعام بألوانه

الزاهية، وكن يلوحن بها يمينًا وشمالًا ليتحرك الهواء وتبرد القاعة وتنتشر رائحة البخور. وعجبت لكثرة الذهب الذي يزين كل شيء في القاعة الملكية: الستائر والجدران والمقاعد والكراسي والطاولات والنوافذ ومنسأة الملك! لم أر مثل هذا القدر من الذهب، حتى ولا في أسواق الذهب الفاخرة خارج مدينة سوياً!

كان النجاشي يحدث جدي بصوت منخفض، نسمع همهمتهما ولا نتبين كلامهما، وكان بين الفينة والأخرى يطالعني باهتمام. وفي مرة نظر جدي ناحيتي وابتسم ثم عاد يكلم النجاشي فعلمت أنني موضوع الحوار.

لاحظت يومها أن لجدى عند الملك منزلة خاصة، فهو يقربه منه ويكلمه ويسر إليه بالحديث ويضحكان، وهو مستودع أسراره وموضع ثقته. أليس هو كاتبه وترجمانه؟ وبعد برهة أومأ إليَّ جدي بيده أن أقترب فسرت خائفًا ناحية النجاشي، ولكن خوفي زايلني

وَسَرَتْ في نفسي طمأنينة حين انفرجت شفتا النجاشي عن ابتسامة صادقة، أنارت وجهه، ومد يده إليَّ فانحنيت وقَبَّلتها. قال لي سيدنا النجاشي:

– ما اسمك يا أخي؟

– «سِيسِّي» يا سيدنا.

– أمك «تَانِيشَا»؟

– نعم يا سيدنا.

– أنت ورثت ذكاء أمك.

ثم نظر إلى جدي مبتسمًا وقال:

– وحكمة جدك «دَلمار» !

قال جدي وقد ارتسمت الفرحة على وجهه:

– هذا لطف منك يا سيدي وعطف كبير.

قال النجاشي:

– أنتم يا «دَلمار» منا وفينا، فأنت في مقام أبي، ولك عليَّ فضل كبير، لا أنساه ما حييت.

وحفيدك «سِيسِّي» هذا هو مثل أخي الآن. أريده أن يصحبك إلى القصر دائمًا ويشهد مجالسنا ويتعلم منك أساليب مرافقة الوفود ونظام الضيافة! ومن يدري فربما نكلفه ببعض شئوننا.

– سمعًا وطاعة يا سيدي أنا وحفيدي وأهل بيتي جميعًا رهن إشارتك فنحن عبيدك وخدمك!

سألت جدي ونحن خارجان من قاعة الملك:

– النجاشي صغير السن جدًّا يا جدي، هو في مثل سني أو أصغر.

– حين تولى الملك كان في التاسعة من عمره يا «سِيسِّي». ولكن لا يغرنك صغر سنه، فهو من أكبر الناس عقلًا وفهمًا فعقله يفوق سنه كثيرًا.

– ولكن كيف عرف النجاشي اسم أمي يا جدي، هل أخبرته به؟

– النجاشي يعرف جميع أهل سوبأ يا «سِيسِّي»، وأمك «تَانِيشَا» ليست نكرة، فأنت تعرف أنها صديقة الملكة، وهي التي اختارتها زوجة لسيدنا النجاشي في العام الماضي. وقبل هذا فنحن أحفاد «أرياط» العظيم، ونحن جميعًا من المقربين للملك جداًّ.

تذكرت أن أمي كانت تذهب كثيرًا إلى قصر الملك النجاشي، وتدخل على الملكة الشابة بغير إذن وتمضي معها الساعات الطوال، وتعلمها كيف تتصرف كملكة ثم تحكي لجدي حين تعود للبيت وكان جدي يزودها بالنصائح ويشير عليها.

– ولماذا لم يقل لي يا بن «أَبِيلُّو»؟

– .....

– حقيقة يا جدي لماذا ناداني باسم أمي ولم ينادني باسم أبي؟

رغم أنني أعدت السؤال على جدي «دَلمار» فإنه ظل صامتًا ولم يجب.

ظللت طوال الطريق لما كنا عائدين إلى بيت أبي أفكر فيما رأيته وسمعته. جمال القصر وهيبة النجاشي وحكمته بالرغم من صغر سنه، وشخصيته الودودة المحببة، والحرس ذوو السواعد والأذرع المفتولة، الذين لا يلبسون سوى إزار من القماش المزركش، وقد زينوا رءوسهم وأعناقهم وسواعدهم بعقود من الخرز والودع، والمرجان الملون البراق والزمرد الأخضر. وحرس النجاشي وقد دهنوا أجسادهم الخُلاسية بزيت جعلها تلمع تحت ضوء الشمس فتبرز تقاطيع أجسامهم العارية وهم يحملون الحراب ذات الأعواد الطويلة المصنوعة من القنا والممتدة إلى قرب سقف القاعة.

والجواري الحسان الواقفات عن يمينهم وشمالهم. رأيت جواري كنت أعرفهن جيدًا قبل أن يملكهن النجاشي، فقد لعبت معهن ونحن صغار، وكن مترعات بالبراءة: «سُنْجَاتَا» و«سِيسِّيا» و«مُونِيتَا». لم تكن أنوثتهن يومها قد اكتملت، ولا كانت وجوههن بالزينة

والملابس الزاهية التي صرن يرتدينها الآن. لاحظت أن نظراتهن ناحيتي قد اختفت منها تلك البراءة التي كنت أعهدها. ظلت «سُنْجَاتَا» تنظر إلى الأرض طوال فترة وجودي. لم ترفع رأسها لتنظر إليَّ أبدًا. كنت قد تعلقت «بسُنْجَاتَا» ونحن صغار، وكنت أحلم أن تكون لي في يوم من الأيام. وها هي الآن جارية في قصر الملك. ياللأسف. لعلها شعرت بالخزي من حالتها فلم تنظر إليَّ، رغم أنها صارت جارية الملك وهذا شرف وفخر لها. ورغم أنها لم تنظر في عيني أبدًا فإنني لمحت فيهما بريقًا توهج عند رؤيتي ثم خبا فجأة ولم يبق منهما غير محجرين أطلت منهما حدقتان تنظران إلى الأرض. كان في عيني سُنْجَاتَا شيء قرأته ولم أفهمه. وهي لم تساعدني على فهمه. لعله حزن عميق. ورأيت من الخدم أيضًا أولادًا كنت أعرفهم قبل أن يصيروا عبيدًا للنجاشي: «دُوجُّو» و«مِنلِيك» و«سِمْبَا» و«دُوَمَاكا» و«عِبْدِي». حين رأيتهم حلقت فوق رأسي

الذكريات القديمة، ذكريات الطفولة والبراءة وكأنني انتقلت فجأة إلى عالم مسحور. وحين عدت لواقعي تمنيت لو أن لي مثل ما لجدي «دَلمار» من مكانة عند النجاشي. قلت لنفسي ذاك بعيد، فقد وصل جدي لهذه المنزلة بعد أكثر من خمسين سنة في القصر، بينما هذه زيارتي الأولى. ولا بد أنه عاصر النجاشي الحالي منذ ولادته، وهو الآن مستودع أسراره. وسألت نفسي يا ترى كيف كانت زيارة جدي الأولى للقصر وماذا قال له النجاشي الكبير يومها! هل استقبله بمثل ما استقبلني النجاشي الحالي! أظن أن فرصتي مع الملك ستكون أفضل فهو في مثل سني وقد أحبني من أول لقاء. ويبدو أننا سنصبح أصدقاء في يوم من الأيام. ثم قلت لنفسي: تخيل نفسك يا «سِيسِّي» وقد صرت صديقًا للملك! لا أريد أن أصدق هذا.

سُنْجَاتَا

«قصة حب نسي الزمان أنه رواها
من قبل فأعاد تكرارها»

نشأت في بيت أمي «تَانِيشَا» وأنا لا أعرف أبًا غير جدي «دَلمار». وكان يحبني حبًّا عظيمًا، فكنت أهرول إليه وأنا صغير كلما عاد من سفر أو من القصر لأنني أعلم أنه قد أحضر لي هدايا معه. لم يكن مهمًّا ما هي الهدية ولكنني كنت أفرح بما يحضره لأنني لحظتها أحس أن لي قيمة وأن هناك من يتذكرني وهو بعيد. مرة أحضر لي قلابة لقنص الطيور، فقد كان يعلم ولعي بصيد القطا، وفي مرة أحضر لي «نبلة» تشبه المقلاعِ. مقبضها من خشب الأبنوس، وشريطها سَيْرٌ من جلد «التيتل»، فكنت أتباهى بها بين أقراني عدة أيام قبل أن تصير عادية. وفي مرة أخرى حين عاد من الإسكندرية أحضر لي معه «خذروفًا»[17] فكنت أديره في

دكة باحة الكنيسة المنحوتة من الحجر الصوان، فيطن طنينًا وهو يدور حول نفسه ويحدث صوتًا مثل رفيف أجنحة طائر الدوري حين يوشك أن يحط على نافذة غرفتي من الخارج. ورأته «سُنْجَاتَا» فأعجبها، وحين لمحتُ البريق في عينيها أخبرتها أنه يمكنها أن تحتفظ به لتلعب به في بيتها، فطبعت على خدي قبلة سريعة مباغتة ثم انطلقت تركض به نحو بيتها.

حين سألتني أمي مساء ذلك اليوم عن «الخذروف» أين هو وماذا فعلت به، نظرت إلى الأرض حياء وتغير لون وجنتى، فقالت أمي:

– «سُنْجَاتَا»؟!

أجبت وكأنني سأموت من الخجل.

– نعم يا أمي!

– هه.. متى صرت بهذه الشقاوة؟ أعرف أنك مسكين وقليل الحيلة. واضح أن أقرانك علموك الشيطنة. سوف أنتبه في المرة القادمة وآخذ

بالي منك!! وهي ماذا أعطتك بالمقابل؟

قالتها وقرصتني في خدي وهي تبتسم ابتسامة عريضة. جدي «دَلمار» كان مشغولًا معظم الوقت، ولذا فقد كانت أمي هي بمثابة أمي وأبي. كنت قريبًا منها فكانت تخبرني بأشياء كثيرة وكنت أخبرها بكل شيء يحدث معي، إلا ما يحدث بيني وبين «سُنْجَاتَا».

لم أعرف ما هو شكل أبي، فلم أره قط. قال لي جدي إنني ولدت بعد فقدان أبي بأشهر قليلة، شهرين أو ثلاثة. وحين كبرت قليلًا وكان الأطفال يلعبون معي كان بعضهم يناديني «بن تَانِيشَا»، ورغم أنني كنت أحب أمي جداً فإنني كنت أغضب من مناداتي بهذا الاسم فقد كنت أعتبره تحقيرًا لي، فكنت أنهال عليه بالضرب، ثم أخاصمه ولا أعود ألعب معه حتى يعتذر ويسترضيني. وأما لماذا كنت أعتبر مناداتي باسم أمي تحقيرًا لي فقد كنت أرى أن جميع أقراني لهم آباء وينادونهم باسم آبائهم إلا أنا. فقد

كانوا يدعونني باسم أمي.

كنت أتخيل أبي دائمًا وأعقد المقارنات في ذهني بيني وبينه. أبي يتيم الأم ماتت أمه وهو صغير، وأما أنا فقد فُقدَ أبي قبل أن أولد. كان أبي وحيد أبيه وأمه، وأنا وحيد أبي وأمي. أبي رباه «دَلمار» وأنا رباني «دَلمار». كنت أفكر في أبي كلما رأيت صبيًّا يسير مع أبيه في السوق أو أبًا يعلم ابنه الرمي بالسهام خارج أسوار سوياً. كنت أرسم لأبي صورة جميلة في ذهني. صنعت منه في خيالي بطلًا من أبطال الحروب مرة، وجعلته قائداً عظيمًا مرات، وتخيلته ملكًا من الملوك متوجًا والناس يسجدون له، مثل النجاشي عندنا في عَلَوَة. وفي مرة أخرى تخيلت أن أبي هو الكاهن الأكبر في الكنيسة يجلس أمام المصلين بملابسه البيضاء الزاهية المطرزة بالذهب، بينما يقوم الشماس بتلاوة الصلاة كل يوم أحد. صنعت لأبي صورًا كثيرة وشخصيات متعددة. وأحيانًا كنت أكلمه بكلام كثير حينما أكون وحدي. وكنت أسمعه

وهو يرد على أسئلتي وينصحني. قلت لأبي مرة: أين أنت يا أبي فأنا أشتاق إليك كثيرًا؟ هل تعلم أن أمي تبكي كل ليلة في فراشها؟ أنا أعلم لماذا تبكي. لأنك ذهبت سريعًا. ليتني رأيتك ولو مرة واحدة وأنا مستعد أن أتخلى عن نصف عمري مقابل ذلك.

احتفظت أمي بملابس أبي التي تركها وراءه، وحين كبرتُ أخرجتها من صندوق كان في غرفة أبي ولبست قميصًا منها. كانت غرفة أبي مغلقة طوال هذه السنين، ولم أرها مفتوحة يومًا ولا يدخلها أحد. ويوم لبست قميصًا من قمصان أبي وخرجت من غرفتي صرخت أمي وهرعت ناحيتي واحتوتني بيديها وذراعيها وجثت على ركبتيها تبكي. كان جدي «دَلمار» قد عاد لتوه من القصر. لأول مرة أرى جدي غاضبًا. رفع صوته وأشار بيده في حزم :

– اخلع هذه الثياب فورًا. وإياك أن تلبسها مرة أخرى. من الذي أعطاك هذه الثياب؟

مجنونة أنت يا «تَانِيشَا»؟ ما هذا الذي تفعلينه بابنك؟

– أنا لم أعطها له ولم ألبسه إياها يا عمي، فهو الذي أخذها من غرفة أبيه.

خلعت قميص أبي بسرعة وألقيت به على الأرض، فأسرع إليه جدي وأخذه دون أن ينظر إليه وأعاده بسرعة إلى صندوق أبي وأغلق الصندوق. ورغم أنه اجتهد أن يخفي أى مشاعر في وجهه تعبر عن تصرفه هذا، فإنني قرأت الحزن العميق في عينيه، واضطرام وجنتيه. لاحظت الاختلاف الواضح في مشاعر جدي عن مشاعر أمي حين لبستُ قميص أبي. كان جدي منزعجًا بينما قرأت في نظرات أمي أنها لم تكن تود أن أخلع قميص أبي أبدًا.

التباين في ردة فعل أمي وجدي جعل ذهني كقدر تفور بالسؤالات المنثالة. لماذا كانت ردة فعل أمي انفعالية وبهذه القوة بعد كل هذه السنين من موت أبي؟ ولماذا غضب جدي

«دَلمار» حين رآني في ثياب أبي؟ ولماذا الحزن العميق في عينيه ووجهه؟ شيء طبيعي أن ألبس ملابس أبي. ولكن لماذا هي محرمة عليَّ؟ ومن هو أبي أصلاً؟ وهل هو ميت فعلًا؟ وكيف مات؟ وأين قبره؟ ولماذا مات قبل جدي «دَلمار»؟ هل هناك شيء تخفيه أمي عني؟ أو لا يريدون أن أعرفه؟ كانوا لا يجيبونني حين كنت أسألهم: أين مقبرة أبي؟ أريد أن أزور قبره.

في صباح اليوم التالي ذهبت إلى الكنيسة، وكان «أبونا يُوأنس» واقفًا على عتبة الباب يهم بالخروج. ولكنه لما رآني داخلًا أقبل نحوي بلهفة حين رآني. وعاد معي داخل الكنيسة. ولكنني لما سألته هل كان يعرف أبي «أَبيلُّو» تغير وجهه فجأة وأصابته مسحة حزن واضحة. «أبونا يُوأنس» غير ماهر في إخفاء مشاعره. ظاهره مثل باطنه، ولهذا فقد كنت أحبه. سكت ولم يرد. ثم اعتذر بلطف وقال لي إن أمامه مشوارا مهمًّا ولا بد أن يدركه ولم يعدني بإكمال الحوار في مرة قادمة.

انقلبت على أعقابي وخرجت من الكنيسة ، وسرت هائمًا على وجهي في طرقات سوياً، وقادتني قدماي دون أن أشعر إلى شجرة الأراك قرب الكنيسة والتي كنت أجلس تحت ظلها مع «سُنْجَاتَا» حين كنا في السابعة، بعد أن أكون قد قطعت غصنًا صغيرًا، ونزعت أوراقه ثم بدأت أنظف به أسناني، وكانت «سُنْجَاتَا» تأخذه من فمي وتنظف أسنانها بطرفه الآخر. كان له طعم لاسع، ورائحة نفاذة ولكنها محببة. كانت أسناننا تصبح بيضاء بعد أن ننظفها بالأراك، وكنت أقول لها:

- انظري، أسناني كيف صارت؟

ثم أفرج شفتي ليبدو صف أسناني ناصع البياض. وكانت «سُنْجَاتَا» تضحك وتقلدني فتفرج شفتيها وتقربهما مني وتقول:

- انظر أسناني كيف صارت؟

وفي إحدى المرات قربت فمها كثيرًا من فمي، وحين كانت تتحدث شممت رائحة

أنفاسها فأثارت في نفسي شيئًا غريبًا أصابني بخدر لذيذ، ودون أن نشعر التصقت شفاهنا، وبادرت هي فقبلتني، فكانت هي أول قبلة من «سُنْجَاتَا»، ولم أكن يومها أعرف ما هي القبلة أصلًا، ولكنني أحببتها. كانت أمي تقبلني من خدي، وفي أحيان قليلة كانت تقبلني من فمي قبلة خاطفة، وكان لقبلتها وقع مختلف وشعور آخر. أما قبلة «سُنْجَاتَا» فقد أوقدت في نفسي رغبة أن أقبلها مرات ومرات. وفي كل مرة كنت أحس بشعور غريب. في ذلك اليوم الذي شهد أول قبلة بحثت عن الكلام فلم أجده. كنا قبله نتحدث كثيرًا وكانت «سُنْجَاتَا» قبل ذلك تنطلق في الحديث ببراءة، فقد كانت مترعة بالنقاء. وبعد أول قبلة اضطربت وترددت، ثم قبلتني بقوة، ثم صمتت صمت القبور. ولم تنظر في عيني بعدها. وانطلقت تجري نحو بيتها. وكانت قد ربطت شعرها ضفيرتين فكانتا تتقلبان بالتبادل بين كتفيها اليمنى واليسرى وهي تجري وتهز رأسها يمينًا وشمالًا، وترفع

عقبيها بتكلف فيضربان على ردفيها برفق وهي تجري. خفت ألا أراها بعد ذلك اليوم ولكن اللقاءات تكررت كل يوم بعد ذلك تحت شجرة الأراك. وتكرر تنظيف الأسنان حتى صارت أسناني تبرق في الظلام. وبالطبع تكررت مشاهد ما بعد السواك.

«سُنْجَاتَا» كانت هي المخلوق الوحيد الذي تعلقت به. كنا نأتي كل يوم ونجلس تحت شجرة الأراك ونحلم. ابتسامتها البريئة، ووجها الطفولي، وطعم فمها، وكلامها الذي يحملك إلى عالم مسحور. كانت لا تربط بين الأفكار، بل كل ما يخطر على بالها تقوله. وكان هذا يدهشني فكنت أطير معها في عالم الخيال الجميل الذي له أجنحة تحلق بك أينما تريد.

كنا نبني معًا عوالم مسحورة في أفق الفضاء، أو في دنيا لم يرها إنسان. وكنا نعيش يومنا مع الطيور والحوريات وعالم الجن. كنا نبني قصورًا من الوهم على شواطئ الأحلام ونقطف

الأزهار البرية من روضات الحدائق النائمة، عند السحر، والقمر قد سئم البقاء وحده في أفق الفضاء، فبدأ يتأهب للنوم. قالت لي «سُنْجَاتَا» يومًا:

– «سيس» لماذا لا يوجد قمران في أفق السماء؟

– القمر وحده لأنه يلعب مع الشمس لعبة المطاردة، فهو يهرب منها بالنهار. وحين يتأكد أنها قد ذهبت تبحث عنه وراء الأفق يأتي إلينا وحده متخفيًا بالليل. ألا ترين أنه يبتسم ابتسامة ساخرة؟

– «سيس» أين ذهب أبوك؟

– أبي هو القمر الذي يهرب من أمي. أمي تجلس وحيدة في غرفتها كل ليلة مثل الشمس في كبد السماء.

– بجد يا «سيس» أين ذهب أبوك؟

– أبي هو «ملك ملوك الجن»، وهو في مهمة،

وسوف يأتي قريبًا من العالم السحري.

– «سيس» هل تحبني حقًّا؟ عندما أكبر أريد أن أتزوجك. ونطير معاً فوق البحار. ونلعب لعبة الشمس والقمر. أريد أن تكون لي أجنحة أحلق بها في الفضاء. هل تصدق هذا؟

– ....

– سيس هل عندك شعر هنا؟

وأشارت إلى موضع عانتي من الخارج.

– أنت مجنونة !!

– أحلى شيء الجنون. «سيس» هل جربت يومًا أن تخلع كل ملابسك وتغلق الأبواب وترقص عاريًا وتصيح بأعلى صوتك حتى يبح حلقك ثم تقفز عاليًا وتسقط على الفراش؟ تعال نجرب هذا يومًا معًا، ولكنني لن أخلع ملابسي.

كانت «سُنْجَاتَا» مثالًا حيًّا لكل التناقضات المجنونة الموجودة في البشر. كانت أكثر الناس رقة، وأشدهم جنونًا. كانت منطلقة كمهر

جامح في البرية لا يقدر عليه أحد. وكنت أحب هذا فيها. ولعل هذا الأمر قد دفعني حين كبرت قليلًا إلى ترويض المهارى الوحشية والحمير البرية والبغال الجامحة.

ولكن «سُنْجَاتَا» اختفت فجأة من حياتي ولم أعد أراها. قصدتُ بيتهم كثيرًا، ولكنه كان خاليًا وبابه مغلقًا. لم أعرف يومها ما الذي حدث لها أو لأمها. أعرف أنها يتيمة الأب، وأن أمها، كانت تُشاهَدُ في بيت قائد الحرس كثيرًا وكانت تعود إلى البيت سكرانة كل ليلة. أخبرني «عِبْدِي» بذلك وقال إن «سمْبَا» هو الذي أخبرَه. حزنت لهذا، ومع الأَيام ضمرت ذكراها في فؤادي، أو لعل تلك الذكرى اختبأت خزيًا حين كنت أذكر أمها. كنت أذهب كل يوم وأجلس وحدي تحت ظل شجرة الأراك.

حاولت استجماع الذكريات فلم أقدر على الإمساك بها. كانت تتسلل هاربة من ذاكرتي كلما كبرتُ.

حين رأيت «سُنْجَاتَا» بعد كل هذه السنين وهي جارية في قصر الملك حاولت أن أتحقق من مشاعري فأحسست بغضب عارم يتأجج في كبدي. لم أعرف له سببًا. ذكريات المشاعر القديمة عادت واستحالت شيئًا مشوهًا. «سُنْجَاتَا» لم تعد بتلك البراءة ولا الجموح. كانت مستكينة خاضعة. وخمد ذلك البريق في عينيها وكأنما أسدلت فوقهما غلالة من بؤس العبودية. تمنيت ساعتها أن أصبح تاجرًا للعبيد، لأشتريها وأبيعها بعيدًا للعرب عبر بحر الجار فلا أراها بعدها أبدًا. ثم تمنيت أن أصبح نسرًا كاسرًا يختطفها بمخالبه ويحلق بها فوق أجواء عَلَوَة ويلقي بها من حالق فيندق عنقها ويطويها النسيان. ولكن كل هذا لا يشفي غليلي. ولذا فقد بقيت وحيدًا متوحشًا طيلة هذه السنوات، لا أسمح لأحد أن يقترب مني!!

سِيمُونَةَ

«همهمات جن سليمان»

– «سِيسِّي» أريدك أن تصحبني غدًا إلى «جزيرة التمساح».

– لماذا تريدين أن نذهب إلى هذا المكان المخيف يا أمي؟

– سنزور «سِيمُونَةَ»!

حين سمعت هذا الاسم سرت في جسدي قشعريرة باردة من الخوف.

– «سِيمُونَةَ» الساحرة؟ ماذا حدث لك يا أمي؟

– أنا لا أريد الذهاب إليها ولكنها رمقتني بنظرات شيطانية وأنا في القصر عند الملكة، وتمتمت بكلام غير مفهوم ثم اقتربت مني ولمست ساعدي بيدها المعروقة ذات الأظافر

الطويلة المطلية باللون الأسود، وقالت بصوتها الأجش الذي يشبه صوت الرجال:

– يا ابنة أرياط، لا بد أن تزوريني في الجزيرة قبل اكتمال القمر!!

ومنذ ذلك اليوم وأنا لم أعرف للنوم طعمًا. لم أجسر يومها أن أسألها عن الغرض من الزيارة، ولماذا اختارتني أنا من بين بقية الحاضرات وفيهن زوجات الوزراء وزوجة قائد الجيش وزوجة الكاهن، وزوجات التجار، كما أنها لم تكن صديقتي في يوم من الأيام ولم تكن تكلمني قط قبل ذلك. ثم ما شأن الشمس والقمر بزيارتي لها؟ مازالت آثار لمستها الباردة تبث الرعب في قلبي. واليوم كاد القمر أن يكتمل وأنا لم أذهب إليها بعد. عادة لا يزورها في بيتها إلا رجل يريد أن تقرأ له ما يخبئه المستقبل، أو امرأة تريد أن تعمل السحر لزوجها حتى لا يعرف امرأة غيرها، أو امرأة تريد الانتقام من عدو. وأنا ليس عندي زوج ولا أعداء ولا أهتم

بمعرفة المستقبل. يا ترى ماذا تريد مني هذه الساحرة المشئومة «سِيمُونَةَ»؟!

كانت أمي تتمتم في حيرة واضحة، وهي تروح وتجيء في غرفتي قبل أن تغادر إلى غرفتها. «سِيمُونَةَ» هي فوق ما يمكن لخيال أي إنسان أن يبلغه من جملة الشرور التي قد تجتمع في امرأة. لا يكاد أحد من أهل عَلَوَة يذكر متى ولدت. الناس ولدوا فوجدوها هكذا. تمضي أجيال وتأتي أخرى والناس يولدون ويهرمون ويموتون وهي على حالها هذا، لا تتغير. لا يعرف أحد من أين قدمت إلى عَلَوَة ولا متى جاءت، حتى صدق الناس الشائعة التي يتناقلونها عنها، بأنها لا تموت!

يقول البعض إنها يهودية، عبرت إلى البر الغربي من ضواحي يثرب، أو من بقايا الخابيرو الذين هاجروا إلى هذه البلاد قديمًا، وآخرون يظنون أنها فارسية. لا تلبس إلا الثياب السوداء، ولا تخرج بالنهار أبدًا. عيناها حمراوان

مثل شطة القَنَابِيت الحبشية، ورائحتها مثل رائحة الظِّرْبَان. وهي المرأة المخوفة التي يخشى بأسها كل من في «جزيرة التمساح» بل كل أهل عَلَوَة. يتقرب إليها التجار وكبار القوم بالهدايا، ويزورونها، بل إن سلطانها وتأثيرها امتد إلى داخل قصر النجاشي فلها مكانة خاصة عند الملكة، تستشيرها وتقرأ لها الطالع وتفسر لها الأحلام وتنفث السحر. وقد كثرت الأساطير والحكايات حولها، فزعموا أنها تطير ليلًا وتذهب إلى وادي الجن وأنها صديقة لملكة الجن. بل يزعم البعض بأنها ليست إنسانة أصلًا وأنها من بقايا جن سليمان الذين انفك ختم جرارهم بمدينة سواكن فخرجوا من البحر وانطلقوا هاربين في دولة عَلَوَة. الجميع يعلم أنها ساحرة ذات بطش شديد، يخشى الناس بأسها ويتقون شرها. وكانوا محقين في ذلك. فقد كانت تملك السحر الأسود وتتحكم في العفاريت والجن أو يتحكمون فيها، لا فرق. فكان على أمي أن تذهب. كنا خائفين من

الذهاب إلى الجزيرة ولكن خشيتي على أمي من عواقب عدم الذهاب كانت أكبر. ولم نخبر جدي بالأمر.

في الصباح حين أزمعنا التوجه إلى جزيرة التمساح، قام أحد الخدم بإحضار العربة ذات العجلتين والسقف الخشبي، وألقى برذعتين محشوتين بالقش داخلهما، ثم جاء بفرسين يجرانها. انتظرت طويلًا قبل أن تخرج أمي. ساعدتها على الركوب، ثم ركبت وجلست إلى جوارها. لم تتفوه بكلمة واحدة طوال الطريق نحو البوابة الجنوبية، وحين خرجنا من أسوار المدينة وتجاوزنا نظرات الحراس المتسائلة عن سر توجهنا جنوبًا، وعبرنا الجسر القائم فوق الخندق المائي المحيط بالمدينة داعب وجوهنا النسيم الجميل المشبع برائحة الأمطار القليلة التي نزلت أمس نهارًا، فملأت رئتي منه، وساعد ذلك على تخفيف توتري قليلًا، فانتبهت إلى جمال المروج الخضراء حولنا، والأزهار البرية، والشجيرات الخضراء المتناثرة هنا

وهناك، وطيور القمري. كانت اليرابيع تتقافز هاربة من أمام العربة ذات اليمين وذات الشمال، وقد أفزعتها حوافر الخيل وصرير عجلات المركبة فارتفعت أذنابها عالية في الهواء وهي هاربة لا تلوي على شيء. بقيت أمي صامتة بينما كنت أحثُّ الخيل على المضي قدمًا حتى وصلنا ضفة النيل حيث «المعدية» التي تعبر بنا إلى الجزيرة مقابل ربع درهم. لم يكن هناك أحد غيرنا يريد العبور. تقاضى المراكبي أجره مقدمًا، وكان قد ربط مركبه بحبل وأخذ يسحبه مسافة طويلة ناحية الجنوب قبل أن يبدأ العبور، لأن التيار قوي يجرف المركب شمالًا فيستحيل معه العبور إلى ضفة الجزيرة من الشرق إلى الغرب في خط مستقيم. وكان المراكبي وهو يسحب المركب بساعديه المفتولين وجسمه العاري كأنه يستعرض قوته وجمال جسمه قبل أن يقفز إلى المركب قفزة عالية متكلفة، ممسكًا بالمدراة التي يدفع بها المركب داخل النيل. ولما بدأنا العبور كنت

منشغلًا بالنظر إلى الضفة التي تركناها خلفنا وهي تبتعد قليلًا قليلًا، ولكنني حين أدرت وجهي للمركب رأيته جالسًا قبالة أمي تمامًا، وكان ينظر إليها بعيون وقحة وهو يجدف، وقد أغاظني ذلك كثيرًا ولكنني كظمت غيظي، وبقيت متحفزًا. كان النيل متسعًا جدًّا حتى إنك لا تكاد ترى معالم جزيرة التمساح رغم أنها في منتصف الطريق إلى الضفة الأخرى من النيل، وكان التيار قويًّا. جلست قريبًا من حافة المركب وكنت أنظر إلى عدد غير قليل من التماسيح التي سبحت بالقرب من المركب وقد أخفت أجسادها في الماء ولم يظهر منها غير أعينها وجزء صغير من أنوفها، وتيارات دائرية صغيرة رسمت قبالة أذيالها. وقد سبحت غير بعيد منها جماعات من أفراس النهر غير مبالية بالتماسيح وبين الفينة والأخرى تنفخ الماء بأنفاسها فيتطاير كالنوافير إلى أعلى ويحمل الهواء إلى وجوهنا بعضًا من رشاش الماء. لم يمنعني وجود التماسيح ولا أفراس النهر من

حولنا أن أمد يدي لأخذ بضع غرفات من الماء البارد وأمتع نفسي برشفها. الماء كان صافيًا فنحن في فترة الشتاء، ولكن ماء النيل وقت الفيضان والدميرة ثقيل يختلط بالطين والطمي، فكأنك تأكله وتشربه في وقت واحد. وعلى العموم فطعم الطمي المختلط بالماء ليس سيئًا أبدًا، وإذا بدأت الشرب فإنك لا تريد أن تتوقف. استغرق العبور إلى الجزيرة وقتًا غير قليل، وحين وصلنا إلى أطراف الجزيرة أراد المراكبي أن يمد يده ليساعد أمي على النزول من المركب فسبقته وأخذت بيدها وتجاهلت يده الممدودة وقلت أخاطب أمي:

– هذه المراكب قذرة.

– أليست مراكب جزيرة التمساح؟

ثم قالت ونحن نسير مبتعدين عن المركب:

– ذكرني أن نختار مركبًا أخرى غير هذه للعودة.

حين نزلنا على الشاطئ رأيت عددًا من

النسوة يغسلن الملابس بأقدامهن على ضفة النيل. البعض منهن عاريات لا يلبسن إلا خيطًا رقيقًا من الجلد حول الحقوين ينتهي بقطعة صغيرة تستر مكامنهن. بعضهن أجفل حين رأينني وأمي فوضعن قطعًا على أجسادهن بينما لم يحفل البعض الآخر. كانت أجسادهن ملطخة بالطين وشعر رءوسهن كالقطن المنفوش. وقد لبس البعض منهن قلادات من الودع والعظام وأسنان الحيوانات جعلنها زينة لأعناقهن.

تجاوزنا النواعير والسواقي التي ترفع الماء من النيل لسقيا المزارع وتدار بالأيدي أو الأبقار والحمير، وسرنا مشيًا على الأقدام في ممر ضيق وسط الأعشاب الطويلة المخيفة قاصدين «بَرَهُوْت» حي السحرة والكهان. يقع حى بَرَهُوْت على مسافة ثلاثة أميال إلى الجنوب من سوبأ داخل الغابة الكثيفة الواقعة في جزيرة التمساح. وهو حي قذر سيئ السمعة، يقطنه السحرة والساحرات. قبل أن تصل إليه عليك أن تجتاز مرج الأعشاب البرية وأحواض الزرع

المتناثرة عن يمين ويسار القادم من النيل إلى داخل الجزيرة. جيوش البعوض والناموس تهجم عليك هنا بغير استئذان، وعليك أن تكون مستعدًّا فتغطي جسمك كله، وإلا أكلتك أكلًا، وطنينها يبقى في الأذن زمنًا طويلًا بعد مغادرة المكان. وعليك أن تحذر أن تدوس على العقارب والأفاعي التي تختبئ بين الأعشاب. سم العقارب والأفاعي هنا قاتل، ولكن السحرة في هذه الجزيرة لديهم ترياق للسموم إذا تمكنوا من الوصول للملسوع أو اللديغ قبل فوات الأوان. القرود تتقافز فوق رءوس الأشجار وتصيح في عداء وكأنها ترفض قدومنا للجزيرة وتفضح أمرنا لكل من حولنا. أكواخ «بَرَهُوْت» مبنية من الطين والقش والقنا والخوص وبعض الأعواد والخشب، وقد علقت على السقوف أو فوق مداخل الأبواب جلود الماعز وقطع القماش الأحمر، والعظام، وحتى جماجم الموتى، ورءوس التماسيح الطويلة البشعة. يعتقدون أن وضع هذه الأشياء فوق رءوس

البيوت يطرد الأرواح الشريرة ويجلب الحظ. شوارع الجزيرة مزبلة يلقون فيها بكل شيء، وقد امتلأت بالقمامة وبقايا الطعام والعظام المتناثرة هنا وهناك. لا تستطيع السير عليها إلا إذا دست على جيفة حيوان ميت أو طيور نافقة. هواء الجزيرة يكتم الأنفاس ويزكم الأنوف وقد اختلطت رائحة العشب المختمر برائحة الطمي ومياه الأمطار وبقايا السمك المتعفن على الشاطئ. نقيق الضفادع وصرير الخنافس لا ينقطع، ونباح الكلاب لا يتوقف أبدًا، ليلًا أو نهارًا. ومعظم كلاب الجزيرة سوداء اللون ضخام، قباح، وجلودها معفرة بالطين والتراب ويسيل لعابها ويقطر كأنها مصابة بسعار لا يهدأ، وتراها تتهارش في كل مكان وتكشر عن أنياب صفراء. أحسست بالكآبة تنسل إلى أعماق روحي وكأن آلاف الأشباح وأرواح الموتى تحوم في سماء هذا المكان الملعون وتتحين الفرصة لتتخطفني وتلقي بي في بئر عميقة مظلمة، أو في سجن من سجون

العفاريت. حين وصلنا كوخ «سِيمُونَةَ» استقبلتنا كلابها السوداء الضخمة بنباح يشبه سعال المصاب بالسل. ونبهت الكلاب إحدى بنات «سِيمُونَةَ» التي كانت تطبخ شيئًا في قدر أمام الكوخ، فتركته على الفور وانطلقت تعدو حافية للداخل. ولم نلبث طويلًا فقد خرجت بنات «سِيمُونَةَ» ينظرن إلينا، وقد التصقن ببعضهن ووقفن ينظرن تارة إلى ثياب أمي الفاخرة ولونها الخلاسي وجسمها الناعم ووجهها الأخاذ، وتارة أخرى ينظرن ناحيتي من أطراف عيونهن نظرات لم أتمكن من فك طلاسمها من الوهلة الأولى فقد كانت نوعًا غريبًا غير مألوف من الكلام الصامت انقبضت له نفسي، وتوترت أعصابي. حين ظهرن لنا أول مرة رأيت أن أعمار هؤلاء البنات لا تتناسب مع عمر «سِيمُونَةَ»، وأيقنت أن في الأمر سرًّا ولا بد أنها ليست أمهن وليس في البيت امرأة غيرها ولا رجل. وربما تكون جدتهن ولا يبعد أن تكون جدة جدتهن. كما أن

أعمارهن متقاربة جدًّا فهن كلهن في مثل عمري، ولكن العجيب أنهن يشبه بعضهن بعضًا في الملامح والمشية والكلام رغم اختلاف ألوانهن..وكن كأنهن توائم ولكنهن بالقطع لسن بنات «سِيمُونَةَ». البنات كن ينظرن إلينا في صمت، قطعه صوت عكازة «سِيمُونَةَ» وهي تخبط على باب الكوخ خارجة لتستقبلنا.

كانت تمشي منحنية واضعة يدها اليسرى على أسفل ظهرها، وقد توكأت على عصاها وربطت شعرها الأبيض المجعد بمنديل أخضر لفته لفة واحدة حول شعرها، وتدلى من عنقها عقد من الكتان الأحمر، حباته منظومة من أنياب القرد، وقد ثقبت أنفها الأيمن وَزَيَّنَتْهُ بزمام فضي يشبه الخاتم ولبست قرطين كبيرين يتدليان من أذنيها يكادان يلمسان قاعدة رقبتها. وتركت ثدييها المتغضنين مكشوفين يتدليان كأنهما ثمرتان من الباذنجان الأسود المتخثر الذي جففته الشمس. كان جلد رقبتها تحت الذقن وأسفل ذراعيها متهدلًا يترجرج عند

كل خطوة تخطوها. مشت نحونا وهي تتصنع ابتسامة لا بد أنها أجهدت روحها لتجعلنا نحس أنها تبتسم لنا. البنات لاحظن الاضطراب في تعابير وجهها المجبر على الابتسامة فانصرفن في صمت إلى داخل الكوخ. رحبت بنا في رقة ولطف مصطنعين زادا من توجسي وخوفي. ونظرت إلى أمي فقرأت القلق والخوف في عينيها. حين دخلنا الكوخ كدت أختنق من الدخان المنبعث في داخله، وبدأت أسعل. كان الكوخ مظلمًا إلا من بصيص ضوء منبعث من مجمر كبير به بعض جمر خافت، وفوقه بقايا أعواد بخور محترقة كريهة الرائحة. وجلسنا على بساط أحمر متسخ مقطع، مفروش على الأرض. خلعت أمي حذاءها ووضعته على البساط وجلست عليه، ففعلت مثلما فعلت أمي.

قدمت لنا «سِيمُونَةَ» قدحًا فيه شراب فاعتذرت أمي بلطف. ناولتني «سِيمُونَةَ» القدح فأخذت منه جرعة، ولم أنتبه لغمزة أمي لي بعينها وتعابير وجهها المستنكرة، إلا بعد أن

ازدردتُ تلك الجرعة. أحسست بها تلهب حلقي وبلعومي وبحرارتها تحرث صدري، مثل مخالب قط منزلق على جدار صخري أملس وهو يحاول أن يتشبث بأي شيء دون جدوى. أرجعت لها القدح في فزع! ابتسمت أمي ابتسامة مكتومة ونظرت ناحيتي في لوم، جعلني أخرج لساني متمطقًا في امتعاض. كان طعمها في لساني كأنه صديد خنفساء قرشتها للتو! أدركت بعده أن الشراب كان مصنوعًا من عَرَقِ الذرة البيضاء المُسْكِر حين فاحت من فمي تلك الرائحة البغيضة.

قامت «سِيمُونَةَ» إلى المجمر ونفخت فيه فتطاير الرماد بعيدًا عن وجهها وتوهج الجمر فأمكنني أن أرى عينيها بوضوح قبل أن يملأ الدخان الكوخ. كانتا كأعين الحيات، لا تتحركان. أعادت المجمر إلى مكانه وسط الكوخ ثم جاءت وجلست قبالة أمي. نَظَرَتْ إلى بناتها نظرة ذات مغزى فخرجن جميعًا في الحال. ثم نظرت ناحيتي منتظرة أن أخرج فلم

أفعل. وتردَّدَتْ برهة ثم قالت:

– يا ابن «أَبيلُّو» هل تريد أن تجلس مع أخواتك خارجًا، وتتركني مع أمك قليلًا؟

أمسكت يد أمي بسرعة فقد كنت خائفًا عليها من هذه الشيطانة، وقلت في صرامة ودون تفكير:

– سوف أبقى مع أمي!

لمحت نظرة عدم الرضا على وجه «سِيمُونَتَ»، حين امتلأت عروق وجهها بالدم، ولكنها تمتمت قائلة:

– لا بأس لا بأس!! يمكنك أن تبقى.

وركزت عصاها على الأرض وقبضت عليها بيديها الاثنتين، وكأن العصا ستهرب منها ثم قالت بصوت منخفض وهي تتصنع الهدوء:

– يا بنت أرياط، أريدك أن تصدقيني القول ولا تخبئي عني شيئًا.

– ما الأمر يا خالتي؟

- لو كنت أعرف ما الأمر ما دعوتك إلى هنا!!

- لقد زدت قلقي يا خالتي، فقولي لي ما الموضوع؟

- الأسياد غاضبون جدًّا من عودة ظهور النجم في بلادنا.

- أي نجم يا خالتي؟

- نجم شيلون!

قالتها في صوت مرعب مثل فحيح الأفعى. وسكتت برهة ، تعالت فيها أنفاسها ثم نظرت ناحيتي، ثم ناحية أمي بعينين مثل عيني القط المذعور وقالت:

- «سيد الظلمات» أخبرني منذ خمس وأربعين سنة بقرب ظهور النجم، وحين ظهر كان البحر بيننا وبينه، وبقيت البحار ناحيتنا ساكنة، لكنها في هذه الأيام مائجة هائجة ومضطربة.

- ولكن يا خالتي ما علاقتي أنا بهذا كله؟

ومن هو شيلون أصلًا؟

– الكامل الذي له الكل. نجمه الذي ظهر سيبطل نجومنا يا بنة أرياط. سوف يستحوذ على كل ما بنيناه ثم يهدمه ويمحوه. «سيد الظلمات» أراني النجم يوم ظهوره يا بنة أرياط، ثم أرانيه ليلة لقيتك بقصر النجاشي. وقد انبثقت منه أنجم كثيرة عبرت إلينا من الشرق قبل اكتمال القمر، رأيتها رأيتها.يا ويلي يا ويلي! يا ويلكم جميعًا منها.

نظرت إلى وجه «سِيمُونَةَ» وقد أصبح حالك السواد، وزادت عيناها اتساعًا، واضطربت وجنتاها، وكأن عفريتًا تربع فوق هامتها الشعثة يتغوط ويتبول. وقد تدلت من عنقها محفظة من الجلد الأحمر مربوطة بسير جلدي رقيق معلق فوق رقبتها فكانت المحفظة تتأرجح للأمام والخلف كلما حركت «سِيمُونَةَ» رقبتها.

– أين رأيتها عبرت يا خالتي؟

– في بيتكم يا بنة أرياط، أنت فتحت لها

الباب، وأدخلتها!! أنت ستهدمين مجدنا! الأسياد غاضبون، رأيت منذ يومين أن أبواب «باضع» و«سواجن» قد فتحت، وأبطلت الطلسمات التي كانت تسد أفواه الجرار في قعر البحر، فأطلقت الطوالق المقيدة من وقت سليمان، فهربت وهرب معها مردة الجن في كل صوب وتفرقت عن وادينا، وكلما أوقدت نار رضا الأسياد لأحرق لهم البخور وأقدم لهم القرابين ليعودوا خرج الماء منبعثًا من جهة بيتك فأطفأ نيراني. ما الذي يجري في بيتك يا بنة أرياط؟ اصدقيني القول.

– أقسم لك بالثالوث الأقدس يا خالتي أنه لا شيء يجري في بيتنا. والمسيح والعذراء لا أعلم شيئًا..

كانت «سِيمُونَةَ» غاضبة وقد تمعر وجهها وزاغت عيناها. تخلت عن العصا بعصبية وألقت بها على الأرض، وصارت تقلب يديها في الهواء تارة وتشير إلى أمي ثم لا تتكلم،

وفجأة ضمت أصابع يدها المعروقة وأشارت بسبابتها الطويلة النحيلة إلى أمي وقالت:

- احذري من غضب الأسياد يا بنة أرياط ، أنا حذرتك. ارجعي إلى بيتك وانظري ما الذي يجري فيه، لا تكوني شؤمًا على أهل سوبأ ، احذري الأغراب، فهم يأتون بالخراب، وأريد منك أن تعديني إن حدث شيء في بيتكم أن تخبريني. وفي المرة القادمة تعالي وحدك، ولا تحضري ابن «أَبِيلُّو» معك.

قالت هذا ورمقتني بطرف عينها بنظرة غاضبة وكأنها تعاقبني على بقائي داخل الكوخ لدعم أمي.

- حاضر يا خالتي!

قالت أمي هذا الكلام وهرعت نحو الباب، ولم تلتفت لتودع «سِيمُونَةَ» ونسيت أمي أني جئت معها فتوجهت مسرعة نحو الشاطئ وحدها فأسرعت خلفها ولحقت بها عند طرف الغابة وأمسكت بيدها. كانت أمي تسير في خطوات

آلية، ووجهها إلى الإمام ولم تعبأ بما حولها. وحين أصبحنا في الطريق لم أسمع نباح الكلاب ولا أصوات القرود. مضينا في صمت، لم ننتبه لمواضع أقدامنا. دسنا على كل شيء. ووجدنا المراكبي منتظرًا. كان هو نفسه الذي أتى بنا من الشرق. لم أُذَكِّر أمي أن تختار مركبًا آخر للعودة، فلم تكن هناك مراكب أخرى أصلًا فقد كان معظمها على الشاطئ المقابل. المراكبي كان يسحب المركب بالحبل ناحية الجنوب ولكن دون استعراض لجسمه هذه المرة، ثم صعد متثاقلًا إلى المركب وحرك المدراة وجلس يجدف غير مكترث لوجودنا. النيل كأنه خلا من أفراس النهر والتماسيح، أو أني لم ألحظها حولنا. الهواء ساكن في صمت مريب. حين عبرنا إلى الشاطئ الشرقي وجدنا جدي منتظرًا وقد أخبره الخدم بوجهتنا فجاء راجلًا. ألقت أمي نفسها بين ذراعيه وكأنها تجهش بلا صوت ويهتز جسدها بقوة. أدرك أن أمي غاضبة جدًا. ضمها إلى صدره في حنان

وربت على ظهرها فاطمأنت وسكنت. كان جدي يفهم شخصية أمي فلم ينبس بكلمة وبقي صامتًا. سرعان ما نزعت نفسها من بين ذراعيه متمالكة. نظرت إلى وجه أمي فرأيته يشبه وجوه التماثيل الحجرية الرومانية القديمة الجامدة المنصوبة في ساحة الرقص بالمدينة. كان وجهها يتجه إلى أعلى وهي تسير. سارت نحو العربة وكأنها أحد جنود «العَنَج» العمالقة وهو يستعرض قوته في ميدان الجيش ب-سوبا. العناد والتصميم اللذان عند أمي لم أشهدهما في بشر. كان واضحًا أن «سِيمُونَةَ» قد اج-ترأت على أمي وأهانته-ا. وأمي من سلالة أرياط التي لا تقبل المهانة.

في الطريق سألت أمي سؤالًا واحدًا فقد أردت أن أسري عنها قليلًا وأقطع هذا الصمت المهيب:

– ما شأن هؤلاء البنات يا أمي وماذا يفعلن عند «سِيمُونَةَ»؟

– بعض هؤلاء البنات من «الكرنينا». أرسلهن أهلهن من البر الغربي لنيل سوياً يتعلمن السحر الأسود يا «سِيسِّي».

– ولكن الكرنينا كلهم سحرة! معقول أنهم يرسلون بناتهم لـ«سِيمُونَةَ»؟

– لا يوجد علي ظهر الأرض اليوم من هو أسحر من «سِيمُونَةَ»! يهود بني قريظة وبني قينقاع في يثرب يرسلون بناتهم لتعلم السحر عند «سِيمُونَةَ».

– ولكنهن يشبه بعضهن بعضًا وكأنهن توائم يا أمي.

– تمضي هذه الساحرة الملعونة معظم وقتها في تزيينهن وتعليمهن السحر ثم لا يعدن إلي أهليهن. لم أعلم أن فتاة جاءت إلى سِيمُونَة ثم رجعت إلى أهلها أبدًا. كثير من البنات يأتين ثم يختفين ولا يعلم أحد أين يذهبن. لا بد أن في الأمر سرًّا. ولكنني سوف أعلمه. يبدو أن هذه الملعونة بعد أن تقوم بتزيين بناتها تشويهن فوق

مجمرها الخبيث وتأكلهن مع طبق الحساء وقدح الخمر!

كان جدي صامتًا طول الوقت ولكنه انتبه فجأة وتابع الحوار الذي دار بيني وبين أمي «تَانِيشَا»، ولما ذكرت أمر اختفاء بنات «سِيمُونَةَ» وأنها لا بد ستعلمه انفجر جدي ضاحكًا كما لم أره من قبل، وكان يضحك وهو يقبض على معدته بكلتا يديه، وكان يسعل وهو يضحك، وكانت لحيته تتحرك وهو يضحك. وضحكنا جميعنا، وضحكت أمي مجاملة. وكنت أعلم في قرارة نفسي أنها مرجل يغلي من الداخل.

القَادِمُونَ مِنَ الشَّرْقِ

«إن بأرض الحبشـة ملكًا لا يُظلـم أحـد عنـده»

كان صباحًا جميلًا، فقد أكملـت صلاتي وخرجت من بيتنا، وتوجهت نحو الباب الشرقي للمدينة حيث أنشأ جدي مسقوفة خارج الأسوار جوار السوق، يجلس فيها ليقرأ ويكتب ويتأمل الرائحين والقادمين من السوق. الشمس ساطعة ولا توجد أي سحب في أفق السماء. الطريق إلى الباب الشرقي حيث سوق القوافل مرصوف بلاطه بالآجر الأحمر الذي تتخلله الأعشاب الخضراء فتضفي عليه جمالًا وزينة. وعلى اليمين والشمال تراصت بيوت الأثرياء التي بنيت من أجود أنواع الآجر والحجر، وزينت بالجص وأمام أبوابها انتصبت مسقوفات استقبال الزوار والضيوف وقد زينت بعرائش النباتات المتسلقة الخضراء لتضفي

عليها رونقًا. وبين الفينة وأختها تلمح الجواري يكنسن الساحات أو ينظفن الأثاث والمتاع، أو يفتحن النوافذ الخشبية لتجديد الهواء. وعلى جانبي الطريق نبتت أشجار الليمون الخضراء التي تحركها نسائم الصباح فتحمل عطرها الزكي إلى أنفك، وتناثرت أشجار النخيل والسدر والدوم التي تتحرك أغصانها محدثة حفيفًا وأصواتًا يتخللها نواح القمري فتجاوبه زقزقة العصافير.

«مبروكة» البدوية بائعة اللبن و«الروب» التي تأتي بحمارها من البطانة هي من الباعة المتجولين الذين يسمح لهم بدخول المدينة والتجول في طرقاتها. أشارت لي بالتحية بعصاها القصيرة التي تسوق بها الحمار، ثم أطلقت بعض الأصوات الغريبة تستحث بها الحمار الذي يسير في غير مبالاة. مبروكة تركب الحمار بنفس طريقة الرجال، فهى تمد رجلًا في كلا جانبي السرج، وتلبس سروالًا مثل سراويل الرجال وتحرك ساقيها وتغمز الحمار

بكعبي قدميها تستحثه بهما كما يفعل الرجال.

عند المدخل الشرقي للمدينة كان الحراس بثيابهم الخضراء المزركشة قد فتحوا الأبواب واستعدوا ليوم جديد. وعند أسوار المدينة تستقبلك أصوات نداءات الباعة وثغاء الشياه ونباح الكلاب. ولما بلغت الطرف الشرقي للسوق خفتت الأصوات ورأيت جدي جالسًا في المسقوفة. وحين اتجهت نحوه بادرني قائلًا وهو يتفحصني:

– لقد كبرت يا ولدي.. فاليوم يوافق تأريخ مولدك الخامس عشر، فقد ولدت سنة فقدنا أباك في العام 600 لميلاد المسيح له المجد. وكان حزني عليه عظيمًا، فقد كان «أَبِيلُّو» هو وحيدي، ماتت أمه وهو صغير، وأمضيت عمري في الاعتناء به وتربيته، ثم زوجته ابنة أخي التي هي أمك، وأقمنا له أعظم عرس، وحين قدمت أنت كنت أحبك أكثر من حبي لولدي، وأجرينا لك الختان قبل المعمودية. وقد

أصبحت اليوم فتى، وتعلمت القراءة والكتابة والمنطق والرياضيات والفلسفيات القديمة لأفلوطين وغيره، وتعلمت اللغات اليونانية والرومية والقبطية والآرامية، وصرت ضليعًا في العربية تكاد تتفوق على جدك فيها! وتعلمت الفروسية وقذف الحربة وتوتير القوس والرمي بالنشاب.

وتنهد تنهيدة ثم واصل الحديث:

– كان رئيس الكهنة يريدك أن تدرس الإنجيل وتصير خادمًا بالكنيسة. ألا تراه يبالغ في الاحتفاء بك كلما جئت معي للكنيسة، وقد أوصى بك الرهبان، يدعونك لحضور القداس؟ ولكنني قلت له يا نيافة الكاهن يجب أن يكون قرار خدمة الكنيسة هو من اختيار حفيدي فأنا لن أختار له مصيره. وكنت قد لاحظت أن سيدنا الملك يلاحظك بعين فاحصة حينما قابلناه، وكأنه يريدك في أمر عظيم، فأنا أفهم نظرات الملك، وأعرف كيف يفكر. لقد أحبك

الملك، كان هذا واضحًا جدًّا. ولكن ليس خطأ أن تتعلم أسرار الكنيسة وتعرف ما يدور بداخلها فقد يفيدك هذا جدًّا حينما تكون قريبًا من الملك.

بينما كان جدي يحدثني سمعنا جلبة وأصواتًا ورأينا الأيدي تشير ناحية الشرق، فاتجهت أبصارنا حيث أشار الناس. كان واضحًا من النظرة الأولى أنها قافلة عربية، ولكنها على غير العادة وصلت دونما إعلان أو طبول، فقد اعتاد الناس أن يعرفوا وصول القوافل العربية حين يسمعون قرع الطبول، وكان الناس يهرعون إليها لأنها كانت تحمل أنواع البضائع المختلفة ويكثر الزحام حولها، ويستقبلونها بالغناء والرقص، فهناك من يجيء للبيع والشراء والمقايضة، وآخرون لينظروا البضاعة والقادمين، ومنهم من يأتي طمعًا في نوال أو هدية، فقد كان هؤلاء العرب لا يبخلون بشيء تحت أيديهم حتى وإن جاءوا به للتجارة. عرفت أنها قافلة عربية من النظرة الأولى، فقد صحبت

جدي كثيرًا إلى قوافل التجار العرب، حين كانوا يأتون في رحلة الشتاء قادمين من اليمن، وكنت أعرفهم من سحناتهم وتقاطيعهم الواضحة وأعينهم الجميلة ذات النظرات الثاقبة وأنوفهم الشامخة، وشعرهم الأسود الذي يرسلونه على أقفيتهم أو يعقدونه جدائل، ورائحة العطور الشرقيَّة التي تفوح من ثيابهم. وبنظرة خاطفة عرفت أن هذه ليست قافلة تجار، فلم تكن معهم بضائع، وكان معهم أربع من النساء يلبسن الجلابيب الواسعة ويتلفعن بالمروط، ولم يعتد العرب صحبة النساء في قوافل التجارة حتى النساء التاجرات العربيات كن يرسلن من يتَّجر لهن. ثم تبينت أيضًا أن هؤلاء القادمين ليسوا من سواد العرب وعامتهم، فلباسهم وزيهم وَسَمْتُهُم تدل على أنهم من علية القوم رغم أن تراب السفر قد وخط ثيابهم فأضفى عليها طبقة قاتمة !

لم يتوجهوا إلى الناحية التي اعتادت قوافل التجار أن تحط رحالها عندها وإنما انتحوا

جانبًا وأناخوا إبلهم البجاوية التي أضناها المسير، وكان رغاؤها المتقطع يدل على أنها أجهدت أيما إجهاد. وقد انتحى المفردون ناحية بجمالهم على مرمى من الآخرين الذين أناخوا إبلهم وإبل نسائهم الأربع.

نظرت إلى جدي فرأيت الاهتمام البالغ الذي تشوبه الحيرة مرتسمًا على وجهه وقد انعقد حاجباه، وهو يتفرس في القوم وينظر إلى وجوههم المتعبة، وأعينهم الحزينة وأجسادهم النحيلة المنهكة، وهم يتحركون ليعدوا للنساء ظلًّا. لم تكن معهم أمتعة ولا ثياب إلا القليل وتلك التي على أجسادهم. كانوا في معظمهم شبابًا في الثلاثين من العمر وكان بينهم من هو في العشرين، ويتقدمهم شيخ قد جاوز الأربعين، ولا تدل أشكالهم على أنهم من بيت واحد.

تقدم جدي نحو أكبرهم سنًّا والذي يبدو أنه رئيسهم فحيَّاه وكلَّمه بالعربية:

– عمتم صباحًا. أهلًا ومرحبًا بكم، مَنِ القوم

ومن أين قدمتم؟

فجأة انتبه الجميع، ودهشوا من طلاقة حديثه مع أنه ليس بعربي، ومد كبيرهم يده لجدي مصافحًا، وقال:

– أهلًا بك، أنا «عثمان بن مظعون»، من بني جمح، وهؤلاء إخواني وأخواتي ونحن من مكة.

– نعم القوم ونعمت البلاد، أنا «دَلمار بن أرياط» ترجمان الملك النجاشي «أَصْحَمَةَ بن الأبجر»! نزلتم أهلًا وحللتم سهلًا.

رأيت نظرة الرضا والتفاؤل تشع من عينى الشيخ العربي حين عرف أن جدي هو ترجمان الملك النجاشي، وترك بقية العرب ما كان في أيديهم وجاءوا يستمعون في فضول.

حدَّقت في وجه «عثمان» فقرأت في وجهه علامات الصلاح، وقرأت من طريقته في الكلام أنه رجل شديد الحياء، لا ينظر في عيني محدثه، فنظره دائمًا إلى الأرض. وقد وخط الشيب صدغيه، وبدت على وجهه ندوب وخدوش

وكأنها آثار شجار أو معركة. كان «عثمان» في هيئته كأنه راهب من رهبان الأديرة المنقطعين للعبادة، وكان وجهه أكثر نضارة وإشراقًا من وجوه الرهبان. وقد بقي ذلك الإشراق في وجهه رغم الندوب والخدوش. قال أحد العرب مخاطبًا «ابن مظعون»:

– عجبًا ! إنه يتحدث العربية مثلنا يا أبا السائب! أهو عربي؟

– كلَّا ليس عربيًّا، بل هو حبشي كما ترى، ولكنه ترجمان الملك فلا تعجب!

قال جدي:

– لقد صحبت قوافلكم وتجاركم أكثر من خمسين سنة منذ أن كنت صبيًّا يافعًا وكان «هاشم بن عبد مناف» يأتي إلينا للتجارة كلَّ شتاءٍ قادمًا من مكة ثم يسير إلى اليمن حتى يقصد حمير، ثم عرفت من بعده حفيده «أباطالب»، ورهطًا كثيرًا من أهل مكة، وأنا أعرف بأنسابكم وقبائلكم وألسنتكم فاعجبوا إن

شئتم!

قال ابن مظعون وقد أشار إلى رجل قد قارب الأربعين، يظلل امرأته من الشمس:

– هذا أبوعمرو، «عثمان بن عفان» بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب. وتلك هي زوجته «رُقَيَّة» بنت «محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم».. «هاشم» الذي كنت تصحبه وأنت صغير يا «دَلمار».

قال ابن مظعون هذا وهو يشير إلى رجل مربوع، ليس بالقصير ولا بالطويل، ضخم العظام، عريض المنكبين، طويل الذراعين، لونه أسمر يميل إلى البياض قليلًا، رقيق البشرة، حسن الوجه، طويل الأنف، جميل الثغر، وله لحية كثيفة، وشعر رأسه ينزل حتى أسفل من أذنيه وبه مبادئ صلع في هامته. ممتلئ بالوقار والهدوء.

قال جدي ممازحًا:

- ما حكاية «عثمان» هذه يا أبا السائب؟ أنت «عثمان» وهو «عثمان»؟ أرجو ألا تخبرني أن في الركب عثمان ثالثًا؟ وعلى كل فقد أحببت اسم «عثمان» فهو اسم جميل.

ابتسم ابن مظعون مجاملًا ثم أكمل:

- وهذا «أبو حذيفة» هشيم بن عتبة بن رِبيعة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي العَبْشَميّ. وتلك التي تقف خلفه هي زوجته «سهلة بنت سهيل».

قال هذا مشيرًا إلى رجل طويل لم يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره، حسن الوجه، وله سن زائدة في فمه، وامرأته حبلى بائن حبلها. وعجبت كيف يحفظ أنساب جميع من معه ويسميهم بآبائهم وأجدادهم وبطونهم وقبائلهم.

- وذاك أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم المخزومي، وهذه زوجته أم سلمة بنت أبي أمية.

- وهذا عامر بن ربيعة بن كعب بن مالك بن ربيعة بن عامر بن سعد بن عبد الله بن الحارث بن رفيدة بن عنز بن وائل بن قاسط. وتلك هي زوجته ليلى بنت أبي حثمة.

- وهذا مصعب بن عمير بن عبد شمس.

وأشار إلى فتى في الثلاثين من عمره، تدل هيئته على رجل متقلب في النعمة، وقد ألهبت جسده حرارة الشمس فبدا عليه الإعياء والنحول، ورغم ذلك فقد كانت وسامته لا تخطئها العين.

- وذاك الشاب هو عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفِ بنِ عَبْدِ عَوْفٍ الزُّهْرِيُّ.

- وذاك الذي يقف وحده هو حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي القرشي العامري.

- وذاك «ابن البيضاء» سهيل بن وهب بن ربيعة بن هلال بن مالك بن ضبة بن الحارث بن فهر بن مالك أبو عمرو القرشي الفهري.

– وذاك «ابن أم عبد!» النحيف رفيع الساقين قصير القامة الذي يشبهكم في اللون هو عبد الله بن مسعود! ولا تظنن أني بهذا أعيبه فأنا أمدحه إذ هو من الأخيار عندنا.

– وأخيرًا أصغر القوم سنًّا وليس قدرًا هو «ابن صفية»، هذا الشاب الذي هو ابن إحدى وعشرين، هو «الزُّبَيْر» بن العوام بن خويلد بن أسد.

قال هذا وأشار إلى شاب خفيف اللحية أسمر اللون، كثير الشعر، طويل القامة نحيف الجسم حاد الذكاء يشتعل حماسًا وفتاء. حين نظرت إلى «الزُّبَيْر» أحسست على الفور أنني وجدت صديقًا. فهو يشبهني في الجسم واللون، وسنه قريبة من سني. ذهبت لأقف قريبًا منه، فمد يده وصافحني ووضع يده على كتفي. فابتسمت وبادرني بالكلام:

– أنت ابن هذا الشيخ الوقور؟

– ألا ترى أنه أكبر سنًّا من أن يكون أبي؟ هذا

جدي «دَلمار»، وعمره تجاوز التسعين كما ترى.

– الجد والد! ورغم هذا فلا يبدو عليه الكبر فظهره مازال مستقيمًا!

وقاطعنا صوت جدي صائحًا:

– هلم يا «سِيسِّي» لنهيئ لضيوفنا منزلًا ونصنع لهم طعامًا، أريدك أن تسبقني إلى بيتكم وتخبر «تَانِيشَا» بأن لدينا ضيوفًا. خذ فرسي وأنا سأصحب الضيوف ماشيًا.

ولم أنتظر جدي ليكمل كلامه فوثبت على ظهر الفرس فانطلق يعدو بي عدوًا نحو باب المدينة.

فِي بَيْتِ تَانِيشَا

كانت أمي رغم حبها الشديد لي وتعلقها بي – وقد نشأت يتيمًا – قد اعتادت غيابي عن البيت طوال النهار، وجزءًا من الليل، ورغم أنني كنت وحيدها وأنيس وحدتها فإنها تعودت بقائي خارج البيت طول اليوم فلم تكن تراني إلا بعيد المغيب كل ليلة، حين أعود منهك القوى أجرجر أقدامي بعد أن أكون طفت شوارع سوبأ وأسواقها وحتى كنيستها، وبعد أن أكون قد وصلت أطرافها الجنوبية حتى المدافن «بأم قحف»، وتجاوزت قصر الملك وسرت شمالًا حتى مشارف حي «أم دوم» في الأطراف الشمالية لمدينة سوبأ. كانت أمي قد نذرت نفسها لتربيتي بعد فقد أبي، فلم تكلني للجواري، بل كانت تشرف على خدمتي بنفسها، وكانت غرفتي وغرفة مكتبي محظورتين على الجميع، عدا أمي. كانت الجواري يتعاقبن على خدمة

أمي، ولكنها كانت تمضي جل وقتها معي حينما أكون في البيت، ترجل شعري، وتعتني بملابسي وطعامي، وترتب مكتبي، وتقول رأيها في أصدقائي وصديقاتي، بكل لطف وتنصحني إن رأت أنني اخترت صديقًا غير مناسب.

أمي معروفة بين جميع النساء في سويأ بأنها من المقربات للملكة زوجة النجاشي، وهي بمثابة الراعية والمربية للملكة، وهي التي أشرفت على مراسم إعدادها وتهيئتها أيام العرس حين زواجها من الملك النجاشي. أذكر هذا جيدًا إذ لم تمض عليه سنة واحدة. والناس يحترمون أمي فهي وجدي من سلالة أرياط العظيم، وكانت قوية الشخصية، حادة الذكاء، تتمتع بجاذبية تفوق الوصف. تقدم لها بعد أبي كثير من الخطاب، من الوجهاء والقادة والتجار من الطامعين في جمالها ومالها وحسبها ومكانتها، ولكنها صدتهم جميعًا فقد كانت تحب أبي حبًّا عظيمًا وكان فقدانه فاجعة لها فامتنعت عن الزواج بعده. ولما أدرك جدي

عدم رغبتها في الزواج، توقف عن عرض الخُطَّاب عليها. كان بيتنا هو الأحب إليه من بين جميع منازله الأخرى. وكان إذا أراد أن يكرم أحد ضيوفه المقربين صنع له وليمة أو مأدبة في بيت «تَانِيشَا». وكانت مأدبة «تَانِيشَا» مثل مأدبة الملوك.

كان بيتنا يقع في وسط المدينة على الطريق الرئيسي المؤدي إلى البوابة الشرْقيَّة، ويتكون من عدد كبير من الغرف التي تحوطها الساحات من الجهتين. وقد حرص جدي على أن يحتفظ البيت بطابعه الذي تركه عليه أبي، فقد كان بيتًا تقليديًّا تجد فيه كل ما يوجد في بقية بيوت أهل سوبا. المباني المرتفعة ذات الجدران المبنية من اللَّبن الطيني المخلوط بالتبن، والمغلف بالآجر، والمسقوف بالحصير والقش المنسوج جيداً والقائم على أعواد طويلة معترضة يدعمها عِرْقٌ طويل يطلق عليه أهل عَلَوَة «المِرْق» ويستند إلى شعبة أو شعبتين مرتكزتين على الأرض، وأبوابه من الخشب

السميك ذي الأقفال الخشبية والمقابض النحاسية. وفي أعلى الجدار في كل غرفة مناور صغيرة ينفذ منها الهواء البارد ثم ينزل للأسفل. وهي تضيء المكان وتدخل بعض أشعة الشمس. وفي وسط الدار ساحة واسعة لاستقبال الضيوف، ذات أرضية رملية تفرش بالحصير، وترش بالماء لتبرد في قيظ الصيف اللافح. والساحة تتصل بـ «الدانقة»، التي هي ديوان ضخم يجتمع فيه الضيوف. وهناك غرف للضيوف من النساء وأخرى للضيوف من الرجال. وغرفة للخدم وأخرى للجواري. وبكل غرفة عدد من العناقريب (الأَسِرَّة) المصنوعة من الخشب والمنسوجة من «القِدّ» وهو شرائط رقيقة من الجلود يصنع منها لحُمَةُ العنقريب وسُداه. ونفرش العناقريب بمراتب محشوة من القطن أو الليف أو الصوف، ونغطيها بفرو البقر أو جلد الضأن والمعز المدبوغ بالقرظ، ونضع فوق ذلك كله بعض الأقمشة والملاءات والوسائد والأغطية.

وأما التُّكْلُ (مكان الطبخ) فمعزول عن الغرف الأخرى، لتجنب الدخان وروائح الأكل. وبه موضع مخصص لطحن الذرة والحبوب على حجري المحراكة اللذين أحدهما كبير مقعر توضع الذرة داخل تجويفته، وهو مثل حجر الرحى، ولكنه مستطيل وليس مستديرًا، ولا مثقوبًا من الوسط، والآخر «حجر المحراكة» وهو صغير محدب تسحبه الجارية جيئة وتدفعه ذهابًا في حركة رتيبة وهي تجثو على ركبتيها لطحن الذرة، وأحيانًا تستخدم «الهاون» الذي هو وعاء عميق طويل الجدران ومصنوع من الخشب وله «مدق» لطحن الحبوب التي توضع داخل «الهاون»، وتكون الجارية واقفة وترفع المدق إلى الأعلى بكلتا يديها ثم ترمي به بقوة داخل جوف الهاون ليدق الحبوب. فإذا طحنت الحبوب أو دقت، نضعها في «برمة» كبيرة خَمَّارَة، حيث تختمر وتصير صالحة للطبخ. ومن ثم نصنع منها «الكسرة» حيث نوقد النار تحت وعاء مسطح مصنوع من

الفخار الصلب المحروق وهو ذو سطح أملس من أعلى ويسميـه أهل سوبأ «الدوكة» وندهنه بالطاووق «مخ الغنم» حتى لا يلتصق به عجين الذرة. ونوقد النار في «كانون» مصنوع من الفخار نلقي في جوفه الفحم أو خشب السنط، ثم توضع عليه القدور للطبخ. ونحفظ اللحم على «المشلعيب» المصنوع من الحبال والمعلق على السقف بعيدًا عن متناول القطط والكلاب والثعالب ليلًا إضافة إلى كونه مجففًا طبيعيًّا لشرائح اللحم في الظل والهواء الطلق ليصبح لحمًا مقددًا.

وبالبيت أكثر من «مزيرة» مسقوفة توضع تحت ظلها الأزيار والبرام والقلال المصنوعة من الفخار المحروق ويحفظ فيها ماء الشرب حتى يبرد، وقد يلقون على الماء نبات الإذخر الأصفر ليضفي عليه رائحة ذكية، ونغرف الماء منه بالقرع المجوف المجفف. وأحيانًا نعلق القرب على ساق شجرة أو شعبة مثبتة على الأرض أو نعلقها متدلية من سقف البيت. هذا

هو بيت أبي.!!

وصلت البيت وناديت أمي صائحًا:

- مكيدة [18] يا مكيدة!

- ياولد لا تنادني بهذا الاسم! أنا أمك. ما الذي جاء بك في هذه الساعة؟

قالتها في لهجة لطيفة.. كان جدي إذا أراد أن يدلل أمي يناديها بهذا اللقب (مكيدة) إشارة إلى ملكة سبأ فقد توارث أهل عَلَوَة الأحاجي والأساطير التي تحدثت عن جمالها. وكنت إذا أردت أن أدخل البهجة على روحها الحزينة أناديها «مكيدة». فكانت تفرح في أعماقها للاسم ولكنها تخفي هذا بأن تأمرني وتنهاني أو تمطرني بوابل من الأسئلة !

- جاءك ضيوف عرب من مكة يا أمي وهم في الطريق إلى البيت. وبالمناسبة معهم أربع نساء وواحدة منهن حبلى.

فزعت أمي حين سمعت هذا الكلام، ولكنها

أخفت فزعها بقولها:

- أكيد أنت تمزح! العرب لا يصحبون نساءهم إلى عَلَوَة. لم أر في حياتي امرأة عربية.

- والمسيح والعذراء لا أمزح!

عرفت أمي أني لا أمزح. توجهت مسرعة إلى الباب لترى القادمين وتستقبلهم ولكنها لم تنس أن تعلق على قسمي بالمسيح:

- ألم ينهك جدك عن الحلف؟ «لا تحلفوا البتة لا بالسماء لأنها كرسي الله ولا بالأرض لأنها موطيء قدميه.. بل ليكن كلامكم: نعم نعم لا لا. وما زاد على ذلك فهو من الشرير»[19].

- متى أصبحت يا «مكيدة» متدينة هكذا؟ أنت لا تقرئين الإنجيل أصلًا.ثم ألم أسمعك من قبل تقسمين للساحرة «سِيمُونَةَ» بالمسيح والعذراء؟

لم ترد أمي هذه المرة، بل ذهبت تنتظر للقادمين. كان جدي يتقدمهم ومعه عثمان بن

مظعون، وقد سار خلفه «الزُّبَيْر» وابن مسعود ومصعب وعبد الرحمن وحاطب وسهيل.
وسـارت مجموعـة أخرى وراءهم وفيها عثمان بن عفان ورُقَيَّة ثم عامر وليلى ثم أبوسلمة وأم سلمة وأخيرًا أبوحذيفة وقد تأخر مع سهلة التي أثقلها حملها.

حين دخلوا البيت توجهوا جميعًا إلى «الدانقة»[20] الواسعة الفسيحة، وطلب ابن مظعون ماء نظيفًا فجيء له بماء في قربة فغسل كفيه ووجهه ويديه ومسح رأسه ثم غسل قدميه، وعلى الفور قام جميع الضيوف بفعل نفس الشيء!. أدركت أن هذا نوع من الطقوس ولكنني لم أعرف إلى أي دين ينتمي هؤلاء العرب، فقد كان اليهود يغسلون أقدامهم قبل العشاء، وليس الآن ونحن في منتصف النهار. وأنا أعرف أن المسيح غسل أرجل التلاميذ فقلت لجدي:

– يا جدي هؤلاء العرب كأنهم يمارسون

طقسًا من الطقوس.

قال جدي في صوت منخفض:

– أنا مثلك يا «سِيسِّي» أعجب مما صنعوا فهذا الذي صنعوه هو ما كان المسيح يعلمه تلاميذه قبل صعوده، فهل يا ترى أصبح هؤلاء العرب نصارى مثلنا؟ أنا لم أعتد هذا من عرب المشرق أبدًا، وحتى ابن أبي الصلت لم يقبل مذهبنا اليعقوبي. ولكن عجبًا عجبًا. هذا الذي صنعوه موجود هنا في الإنجيل.

قال هذا وأسرع إلى النسخة الخطية من الإنجيل المكتوبة باللغة الحبشية مترجمة عن الآرامية، والتي ظل يتوارثها من آبائه وأجداده ويحتفظ بها عند «تَانِيشَا»، فأزال عنها الغبار، وأخذ يقرأ من إنجيل يوحنا:

– «ثم صبَّ ماءً في مغسل وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ ويمسحها بالمنشفة التي كان متَّزرًا بها. فجاء إلى سمعان بطرس. فقال له ذاك: «يا سيد أنت تغسل رجلي!» أجاب المسيح: «لست تعلم

أنت الآن ما أنا أصنع ولكنك ستفهم فيما بعد». قال له بطرس: «لن تغسل رجلي أبدا!» أجابه المسيح: «إن كنت لا أغسلك فليس لك معي نصيب». قال له سمعان بطرس: «يا سيد ليس رجلي فقط، بل أيضا يدي ورأسي». قال له المسيح: «الذي قد اغتسل ليس له حاجة إلا إلى غسل رجليه بل هو طاهر كله»[21].

وضع جدي إصبعه ليفصل بين الصفحتين قبل أن يغلق الإنجيل ثم قال مخاطبًا ابن مظعون:

– أنتم فعلتم الآن يا أبا السائب ما فعله المسيح للتلاميذ وما طلبه سمعان بطرس «ياسيد ليس رجلي فقط بل أيضًا يدي ورأسي» فقد غسلتم أيديكم وأرجلكم ورءوسكم.

كان ابن مظعون يستمع إلى كلام جدي فقال معلقًا:

– عندكم يا «دَلمار» أن الذي اغتسل ليس له حاجة إلا إلى غسل رجليه بل هو طاهر كله

وعندنا من اغتسل فلا يحتاج حتى إلى غسل رجليه لأن الغسل عندنا يشمل أرجلنا أيضًا. فهو غسل ووضوء، وسوف أشرح لك ذلك ولكن بعدما نصلي.

عندها فهم «دَلمار» أنهم ليسوا نصارى. وحين أكمل ابن مظعون كلامه وقف متجهًا ناحية بيت المقدس حيث يتجه النصارى في صلاتهم ، ووقف جميع الرجال خلفه صفًّا، ووقفت النساء الأربع خلفهم صفًّا آخر ثم رفع ابن مظعون يديه حذو أذنيه وقال كلمة أصابت جسمي كله بقشعريرة عجيبة لم أعرف لها سببًا:

- «الله أكبر»

كانت طريقته في قولها هي التي أعجبتني. وصنع جميع العرب مثله وقلدوه، فوضعوا أيديهم على صدورهم حين وضع يديه على صدره، ثم انحنوا راكعين ثم وقفوا ثم خرُّوا جميعًا إلى الأرض ووضعوا أيديهم وجباههم

وأنوفهم على الأرض كما نفعل عادة حينما نسجد تحية للملك!

جاء كل من في البيت ينظر ما يصنعه هؤلاء العرب! وعقدت الدهشة جبين جدي، وتسمرت «تَانِيشَا» في مكانها! وأصابني الذهول مما أرى. فهمست في أذن أمي:

– هؤلاء العرب يصلون كما كان المسيح يفعل تمامًا حين كان يطلب أن تعبر عنه الساعة يا أمي!

– اسكت الآن.

كان جدي يراقب العرب وهم يصلون فبقي الإنجيل في يده وكأنه نسيه هناك. دهشت لمعرفة جدي بالإنجيل، أكثر مما يعرفه كثير من الكهان، فقد كان جدي يكثر من قراءة الإنجيل الخاص به ويترجمه لأمية بن أبي الصلت. وقد شهدت يومًا حوارًا عاصفًا في الكنيسة بين جدي وكبير القساوسة حول النسخة التي عند جدي والأخرى التي في الكنيسة. وأذكر يومها

أن جدي قال لكبير القساوسة:

– أنتم تقرءون في الكنيسة من نسخة وصلت إليكم من الإسكندرية، وفيها نصوص مترجمة بطريقة تخالف ما تعلمناه من الكهنة الذين توارثوا هذا العلم منذ عهد «فرمنتيوس السرياني» وتناسيتم الترجمة الحبشية الأصلية التي عمرها أكثر من مائتين وخمسين سنة والتي كتبها فرمنتيوس السرياني باللغة الآرامية لغة المسيح، واعتمدها عيزانا ملك أكسوم منذ العام 340 حين تحولت جميع بلادنا إلى المسيحية. وهي محفوظة عندي. هذه هي الترجمة التي يجب أن تسود في بلادنا وليست الترجمة القادمة إلينا من الإسكندرية يا نيافة الكاهن، خاصة أنك حين تقرأ وتقارن بين الترجمتين تجد فروقًا شاسعة في ترجمة مقاصد كلام المسيح.

قال الكاهن في عصبية ظاهرة حاول إخفاءها بهدوء مصطنع:

- ترجمتك هذه غير مكتملة يا عزيزي وبها كتب أبوكريفا كثيرة لا نعرفها، وقد رفضتها المجامع المسكونية، وعمومًا نحن نتبع للإسكندرية، ونقرأ من الكتب القانونية المعتمدة من عندهم ونصلي مثلما يصلون.

- رغم أننا لا نفهم معاني صلاتكم هذه يا نيافة الكاهن، ولكننا نثق بكم بالطبع، فأنتم آباؤنا. ولكن سوف يجيء يوم يطالب المؤمنون فيه بالرجوع إلى النسخة الحبشية، والصلاة بلغتنا بدلًا من القراءة بلغات لا يفهمها الشعب. لأن أهل عَلَوَة الآن لا يفهمون من النصرانية إلا ما يأتي عبركم فقط يا نيافة الكاهن، وقد كانوا قبل ذلك يفهمون النصرانية مثلما جاء بها المسيح. وقد كشف لي حوارك مع ابن أبي الصلت عن حقيقة مذهلة لو تأذن لي.

اعتدل الكاهن الذي لم يكن مهتمًّا في البداية، واتجه صوب جدي وقال:

- وما هي هذه الحقيقة «المذهلة» يا

«دَلمار»؟

قال هذا ونطق كلمة «المذهلة» بنفس طريقة «دَلمار».

– أن «اليعقوبية» ليست هي بالضرورة العقيدة الأرثوذوكسية التي تدين بها الكنيسة في الإسكندرية، فأنتم حين ثرتم على البابا المعين من قبل الرومان وقتلتموه في الإسكندرية كنتم في حقيقة الأمر ترفضون الملكانية، وتريدون بابا قبطيًّا آخر غير الذي فرضته عليكم الإمبراطورية الرومانية، هذا هو كل ما في الأمر، ولم تكونوا يومًا يعاقبة، ولا موحدين لأنكم بقيتم على نفس ما أقرته المجامع من جعل الثلاثة واحدًا والقول بالمشيئة الواحدة والطبيعة الواحدة فهل هذا هو الدين الذي جاء به المسيح يا نيافة الكاهن؟ إن نسختنا الآرامية الحبشية تقول غير ذلك تمامًا.

كان جدي جريئًا في حواره مع الكاهن، فقد سمعته يقول لي يومًا إن عقيدته مطابقة لعقيدة

سيدنا النجاشي في هذا الأمر خاصة حول طبيعة المسيح، ولهذا فهو يستمد الجرأة في الحوار مع الكاهن مما وجده من فهم لدى سيدنا النجاشي. تنحنح الكاهن كأنه بوغت بكلام جدي «دلمار» وأخذته سعلة خفيفة وتمتم يقول:

– هذا كلام خطير يا «دَلمار»، وأنا سعيد أنه تم بيني وبينك فقط، فأنت رجل عاقل وحكيم، ترمي من وراء هذا الكلام إلى المزيد من المعرفة ليس أكثر، ومؤكد أنك لا تؤمن به، وإلا لكانت له عواقب وخيمة، فهو هرطقة واضحة تقودك إلى الهلاك، لأنك بهذا تشكك في العقيدة النصرانية الحقة وكأنك تريد أن تقول لنا إن هذا الشاعر العربي الباحث عن المجد والشهرة يفهم في طبيعة المسيح له المجد أكثر مما تفهمه الكنيسة!!

حين أكمل الكاهن كلامه تشاغل بالكلام مع أحد الكهنة، ثم استأذن من جدي في

الانصراف، وحين توارى عن أنظارنا، سمعت باب مكتبه الخاص وهو يغلق بصوت عالٍ. ونظرت إلى جدي فرأيته يضحك خلسة وينظر من طرف خفي في خبث إلى باب مكتب الكاهن المغلق. وحين رأى أنني كنت أتابع الحوار قال لي في اقتضاب:

– هؤلاء الكهنة لا يقبلون الحقيقة أبدًا ولا يريدون أن يسمعوها!

– أي حقيقة يا جدي؟

– حقيقة أن المسيح لم يقل يومًا إنه هو الله، بل كان دائمًا يقول لليهود: «تريدون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله»[22] فكيف يكون المسيح هو الله وقد صرح لهم بأنه إنسان؟ وفي سفر العدد: «ليس الله إنسانًا فيكذب ولا ابن إنسان فيندم»[23]. وحقيقة أن ما أقرؤه في النسخة الحبشية يناقض ما يقرءونه في النسخة القادمة إلينا من الإسكندرية. يا إلهي! ما أعجب هذا التناقض!

أنا ما عدت أثق بدين هؤلاء الكهنة إطلاقًا.

الزُّبَيْـر

سرعان ما خرجنا أنا و«الزُّبَيْر» نتجول في طرقات سوياً ليتعرف على معالم المدينة. كنت فرحًا جدًّا فطالما تمنيت أن يكون لي صديق، وكل من عرفتهم لم تطل صحبتي لهم. صداقتي مع الملك النجاشي أمر غير وارد عندي، وغير معقول. لنكن واقعيين. لعبت مع «سُنْجَاتَا» حين كنا في الخامسة، وكنت أشد شعرها فتبكي وتهرب مستغيثة بأمها، فأغتنم الفرصة للحصول على ألعابها وعرائسها وأفحصها وأستكشفها ثم أتلفها. ولكني كبرت ولم أعد أحب اللعب مع البنات ولا فحص العرائس المخيطة من القماش والمحشوة من ليف شجر الدوم. ثم عرفت «دُوجُّو» و«سِمْبَا» وكثيرين غيرهما حين بلغت السابعة، وكنا نقضي أوقاتًا جميلة على شاطئ النيل في الصباح، نسبح ونستبق عراة ونستلقي على الرمل الذي يتركه

النيل حين ينحسر في موسم الصيف، أو نجري بأقدامنا الحافية على
«البرجوب»[24]المصنوع من الطمي والغرين اليابس الذي يتركه النيل بعد انحساره، فيتكسر محدثًا صوتًا تحت أقدامنا مثل صوت
الأغصان وهي تحترق في لهب النار. لم نكن نلقي بالًا لتحذيرات أهلنا من التماسيح التي كانت تختطف الأغنام الواردة بلا راعٍ، والأطفال المتسللين خلسة في غفلة من أهليهمً. وعند العصر نصطاد القمري بالنبل والقلابة ونلعب «شليل»، أو نطارد اليربوع وقت الخريف ونمسك باليراع ليلًا ونصنع مصايد للقطط الضالة، ثم تعرفت إلى «دُوَماكا» و«عِبْدي» فكنا نقوم معًا بكثير من الألعاب الخطرةَ؛ كنا نطارد الجحوش والمهارى الصغيرة ونمتطي ظهورها وهي نافرة لترويضها، وكان أمرًا ممتعًا، وكنا نضحك حين تخفض رأسها إلى الأرض وتركل الهواء برجليها الخلفيتين أو تقف عليهما وترفع رجليها الأماميتين عاليًا في الهواء

لتلقي بنا من ظهورها، ونعاود الركض خلفها لنمسك بها من جديد. وفجأة، انتهى كل هذا يوم استيقظت صباحًا فوجدت جدي جالسًا مع أمي يحدثها ومعهما رجل يلبس ثيابًا أنيقة، ويحمل في يده اليسرى مصحفًا ومحبرة وقلمًا من القصب، وفي يده اليمنى عصا قصيرة من نبات الخيزران. وكان هو معلمي الجديد «داموس».

لم يكن يتودد إليَّ كما تعودت من جميع من يعرفون جدي وأمي، فقد كان صارمًا ولطيفًا في الوقت نفسه. وبدأت دروس القراءة والكتابة والرياضيات ثم اللغات والفلسفة والتربية، وعرفت منه قواعد الآداب والسلوك. علمني كل شيء؛ كيف أرفع رأسي في شموخ وأسير في خط مستقيم، وكيف أعامل الآخرين وأحترم الكبار.. وكان يدفعني عصر كل يوم إلى معلم الفروسية فتعلمت فنون القتال، وركوب الخيل ورمي الرمح والنشاب. كانت فترة عصيبة في حياتي. خرجت منها بجسد قوي مفتول وعقل

محشو بالعلوم والمعرفة، ولكن بروح خاوية، صدئة بائسة، حائرة قلقة. لم يكن «داموس» يعرف شيئًا عن المسيح والمسيحية. بل كان لا يقرأ الإنجيل ولا يؤمن به أصلًا. وخرجت من هذه الفترة بلا أصدقاء. روحي كانت تصرخ في صمت وتبحث عن شيء لا تعرفه؛ شيء مهم، كنت أسير بلا هدف، وأتطلع للمجهول. بعد الحوار الذي سمعته بين جدي والكاهن فهمت لماذا لم يرغب جدي في أن أتعلم في الكنيسة.

– هذه منازل قادة الجيش وذاك الذي في آخر الطريق هو قصر الملك، هل تراه من هنا؟ وهذه هي الكنيسة طبعًا، تعرفها من القبة والأجراس. هل تحب أجراس الكنيسة يا زبير؟ سوف أصحبك للكنيسة يومًا ما. الكهنة يحبونني. والكنيسة من الداخل جميلة جدًّا.

كنت سعيدًا وأنا أُرِي «الزُّبَيْر» معالم المدينة، ولكن «الزُّبَيْر» كان صامتًا، ومضينا في الطريق.

– سوف أطلب من جدي أن يصحبنا يومًا إلى قصر الملك. أنا دخلته، إنه قصر كبير وبه كثير من الجواري والعبيد. أنا سلمت على الملك وقبلت يده. لا تخف؛ فالملك شاب في مثل عمري وعمرك. هل الملك في بلادكم عنده قصر كبير مثل قصر النجاشي؟

كان «الزُّبيْر» مختلفًا عن كل من عرفتهم من الأصدقاء. لم تبهره روعة سوبأ ومبانيها وحضارتها، ولا حتى كنيسة «مارية»؛ لم يك مأخوذًا بهذا. كان بليغًا في صمته. وكان يكتفي بالنظر إلى وجهي دون أن يتكلم، وكانت نظراته بمثابة الرد على تعليقاتي. وكنت أعرف في قرارة نفسي أنه سوف يبدأ الكلام، ولم أك مخطئًا.

– أرغب في أن أرى النيل، فقد عرفت أنه يوجد غربي سوبأ نيل كبير ومياهه عذبة.

– نعم سوف آخذك إليه الآن إن شئت. النيل قريب من هنا جدًّا. هل يوجد نيل في بلادكم؟

– لا، ليس لدينا نيل، ولكن من حيث جئت يوجد بحر كبير، مالح، اسمه بحر الجار عبرناه في يومين.

– يا للهول! يومان! هذا وقت طويل. نحن نعبر النيل في وقت قصير جدًّا.

سرنا صوب النيل، وسرعان ما وصلنا. وكانت عينا «الزُّبَيْر» تبرقان دهشة. فخلع قميصه وأراد أن ينزل إلى الماء، ولكنه بدا مترددًا، فصحت فيه:

– حاذر يا زبير، فالتيار قوي جدًّا هل تجيد العوم؟

ونظرت إلى ظهره العاري فرأيت آثارًا للضرب بالسياط، وجروحًا لم تلتئم على كتفيه وذراعيه فقلت:

– ما هذا الذي على ظهرك يا زبير؟ هل آذاك أحد؟ هل ضربك أبوك؟ ماذا فعلت حتى يضربوك كل هذا الضرب؟

فلم يجبني وظل صامتًا، وخرج من الماء وجلس على الشاطئ ومد يده وغرف من الماء وذاقه، ثم شرب، ثم اغتسل بنفس الطريقة التي رأيتهم يفعلونها في بيت «تَانِيشَا».

– أنتم تغتسلون كثيرًا يا زبير! رأيتك تفعل هذا في البيت.

– نتوضأ لكل صلاة! هكذا علمنا النبي.

– ولكننا لا نتوضأ للصلاة، بل نصلي هكذا مباشرة. هل نبيكم نصراني أيضًا يا زبير؟

– لا لا.. نبينا مسلم ونحن مسلمون.

– من هو هذا النبي؟

– محمد بن عبد الله، هو رسول المسلمين! وهو ابن خالي، وزوج عمتي خديجة بنت خويلد.

– أنت ابن عمة نبي؟!

– نعم.. أمي صفية بنت عبد المطلب، وأبوه عبد الله بن عبد المطلب.

ساد بيننا صمت طويل. كان «الزُّبَيْر» خلاله قد أخذ بعض الحصى وصار يقذفه في النيل فتتقافز الحصاة فوق الماء مرة أو مرتين قبل أن تختفي في الماء. ثم نظر ناحيتي وقال:

- هل النجاشي نصراني؟

- نعم نعم وكذلك جدي وأمي وأنا! وجدي يذهب للكنيسة وهو يعرف الأناجيل ويقرأ الكتاب المقدس، إنه بارع جدًّا.. وهو يملك أقدم نسخة من الإنجيل في عَلَوَة. توارثها عن أجداده ولكن الكنيسة لا تقدر أن تنزعها منه لأن لجدي نفوذًا كبيرًا عند النجاشي.

- أرغب فى أن أرى هذا النجاشي، فقد أخبرنا النبي أن النجاشي ملك لا يظلم عنده أحد.

- نعم نعم.. ولكن قل لي يا زبير، هل اتبعت هذا النبي لأنه ابن خالك؟

- بالطبع لا يا «سِيسِّي»! هو لم يعرض عليَّ الإسلام ابتداء، ولم يدعني إليه بنفسه، فقد

دعاني إليه صاحبه أبوبكر بن أبي قحافة منذ خمس سنوات، وأسلمنا أنا وعثمان بن عفان، و عبد الرحمن بن عوف وآخرون كلنا معًا؛ لأننا أيقنا أن ما يدعو إليه هو الدين الحق.

كلام «الزُّبَيْر» أشعل في نفسي رغبةً وَقَّادَةً وتطلعًا لمعرفة المزيد عنه وعن قصته. وهو لم يحوجني للمزيد من الأسئلة فقد انطلق يحدثني:

- أسلمنا خفية وكنا نخفي هذا الدين عن قومنا؛ لأنه دين توحيد يدعو إلى عبادة الله الواحد، وقومنا مشركون، يعبدون اللات والعزى ومناة وهبل. تصور يا «سيسّي»، يعبدون حجارة وأوثانًا صنعوها بأَيديهم.وكنا إذا أردنا أن نصلي نذهب إلى شعاب مكة لنصلي خلسة. واستمر هذا الأمر ثلاث سنوات. وفجأة علموا بأمرنا..

قال هذا، ثم ابتسم وأكمل:

- وجدوا سعد بن أبي وقاص يصلي مع نفر من المسلمين في أحد الشعاب فأنكروا عليه

وعابوا ما يصنع فاشتبك معهم وقاتلهم.

سكت برهة، ثم قال ضاحكًا:

- سعد رجل قوي في الحق، ضرب أحدهم فشجه وأراق دمه. وبعدها كنا نجتمع في دار الأرقم بن أبي الأرقم عند جبل الصفا لنصلي، وكان النبي يعلمنا الدين ويقرأ علينا القرآن.

- كنتم خائفين من قومكم بالطبع.

- كلا! لم نكن خائفين.. ما كنا نخشاهم ولكن النبي أراد أن تبقى الدعوة غير معلنة في بداية أمرها حتى يسلم عدد كبير، فبقيت سرًّا ثلاث سنوات، ثم جاهرنا بها منذ سنتين؛ لأننا لا نخشاهم. أذكر جيدًا ذلك اليوم الذي خرج فيه النبي من دار الأرقم وصعد على الصفا، ودعاهم فأقبلوا واجتمعوا وقالوا: ما لك يا محمد؟ قال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم ستصدقونني؟» قالوا: نعم، فأنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذبًا قط، قال: «فإني نذير لكم بين يديْ عذاب

شديد، يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زهرة، يا بني فلان- وعدد جميع أفخاذ قريش - إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبًا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله».

- يعني بدأ محمد بكم لأنكم عشيرته الأقربون. طيب وماذا قالوا؟

- ردوا عليه ردًّا شديدًا وكان أول من رد عليه هو خالي عبد العزى فشتمه وسبَّه فقال: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ وكان بعد ذلك من أشد الناس عداوة لمحمد فكلما أتى وفد لمكة أو قابلهم خالي في الأسواق وسألوه عن محمد قال لهم: إنه ساحر إنه مجنون، لا تستمعوا إليه. وكان يسير خلف محمد في مكة وفي الأسواق ليرميه بالحجارة.

- وماذا كان موقف بقية أهل مكة؟

- قليل منهم آمن وكثير منهم بقي على دينه. ولكن لما صارت الدعوة معلنة ناصبونا العداء

وضربونا وعذبونا. كانوا يرون أننا نسب آلهتهم ونسخر منها، فاعتبروا هذا انتهاكًا لكرامتهم فغضبت قريش غضبًا شديدًا، حتى إن أقرب الأقارب انقلبوا علينا.

- قبيلتك كلها غضبت ؟!

- كثيرون يا «سِيسِّي»، وهم من كبار رجال القبيلة. أستطيع أن أعدّ لك منهم الآن عمرو بن هشام والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن قيس، والوليد بن المغيرة، وأُبيَّ بن خلف، وأبا قيس بن الفاكه بن المغيرة، والعاص ابن وائل، والنضر بن الحارث، ومنبه بن الحجاج، وزهير بن أبي أمية، والسائب ابن صيفي بن عابد، والأسود بن عبد الأسد، والعاص بن سعيد بن العاص، والعاص بن هاشم، وعقبة بن أبي مُعيط، وأبا الأصدى الهذلي، والحكم بن أبي العاص، وعدي بن الحمراء، وعتبة وشيبة ابني ربيعة، و...

- كثيرون فعلًا! هذا شيء مخيف.

– لم نكن نخشاهم. وأحكي لك حكاية. أنت تعرف ابن مسعود طبعًا، هو موجود في بيتكم الآن.

– نعم نعم تذكرته، ذاك الأسمر القصير ذا الصوت الشجي، سمعته اليوم يدندن بكلام لم أفهمه.

– نعم هو أول من جهر بقراءة القرآن بمكة بعد النبي. اجتمعنا يومًا أنا وهو وعبد الرحمن وأبوبكر وقرأنا القرآن، ثم قلنا والله ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر لها به قط، فمن رجل يسمعهم؟ كنا نريد أن نبين لهم أنا لا نخشاهم. فقال ابن مسعود: أنا، وكان من أجملنا صوتًا بالقرآن. فقلت له: لا لا أنا أخشى عليك منهم، لا نريدك أنت ولكن نريد رجلًا له عشيرة يحمونه إذا أراد هؤلاء القوم أن يؤذوه، فقال ابن مسعود: دعوني؛ فإن الله سيمنعني، وبالفعل ذهب صباحًا إلى الكعبة ووقف عند المقام حيث يجتمع أشراف قريش في ناديهم ورفع

صوته بالقرآن: بسم الله الرحمن الرحيم: (الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الإِنسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)[25] وسمعوه فانتبهوا وصاروا يقولون: ما يقول ابن أم عبد؟ ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد، فضربوه على وجهه، وجعل يقرأ ولا يهتم لضربهم حتى قرأ كثيرًا .... وضحك «الزُّبَيْر» حتى امتلأت عيناه بالدمع من الضحك، ثم قال:

– ثم جاء إلينا ووجهه مخدوش وأذنه مشقوقة والدم يسيل منه وبه آثار الضرب فقلت له: هذا الذي خشيناه عليك، فقال: ما كان أعداء الله قط أهون عليَّ منهم الآن، ولئن شئتم غاديتهم بمثلها غدا، فقلت له : يكفي ما صنعته اليوم، فقد والله أسمعتهم ما يكرهون وأغظتهم.

– كنتم لا تخشونهم إذن!

– نحن لا نخشى أحدًا إلا الله يا «سِيسِّي».

أمضينا وقت الأصيل كله على شاطئ النيل. وانطلق «الزُّبَيْر» يحدثني عن مكة وشعابها

وجبالها وأهلها، ولعبنا بالطمي، وصنعنا منه أشكالًا، وحدثني «الزُّبيْر» عن رغبته في تعلم السباحة وصيد السمك. وحدثته عن أجناس «الكرنينا» الذين يقطنون على الجانب الغربي المقابل من النيل، والحكايات التي تروى عنهم :

– «الكرنينا» في الجهة الغربية يتبعون مملكة عَلَوَة، ولكن كلهم سحرة يا زبير!! فهم يستخدمون الجن ويمارسون السحر في الزراعة والحصاد، وأراضيهم واسعة يزرعونها ويسقونها من النيل والمطر، فاذا كان وقت الزرع خرج كل واحد منهم بما عنده من البذور إلى مزرعته فيزرع فى كل ركن من أركانها شيئًا قليلًا، ثم يضع باقي البذور فى وسط المزرعة وينفث شيئًا من السحر ثم ينصرف عنه، وعندما يجيء في صباح اليوم التالي يجد أن البذور كلها قد زرعت داخل الأرض، وأنها قد تم ريها من ماء النيل. وكذلك في وقت الحصاد يحصد جزءًا يسيرًا منه ويضعه في موضع معين وينصرف وعندما يأتي في اليوم

التالي يجد الزرع قد حصد بأسره وتم وضعه في الأجران فإذا أراد درسه وتذريته فعل به ذلك، وربما أراد أحدهم أن ينقي زرعه من الحشيش فيتلفظ بقلع شيء من الزرع فيصبح وقد قلع جميع الحشيش من الزرع!!

– هل تصدق هذا الذي ترويه يا «سِيسِّي»؟

– لا أعلم يا زبير، فقد حكى لي بعض أقراني عنهم حكايات وزعموا أن الجن تفعل ذلك لهم، وأنها تظهر لبعضهم وتخدمهم وتطيعهم وتعمل لهم عجائب!

كان «الزُّبَيْر» يستمع إلى كلامي ويعجب مما يسمع، وكنت أرى الضحكة في فمه تضيء وجهه، فيطرب لها النيل والمكان من حولنا. وحلقت فوقنا بعض طيور الدوري، مرفرفة بأجنحتها قبل أن تحط على أحد الغصون. كانت روحي قد انطلقت ترفرف معها في فضاءاتها، وحين سمعت تغريدها انطلقت أدندن، أحسست بحلاوة الحياة. ما أجمل أن

يكون لك صديق!

حين كنا نجلس على ضفة النيل سمعنا جلبة وأصواتًا فالتفتنا ورأينا زفة «أربعين الولادة» تتجه نحو النيل. وسألني «الزُّبَيْر» في حبِّ استطلاع شديد:

– ما هذا يا «سِيسِّي»؟ وماذا تفعل هؤلاء النسوة؟

– هذا أحد الطقوس المعروفة عندنا يا «زبير» ويسمى «أربعين الولادة»، فالمرأة النفساء لا يجوز لها الخروج من البيت قبل أن تكمل أربعين يومًا. وواضح أن هذه هي عشية اليوم الأربعين وبداية الاحتفال لتلك المرأة التي تراها وسط النسوة. انظر إليها وهي تحمل المولود إلى النيل. وهي الآن ستقوم بغسله. ويعتقد الناس هنا أن المرأة التي تهمل هذا الطقس ستنزل بها وبطفلها الشرور. انظر إلى النساء المرافقات وهن يحملن أغصان النخيل ويغنين الأغاني الشعبية.

ونظرنا إلى الوالدة وهي تغسل وجهها ورجليها وتغسل وجه الولد ورجليه وسط صيحات الفرح والزغاريد من النساء المرافقات. قلت للزبير:

– في المسيحية طقوس قريبة من هذه الطقوس المتوارثة والمتداولة بين أهل عَلَوَة، وهي طقوس عماد الطفل بالغطاس. وربما يكون ما يفعله هؤلاء النسوة موروثًا قديمًا ورد في سفر اللاويين وأخبار الأيام في العهد القديم، مثل الختان عندنا. والناس هنا يخلطون بين طقوس الكنيسة وبين العادات الوثنية القديمة رغم كوننا مسيحيين؛ فعندنا في المسيحية طقس اسمه «دخول الوالدة إلى الكنيسة» والناس حين يغطسون الطفل في النيل يقولون: «أغطسك غطاس حنا» ويقصدون غطاس يوحنا المعمدان الذي كان يعمد في نهر الأردن. ولكنْ هناك طقوس وثنية كثيرة لها علاقة بالنيل وعبادة الأرواح.

– تقصد عبادة الشياطين.

- ربما! لا أدري فهناك روح النيل وروح الحصاد والزرع وأرواح كثيرة. ربما لو أريتك ليلة من ليالي «الزار» يا زبير فسوف ترى عجائب لا تخطر على عقل.

لم أفارق «الزُّبَيْر» تلك الليلة، وكنت سعيدًا برفقته. أخرج لنا الخدم سريرين متجاورين في ساحة الدار، فجلسنا نأكل النبق، ونسمر في العشية. كان «الزُّبَيْر» مستلقيًا على قفاه ينظر للقمر المضيء والنجوم المتلألئة في هدأة ليل سوبأ. ثم انطلق يحدثني في حماس عن المغامرة التي خاضها للهرب من مكة إلى عَلَوَة. قال لي:

- خرجنا جميعنا من مكة ليلًا، واتفقنا على أن نلتقي في الشعيبة على الساحل، وتسللنا فرادى حتى لا يشعروا بنا، وكان منا الراكب ومنا الماشي. عثمان بن عفان حمل رُقَيَّة أختي على ظهر حمار.

- رُقَيَّة زوجة عثمان بن عفان هي أختك؟

عجبًا.

– هي من جهة أمها ابنة عمتي خديجة بنت خويلد فأبي هو العوام بن خويلد، ومن جهة أبيها هي ابنة أخي محمد ابن خالي عبد الله بن عبد المطلب. وعلى ذكر الأنساب أقول لك إن عثمان بن مظعون هو أخو النبي محمد من الرضاعة. وهو صديقي رغم فارق السن الكبير بيننا.

– كيف أصبحتما صديقين؟

– دعانا أبويكر بن أبي قحافة جميعًا فدخلنا الإسلام معًا في وقت واحد، أنا وهو وعبد الرحمن بن عوف وأبوسلمة.

– وكيف وصلتم إلينا؟ أعني هنا في سوبأ.

– ما زلت أعجب كيف أنه اتفق أن وجدنا سفينتين للتجار كانتا متوجهتين من «الشعيبة» إلى «سواكن» ، فحملونا فيهما بنصف دينار، هي أجرة العبور، ولم يكن معنا جميعنا غير ستة دراهم.

- وهل علم أهل قريش بهروبكم؟

- تقصد بهجرتنا؟ فنحن لم نهرب !! نعم عرفت قريش، ولا أعلم كيف عرفوا، فخرجوا سراعًا في آثارنا حتي جاءوا إلى البحر حيث ركبنا، وكانت السفينة الأولى التي تقل النساء والأزواج قد توسطت البحر، وكانت سفينتنا على مرمى حجر منهم ولكنهم لم يدركونا. رأيتهم وقد بدت الخيبة على وجوههم. وعبرنا إلى «سواكن» في يوم وبعض يوم. لا أدري كيف كان أهل السفينة الأخرى يأكلون، ولكننا، أنا وابن مسعود وعبد الرحمن بن عوف ومصعب، لم يكن لدينا مال ولا طعام، فكنا على ضيافة التجار. وكان معي بعض التمر.

كان «الزُّبَيْر» يتحدث في حماس بالغ، وكان يعجبني اهتمامه بي وحديثه معي. أحسست أن كل كلمة تخرج من فمه هي إكسير العودة إلى الحياة في حنايا روحي المحتضرة. كنت أبحث عن مزيد من الأسئلة ألقيها عليه حتى أطيل أمد

الحوار. أعجبني في شخصيته عزمه ومضاؤه، والشباب المستعر في جوانبه، المفعم بالحماس، والفتاء والرجولة التي أراها في مواقفه وكلامه. كان قليل الكلام عن نفسه، وحين يتعلق الأمر بأصحابه كان لا يود السكوت، وكنت أطرب لذلك.

– قطعنا المسافة من «سواكن» إلى سوبأ في عشرة أيام، فكانت ثلاثين مرحلة. ما كنا نحط الرحال إلا مرة واحدة كل ثلاث مراحل؛ فكنا نقطع المراحل الثلاث في يوم واحد. رأيت كثيراً من الوحوش في الطريق؛ الأفيال وقد انتظمت خلف كبيرها، والزراف طوال الأعناق، وقابلتنا الضباع والأسود، والنعام، ورأيت عانة من الحمر الوحشية، وباديتكم هذه التي تقع إلى الشرق من سوبأ تشبه باديتنا التي حول مكة. إلا أن باديتنا كثيرة الجبال، وباديتكم هذه سهل ليس به جبل وهي كثيرة الوحوش، وهواؤها جميل.

– وهل قابلكم في باديتنا إنسان، أو نزلتم في أحد الأحياء؟

– لم نر مدنًا أو قرى على الطريق ولكننا رأينا بعض الأعراب في البادية، وهم رعاة إبل وغنم، وكنت أود البقاء عندهم؛ فحياتهم حلوة، وبسيطة. ولكن وجهتنا كانت إليكم في سوبأ؛ لأن نبينا أوصانا أن نأتي عند النجاشي. وكان دليلنا البجاوي خبيرًا يشم تراب الأرض فيعرف أين نحن، وينظر للنجوم فيهتدي بها ويعرف الاتجاهات، وما احتجنا للسؤال.

كنا نرى عظام الجمال النافقة متناثرة على الطريق، وكان هناك القليل جدًّا من المواقف للاستراحة، وقليل من المياه حتى إننا ذبحنا جملًا في الطريق لنشرب من مائه. كنا نسير في برودة الفجر إلى وقت الظهيرة حيث يكاد حر الشمس يأكل أطرافنا، ولا تكاد الثياب التي نضعها فوق رءوسنا تحمينا من لفح الهجير وحَمَّارَةِ القيظ. فننزل ونحط رحالنا ونربض

قرب الإبل نحتمي بها من الحر، فإذا غربت الشمس عدنا للمسير في رطوبة الليل..وكان... وكنا...

كانت كلماته كأنها تأتي من عالم آخر.. رغم متعة القصة. ولكن النوم سلطان.

استيقظت باكرًا جدًّا وأنا مفعم بالنشاط والحياة. و كنت خجلًا من «الزُّبَيْر» فقد غلبني سلطان النوم حين كان يحدثني عن رحلته إلى سوبأ. كان البيت يعج بالناس فقد أمضى جميع الضيوف الليلة عندنا في البيت، ورغم أنهم كانوا هادئين جدًّا فإنني استيقظت عند الفجر على صوت أحدهم وهو يدندن بكلام لم أفهمه، وسمعت صوتهم جميعًا وهم يقولون «آمين» فعلمت أنهم يصلون. يبدو أن هؤلاء العرب يصلون مثلنا «صلاة باكر» التي تذكرنا بقيامة السيد المسيح في باكر النهار، ولكن هذه الصلاة مبكرة جدًّا عن الصلاة التي اعتدناها، فما زال الظلام باقيًا ولم يمض وقت الغلس

بعد. تقلبت في فراشي محاولًا العودة للنوم ولكنني لم أقدر. الجواري والخدم كانوا ينظرون بالأمس إلى الضيوف في تساؤل ولا يجرءون على الإفصاح فهم لم يعتادوا الضيوف في بيتنا بهذه الكثافة منذ وقت طويل. عند شروق الشمس سمعت طرقًا على الباب الخلفي الذي تستخدمه النساء عادة، ورأيت «تينا» جارية أمي تفتح الباب للماشطة. لم أر الماشطة في بيتنا قطُّ قبل اليوم. يا ترى ما الذي جاء بها؟ أمي لا تضع غير الكحل على عينيها. تينا أدخلت الماشطة البدينة القصيرة غرفة أمي، ثم خرجت وفي يدها صابون ولوفة، وقماش أبيض، وقارورة بها ماء الورد، مضت بها إلى غرفة الاستحمام، وجاء الخادم بثلاث جرار من الماء ومغرفة فوضعها وخرج. ويعد قليل رأيت إحدى النساء العربيات تدلف إلى الحمام في استحياء، ومعها «تينا»، وسمعت صوت الماء والاغتسال. فعرفت مدى تقدير أمي لهؤلاء النسوة فقد أرسلت «تينا» خادمتها لتخدمهن.

وتعاقبت الأخريات بعدها. ثم دلفت «تينا» إلى غرفة أمي وعادت ومعها مرآة ومشط وقنينة عطر وإثمد (حجر الكحل).

بعد برهة جيء بثلاث عربات مسقوفة تجرها الخيل. العربات المسقوفة في عَلَوَة تستخدمها النساء في العادة. حين خرجت أمي من غرفتها متجهة صوب العربة الواقفة خارج الباب، كدت أسقط من الدهشة؛ كانت أمي في كامل زينتها. لم أر أمي بهذه الزينة من قبل. كان شعرها متموجًا مثل قوس قزح، ووجهها مشرقًا مثل وجوه الأطفال وقد امتلأت وجنتاها بالحياة. لبست ثوبًا زاهيًا شفافًا وتزينت بالذهب والمرجان، وكانت رائحة الطيب الذي وضعته تملأ المكان. رأيت أمي وقد تحولت إلى امرأة جديدة، امرأة لم أعرفها من قبل.

- إلى أين يا أمي؟

- نحن ذاهبات إلى قصر الملكة. سوف أعرفها على ضيفاتنا. رُقَيَّة بنت محمد قصت

عليَّ كل الحكاية. أنا سعيدة أنك تمضي وقتك مع «الزُّبَيْر» الآن فهذا خير لك. أنا من هذه الجهة مع رُقَيَّة وبقية النساء وأنت من الأخرى مع «الزُّبَيْر» ورفاقه. لقد سمعت أنك قابلت الملك وأنه أحبك من أول مقابلة. ألا ترى أننا ثنائي مدهش يا «سِيسِّي»؟ قالت هذا وغمزت بعينها.

أدهشني كلام أمي، رغم أني لم أنتبه لما وراءه ساعتها؛ فقد فهمت منه أن أمي سعيدة لحصولي على صديق، وكانت سعادتي بـ«الزُّبَيْر» تشغلني عن التفكير فيما سواه، ولكن ما فعلته أمي اليوم وما قالته جعلني أعيد النظر في مغـزى كلامها وغمزتهـا بعينهـا، كما أنها لبسـت اليـوم كامل زينتهـا التي لم تلبسها منذ سنوات، وأخذت النساء العربيات لمقابلة الملكة. ياللهول !! لقد قبلت أمي التحدي إذن.. نزلت الفكرة على عقلي كصاعقة، وأحسست كأن مسًّا من الجن ألمَّ بي!! حاولت أن أرفض قبول هذه الفكرة المجنونة، ولكن لم يعد

بالإمكان تناسيها. أيعقل أن تكون ردة فعل أمي بهذه السرعة؟ أمي مثل الجمل، يا وِيل من يتحداها أو يستفزها ولو كان «سِيمُونَةَ»!! ويا ويل «سِيمُونَةَ» من أمي حين تغضب.

فِي جِوَارِ المَلِكِ

رجعت أمي من قصر الملكة فرحة مبتهجة. النسوة العربيات أعدن لأمي الابتسامة المشرقة والزهو الذي لم أره يغمرها منذ مدة طويلة. رجعت أمي ومعها جرو صغير أسود أنثى بشعة المنظر، ربطتها بطوق أسود من عنقها وأطلقت عليها اسم «سِيمُونَةَ». حين رأتني أمي زفت إليَّ الخبر:

– حصلنا للعرب على جوار الملك. هم الآن ضيوفنا وضيوف الملك.

– كيف حدث هذا يا أمي؟

– أخذتهم للملكة فتعرفت إليهم، ودخل علينا الملك ورآهم فقصصت عليه قصتهم، وعلى الفور وافق على إقامتهم بيننا في سوياً. الملك طيب القلب جداً. أنت وجدك ستشرفان على إقامتهم، وتزويدهم بكل ما يلزمهم. هذه أوامر

الملك وقريبًا يأتيكما رسوله.

كانت تتحدث في اعتداد واضح، وكأنها تقمصت شخصية الملكة. أحسست من طريقتها في الكلامِ أنها تريد أن تقلب ظهر المجن لـ«سِيمُونَةَ» الساحرة. لم تنتظر أمي رسول الملك بل إنها بدأت مباشرة القيام بما يفترض أن أقوم به أنا وجدي «دَلمار» بعد أن يأتينا رسول الملك. بعثت إلى القيم على المساكن التابعة للملك فدلها على جملة من المباني الواقعة في منتصف الطريق من بيتنا إلى السوق شرقي المدينة. وكانت بيوتًا يملكها جماعة من عائلة النجاشي ولكنهم خرجوا منها لعداوتهم للنجاشي فغادروا سوياً وانضموا للأعداء غرب النيل، فأمر النجاشي بتخصيصها لضيوف المملكة. سرعان ما انتقل إليها العرب فهم لا يملكون متاعًا. أرسلت أمي أمتعة وفراشًا إلى النساء وخصت «سهلة» بملابس وعطور ودهن عود وبخور. وفي المساء أرسلت مع الجواري عصيدة الدخن المغمور في الحليب،

وبعض الفريك، وبليلة العيش المزينة بالتمر، وبعض الشراب. كان عثمان بن مظعون يسأل عن كل شيء، وسأل جدي عن الشراب فلما أخبره أنه مسكر وضع القدح كأنما لدغته حية، أو لسعته عقرب، فضحك جدي وقال:

– ما لك رددت الشراب يا أبا السائب؟ اشرب !

– لا والله يا «دَلمار». لا أشرب شرابًا يذهب عقلي ويضحك بي من هو أدنى مني ويحملني على أن أنكح كريمتي.

– فاشرب الحليب إذن يا أبا السائب، فالحليب لا يذهب العقل!!

– الحليب شراب طيب لا أرده.

أحسست أن هؤلاء العرب يتحلون بالحكمة ويقولون الصواب، فقد رأيت كثيرًا من أشراف عَلَوَة حينما يشربون الخمر وتذهب بعقولهم يتعرضون للجواري في الطرقات ويمدون أيديهم إليهن، ويتلفظون بالكلام القبيح. ثم ما

الفائدة من شرب الخمر؟ فطعمه مرٌّ لاذع وقميء. كلما تذكرت الجرعة التي ذقتها عند «سِيمُونَةَ» الساحرة جفلت روحي مرتاعة.

في اليوم التالي أيقظني «الزُّبَيْر» باكرًا وأخبرني أنهم ينوون القيام بجولة في أسواق المدينة. لم ينتظر عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان أن نصحبهما فانطلقا قبلنا متوجهين نحو السوق. وبعدما تحممت وبدلت ثيابي خرجت فعلمت أن «الزُّبَيْر» قد لحق بصاحبيه ولم ينتظرني. هؤلاء العرب لديهم شغف بالتجارة، وهم بارعون فيها. بحثت عنهم كثيرًا في أسواق عَلَوَة حتى تعبت، ولم يدلني أحد على مكانهم. وأثناء بحثي وأنا أتجول في الأسواق عثرت على سوق العبيد فدفعني الفضول للوقوف والنظر. لم أزر سوق العبيد من قبل، فكانت هذه فرصة لأعرف ما الذي يجري فيه. وكنت أسمع عنه القصص والحكايات التي تشيب لها الولدان. سمعت عن خطف الصبيان والبنات، وعن «ساري الليل»

إمبراطور تجارة العبيد الرهيب الذي ملأت شهرته عَلَوَة وما حولها، وكان ذكر اسمه وحده كفيلًا ببث الرعب في القلوب. ويقال إن معظم تجارة الرقيق وخطف النساء والصبيان هي من تدبير «ساري الليل» فهو أكبر تجار الرقيق في المنطقة. كان الجميع يخافه ويخشاه حتى تجار الرقيق أنفسهم. يشاع عنه أنه قاسي القلب متحجر الأحاسيس، ميت المشاعر، يعامل العبيد وكأنهم قطيع من الحيوانات ولا يتردد في قطع رقبة من يتمرد منهم أو تبدو عليه علامات العصيان. ويقال إنه يمارس تجارة الرقيق لمجرد المتعة وليس من أجل المال والربح. كان يخرج ليلًا ودائمًا يخفي وجهه بقناع أسود. لا يعرف أحد أصله أو جنسه. ولم يسمعه أحد يتكلم أو يرى وجهه. وكان أعوانه مثله في القسوة. وكانوا يخشونه ويخافونه وكأنه شيطان من مردة الجحيم. ويقال إنه قتل كثيرًا من أعوانه لمجرد الشك في ولائهم أو إخلاصهم له. وكان أعوانه يطيعونه طاعة عمياء. وكانوا لا

يعرفون عنه شيئًا. وبذلك بقي هذا المجهول المرعب «ساري الليل» هو إمبراطور تجارة العبيد في المنطقة.

رأيت في وسط السوق منصة كبيرة من الخشب ارتفاعها عن الأرض ثلاثة أقدام أو أكثر قليلًا، وهو نفس ارتفاع عجلات العربات التي تجرها الخيل والتي يجاء بها محملة بالعبيد فتلصق بالمنصة ويكونان معًا شيئًا واحدًا. وخلف المنصة يوجد مبنى واحد لتهيئة العبيد وإعدادهم للسوق، يستأجره التجار. علمت أن هذه هي المنصة الرئيسية في السوق ولكنني رأيت عبيدًا آخرين يعرضون للبيع على الأرض في غير المنصة.

كانت وجوه التجار غير مألوفة ولا معروفة، فقد كنت أعرف معظم التجار في أسواق عَلَوَة، وكان واضحًا أن هؤلاء ليسوا من مملكة عَلَوَة؛ فهم يقدمون إليها من الخارج لبيع العبيد. وربما يكون هذا هو التقليد في تجارة العبيد، فالعبد

وبائعه لا يكونان من البلدة نفسها. كان الناس يتدافعون ويزدحمون لرؤية العبيد الذين ينادى عليهم، وكانت عملية البيع مثلها مثل بيع بقية البضائع والسلع الأخرى، فالمنادي يقوم بوصف العبد المعروض للبيع ويعدد ميزاته وخصائصه. العبيد والجواري المعروضون للبيع يوقفون عراة ، وقد حلقت رءوس الذكور بينما تترك شعور الإناث مسترسلة على أكتافهن، ويدهنون أجساد العبيد والجواري بالزيوت والدهون لتبدو وسيمة وبراقة، وفي بعض الأحيان توضع قطعة من القماش الشفاف على جسد الجارية المعروضة ليس لستر عورتها وإنما لتزيدها جمالًا وجاذبية في عين المشتري. ويصعد العبد المعروض أو الجارية على عجلة خشبية في وسط المنصة تدور به حول محورها حتى يرى المشتري السلعة من جميع الاتجاهات. وإذا لم يكن العبد عاريًا فمن حق المشتري أن يطلب تعريته للتأكد من خلوه من العيوب والأمراض. العبيد

الجدد الذين يعرضون للبيع للمرة الأولى تطلى أقدامهم اليمنى أو اليسرى بطلاء أبيض، ويقوم المنادي بتسمية القبيلة أو الجنس أو البلد الذي ينتمي إليه العبد، وقد يعلقون حول أعناقهم لوحة تحمل بيانات أصولهم وقدراتهم وميزاتهم وعيوبهم. وإذا كان العبد معروضًا للبيع بدون أية ضمانات فإنهم يربطون رأسه بقطعة من القماش وتكون يداه مغلولتين.

رآني أحد التجار أنظر بفضول للجواري والعبيد المعروضين على المنصة، وعلم من هيئتي أنني ابن أحد كبار وجهاء سوبأ فاقترب مني وحياني باحترام. ولما علم أنني «ابن أَبِيلُّو بن دَلمار بن أرياط»، ابتسم ابتسامة خبيثة ماكرة، لم أدرك كنهها يومئذ، ولم أعرف لها سببًا، ولمعت عيناه في شغف، ولا بد أنه طمع في أن يبيعني جارية رغم أنني في السادسة عشرة من عمري. وأشار إلى إحداهن في مثل سني أو أصغر، وقد وقفت عارية إلا من قطعة شفافة من قماش لا تستر أي شيء، ولكنها

تشبثت بها واجتهدت أن تغطي بها مكمنها وقد بدا بعضه من تحت أطراف القماش. كانت أول مرة في حياتي أرى امرأة مكتملة النمو عارية تمامًا. كنت أنظر إليها في حيرة والمنادي يحدثني عنها ولكنني لم أنتبه لما كان يقول، وحين أمسك بذراعي انتبهت إلى أنه يريدني أن أساومه فقلت له:

- كم تطلب ثمنًا لها؟

- ألفًا وخمسمائة، مع أنها تساوي أكثر من ذلك بكثير.

- على أي أساس قدرت سعرها؟

- أنت تعلم جيدًا أننا نقدر السعر بناء على عمر العبد، ونوعه ذكرًا أم أنثى، وقوته وقدرته على التحمل، وصحته وحسنه أو قبحه، والحرف التي يتقنها، والمهارات التي يتمتع بها وذكائه وتعليمه. وهذه جارية صغيرة السن، قوية البدن وخالية من الأمراض، وهي مليحة ذكية ماهرة، وفوق ذلك كله هي عذراء. وأنت

تعلم أن الجارية كلما كانت أكثر ملاحة وجمالًا غلا سعرها وزاد، وأن العذراء أغلى في الثمن. هل ترغب في النظر إليها عن قرب يا سيدي؟ يمكنك الصعود إلى المنصة إن أردت.

عجبت من قدرة هذا المنادي على الترويج لسلعته، ومهارته في الوصف. وكنت أعرف أنه يستغلني، ولكنني لم أعرف لماذا قال لي: «أنت تعلم جيدًا»، وليس لي معرفة أو خبرة بالعبيد ولا بيعهم وشرائهم. ربما قالها ليتقرب مني ويتزلف إليَّ فيكسب ودي. وكنت خائفًا من الصعود إلى المنصة، فانتهزت فرصة انشغاله بالحديث مع مشترٍ آخر فتواريت عن الأنظار خلسة وسرت مسرعًا مبتعدًا عن سوق العبيد.

اجتهدت أن أسير أبعد ما يمكن، فسرت عبر أسواق الجلود والسروج والقفاف والسلال والحبال، وعبرت سوق الفخار، وتجاوزت سوق الدروع اليدوية المصنوعة من جلد فرس النهر، وسوق السروج الخشبية حتى انتهيت إلى سوق

البز والعطور.

لم أعثر على «الزُّبَيْر» ولا على «عثمان بن عفان» ولكنني عثرت على «عبد الرحمن بن عوف» في سوق البز والعطور قبيل الظهيرة، وقد اشترى وباع وكسب بعض الأموال، بل كسب بعض الأصدقاء في السوق، فعجبت من مهارته وسألته:

– كيف استطعت أن تشتري وتبيع وتكسب مالًا من أول يوم لك في السوق يابن عوف؟

– «أقول لك فائدة في البيع والشراء تكسب من ورائها الكثير، اذهب للسوق باكرًا، وتعرف عليه، واعرف أنواع الناس وأصنافهم وحاجاتهم وطلباتهم، وكن صادقًا في بيعك وشرائك، وارض بالربح اليسير، ولا تمسك السلعة عندك أبدًا، ولا تغش أحدًا، وتأكد أنك سوف تكسب مثلما فعلت أنا فلو قلبت حجرًا لوجدت تحته رزقًا. كان عندي بردة يمانية بعتها بالبدل في سوق العطور، مقابل عطور قدم بها بائع من

الشرق ثم بعت العطور مقابل دينار من الذهب فتضاعف ثمن البردة التي كانت عندي. وغداً أشتري بالذهب بضاعة وأبيعها».

استمعت إليه دون أن أعلق على كلامه، ولكن نصيحته كانت في قيمتها مثل الذهب الذي كسبه اليوم.كان جدي محقًّا حين قال إن هؤلاء العرب مختلفون جدًّا هذه المرة عن أولئك الذين كانوا يأتون مع قوافل التجارة. أمضينا اليوم كلَّه في السوق. وفي وقت الظهيرة قام عبد الرحمن فتطهر ثم صلَّى، ووقف الناس في السوق ينظرون إليه وهو يصلي، وينحني راكعاً، ثم يقف ويسجد واضعًا جبهته وأنفه على الأرض كما كان المسيح يصنع حين يصلي، وتجمع الأطفال والصبيان، وكان بعضهم ينحني ليرى وجه عبد الرحمن وهو يضعه على الأرض. وحين عدنا إلى البيت قصَّ كلُّ واحد من العرب حكايته في السوق وكيف أن الناس كانوا ينظرون إليهم وهم يصلون. كان إعلان النجاشي حماية هؤلاء العرب القادمين قد أذيع

في الأسواق والطرقات ونادى به منادي الملك.

أصبح «الزُّبَيْر» بعد ذلك يصحبني إلى السوق كلَّ يوم، وتعلمت منه كثيرًا من أمور التجارة، وعلمته كيف يتحدث بلغة الحبشة، وكان الناس يروننا معًا. وحين وضعت سهلة مولودها كان ذلك حدثًا كبيرًا ، فقد جيء لها بالقابلة «عِنَبَة»، وكانت أمي فرحة بالمولود، وكأنها هي التي أنجبته فكانت تمضي سحابة النهار إلى جنب سهلة، تحدثها وتسمر معها. وذبح «أبوحُذَيْفَة» كبشًا كبيرًا في اليوم السابع وقال لجدي إن هذه «عقيقة» نذبحها للمولود الجديد ونحلق شعر رأسه ونسميه. قالت أمي:

– ما اسم المولود الجديد يا «سهلة»؟

– أسميناه «محمدًا»؛ تيمنًا بنبينا محمد بن عبد الله، رسول الإسلام. إذ هو أول مولود للمسلمين في بلادكم.

– هل تريدين أن تطهري ابنك يا «سهلة» فقد مضى اليوم السابع أو كاد ينقضي؟ فنحن نطهر

أبناءنا في بداية اليوم الثامن.

– ماذا تقصدين بالطهارة؟

– قطع غلفته يا «سهلة» ألا تفعلون ذلك؟

– ليس شرطًا ختانه في اليوم الثامن يا «تَانِيشَا»! نحن نختن أبناءنا وقد يتأخر ختانهم إلى سن السادسة أو السابعة أو ما بعدها. ولا نفعل كما يفعل اليهود فهم يختنون في اليوم الثامن لكونه بداية أسبوع جديد. وقد سمعت أنكم تخفضون البنات أيضًا. نحن نخفض بناتنا، فعندنا بمكة «أُمُّ أَنْمَار» الختانة، مولاة شُرَيق بن عمرو بن وهب الثقفي، تخفض البنات ولكن ختان البنات عندنا هو إشمام لا ينهك البنت ولا يذهب بحظوتها عند الزوج.

– الأمر مختلف عندنا يا «سهلة»، فنحن نزيل كلَّ شيء فذلك يحفظ عفة بناتنا. تأتي الخاتنة وتقطع كل شيء ثم تضع دواء مخلوطًا لينقطع سيل الدم، ثم يجمعون فخذي المختونة ويربطونها ربطًا محكمًا فلا تقدر أن تفتحهما

حتى يبرأ الجرح.

– ولكن هذا الأمر يجعل زواج البنت وولادتها أمرًا عسيرًا يا «تَانِيشَا».

– أعلم هذا يا «سهلة»، ولكننا ورثناه عن الآباء والأمهات والأسلاف! وأقبح الشتم عندنا هو أن ينسب الشخص إلى أم غلفاء غير مختونة!! ولذا فإن جميع نساء سوبأ مختونات ختانًا كاملًا شئن أم أبين.

حدثني «الزُّبَيْر» عن «محمد» رسول الإسلام، وعن مكة والكعبة، وحدثني عن «دار الأرقم» التي كان يمضي فيها معظم الوقت، وحكى لي عن «أبي بكر» صاحب محمد، وقال لي إنه إن عاد إلى مكة يومًا فسوف يتقدم لخطبة ابنته «أسماء». وحدثته عن تعلقي بـ«سُنْجَاتَا» حين كنا صغارًا، ولكنها اليوم أصبحت جارية للملك فما عادت تصلح زوجة لي. صحبني «الزُّبَيْر» يومًا إلى الساحة العامة في سوبأ وقت الأصيل، لينظر كيف يزف العريس إلى عروسه،

وقال لي:

– أنتم هنا تزفون العريس إلى العروس بينما العروس عندنا هي التي تزف إلى عريسها.

– هذا صحيح يا زبير، فالناس هنا يهيئون العريس بالطيب والملابس ويلبسونه الحرير، ويذرون فوق شعر رأسه الذرورة من الطيب والعطور ويلبسونه عقدًا من المرجان، ويزينونه بالحرير والذهب، ويصبغون يديه ورجليه بالحناء، ثم يزفونه إلى بيت العروس التي تكون قد زينت بالزينة وهيئت أيضًا. ويجتمع «أصدقاء العريس» وأهله خارج بيت العروس يغنون، ويرقصون بالحراب، وترقص نساؤهم فيقلدن الحمام في مشيه ويقمن بهز صدورهن وشعرهن ويضربن بأرجلهن على الأرض، وتتبارى نساء أهل العريس ونساء أهل العروس في الرقص، ويتقافز الرجال إلى الأعلى ويستعرضون القوة والفتوة، وذلك قبل أن يأذن لهم أهل العروس بالدخول والجلوس على مأدبة

العرس.

كانت الأيام تمر مسرعة وأنا أبذل جهدي لمساعدة جدي «دَلمار» في الإشراف على ضيافة العرب المهاجرين. كنت أرى السعادة على وجوههم وهم يكسبون في كل يوم معارف جددًا وأصدقاء، ويختلطون بأهل سوياً، ويتعلمون الحبشية، فتغمرني الفرحة. ولكنني كنت ألحظ القلق أيضًا على نفس تلك الوجوه حين يذهبون كل يوم لساحة القوافل القادمة من الشرق، يسألون عن أخبار مكة ورسول الإسلام. كانوا يجتمعون معًا للصلاة خمس مرات في اليوم، أولاها عند الفجر يتقدمهم ابن مظعون، يقف أمامهم، ويقرأ بصوت مسموع، ثم ينحني ويخر إلى الأرض، ويفعلون مثلما يفعل. وكانوا بعد ذلك يقرءون تراتيل من حفظهم بأصوات جميلة تدخل القلب بلا استئذان، وفي النهار يصلون صلاتين ولكنهم لا يرفعون أصواتهم ولا تسمع قراءتهم. وفي الليل يصلون صلاتين أيضًا ولكنهم يرفعون أصواتهم

بالقراءة والتراتيل. كان جدي «دَلمار» يحرص على الجلوس قريبًا منهم كلما تنادوا للصلاة، وكان يستمع في انتباه واضح، وكان يفهم ما يقولونه فقد كان بارعًا في العربية. وكنت أفهم أيضًا ما يقولونه، إلا من بعض الكلمات الجديدة التي لم أسمع بها من قبل. كنت منشغلًا بصداقة «الزُّبَيْر» أكثر من انشغالي بالاستماع إليهم وهم يقرءون ويصلون.

مراقبة العرب وصحبة «الزُّبَيْر» شغلتني عن الاهتمام بجدي «دَلمار» وخدمته، فتخلفت عن الحضور للمسقوفة وتحضير الحبر والصحف. كنت مثل رجل فقير عثر فجأة على كنز مدفون فهجم عليه ليخبئه عن أعين الفضوليين ويستأثر به لنفسه. لم أترك «الزُّبَيْر» يومًا واحدًا. ولاحظ جدي ذلك فتركني أتفرغ لصحبة «الزُّبَيْر» لما رأى فرحتي وسروري اللذين لم يلحظهما من قبل، فقد نشأت يتيم الأب قليل الأصحاب، وليس لي من ذكريات الأصحاب إلا أقراني الذين لعبت معهم حين كنا صغارًا. وكنت كثير

الصمت شديد العزلة مؤخرًا قبل مجيء العرب و«الزُّبَيْر». وكان جدي يعرف العرب وعاداتهم جيدًا، ولهذا فقد فرح حين رأى هؤلاء العرب الذين كانوا نوعًا جديدًا من الناس لم يعرفه جدي من قبل. كانوا شديدي التهذيب، لم يكونوا يفعلون ما كان العرب التجار يفعلونه في السابق حينما يأتون إلى سوبأ فيكثرون من شرب الخمر ويطاردون الجواري والغلمان ويعبثون ويتشاجرون، ويسمع أهل سوبأ أصواتهم ولغطهم خارج الأسوار. أخبرني جدي أنه يعرف العرب جيدًا، ولكنه لم ير في حياته مثل هؤلاء القادمين؛ كانوا نوعًا متميزًا من العرب. وأخبرت جدي بما دار بين أمي و«سِيمُونَةَ» من حديث، وأخبرته أني عرفت أن «سِيمُونَةَ» كانت تحذر أمي من استقبال هؤلاء العرب وإيوائهم في بيتنا. وأن أمي «تَانِيشَا» بطبعها كتوم فلم تخبر جدي بالأمر. ابتسم جدي ابتسامة عريضة وقال:

– وهل كنت تظن يا «سِيسِّي» أن جدك

«دَلمار» سوف يسكت على هذا الأمر، أو يدع «سِيمُونَةَ» الساحرة وشأنها لتعبث مع «تَانِيشَا» أو تسيء إلى أسرة «أرياط»؟ لقد فهمت الأمر كله من «سِيمُونَةَ» حينما زرتها في كوخها.

– عجبًا يا جدي، هل زرت جزيرة التمساح أنت أيضًا؟

– طبعًا يا «سِيسِّي»! الناس كلهم يخشون «سِيمُونَةَ» إلا أنَا فإنها تخاف مني. لقد ذهبت إليها وتحدثت معها حديثًا طويلًا وفهمت منها أن هؤلاء العرب هم رسل النبي الموعود الذي كان اليهود ينتظرونه، وأن أعوانها من الجن أخبروها بقدوم زمان هذا النبي ويقدوم هؤلاء الرسل إلى عَلَوَة. وأنهم إن جاءوا فسيكونون سببًا في القضاء على المملكة الروحانية غرب بحر الجار. وأن أعوانها لن يتمكنوا من خدمتها؛ لأنهم إن اقتربوا منهم فسوف يحترقون. وأخبرتني أن تراتيلهم بها صواعق

محرقة يخشاها أكبر ملوك الجن وتهرب منها جنوده. وقالت إن «سيد الظلام» غاضب جداًّ من مجيء هؤلاء العرب إلى ديار عَلَوَة، ولهذا فقد هرب جنوده وأعوانه إلى منطقة الكارنينا غرب النيل، ينظرون وينتظرون.

– عجيب هذا يا جدي. لقد فهمت الآن لماذا كانت «سِيمُونَة» غاضبة إلى هذا الحد.

– نعم يا «سِيسِّي» فهي تخشى زوال سلطتها وسطوتها وتأثيرها على الناس، ولهذا فقد حذرت «تَانيشَا» من إيواء العرب. قلت لها يا «سِيمُونَة» أَنت معروفة بأنك ملكة السحر في هذا الزمان، وإنه لا يقوى أحد على مجاراتك أو الوقوف أمامك فلماذا لم تمنعي هؤلاء العرب من القدوم، أو تأمري أعوانك بإغراق سفينتهم أو تثيري عاصفة تدفنهم في رمال البادية قبل أن يصلوا إلى سوبأ أو تأمري أعوانك من الجن باختطافهم وأسرهم وسجنهم في آبار الجن وأنت لديك أعوان طوال الأعمار فككت أسرهم

من قماقم سواجن النبي سليمان؟

– وهل كان في مقدورها أن تفعل هذا يا جدي؟

– نعم نعم يا «سِيسِّي» هي ساحرة شديدة البطش، ولها أعوان كثيرون من الجن والشياطين، وتخضع لها كثير من ممالكهم وقبائلهم. ولها معرفة كبيرة ولكنها قالت لي:

– «أتظن أني تركت شيئًا ولم أجربه مع هؤلاء العرب يا «ابن أرياط»؟ لقد أرسلت كثيراً من الأعوان في أثرهم فذهبوا ولم يعودوا، وعلمت أن كل من دنا منهم احترق وأنهم محروسون بطيور الهلاك».

قلت لها:

– «عجبًا يا سِيمُونَة»!! وما طيور الهلاك؟

– غريب أنك لم تسمع بها يا «ابن أرياط».. ألم تسمع بطيور النار التي أحرقت جيش أبرهة وقتلت الفيل؟

– بلى بلى سمعت بها! وهل ينسى أحد هذه الحادثة؟ الجميع يعرفونها ولكن ما دخل هذه الحادثة بقصتنا؟

– لقد أخبرني من نجا حين اقترب منهم من أعواني أن هؤلاء العرب محروسون بطيور الهلاك التي أهلكت جيش أبرهة، وأنه لا يقدر أحد على الاقتراب منهم. ولم أصدق هذا الأمر حينها وظننت أن أعواني قد تخلوا عني، ولكنني حين اقتربت من بيوتهم بعد أن وصلوا إلى سوبأ يا «دَلمار» رأيت أهوالًا ورأيت جنودًا وحرسًا نورانيين مسلحين حول هؤلاء العرب، وكانوا يكثرون كلما تجمع هؤلاء العرب يقرءون تراتيلهم وصلواتهم. إنه لأمر مخيف زلزل كياني يا «دَلمار» فلم أملك وأنا «سِيمُونَة» الجبارة أمامهم إلا الهرب والنجاة وكاد يغمى عليَّ أكثر من مرة وأنا أجري لأنجو بجلدي منهم. وقد سقطت في الطريق مرتين يا «دَلمار».

كان جدي «دَلمار» يضحك وهو يقص حكاية

الساحرة «سِيمُونَةَ». وبدا لي وكأنه يروي أساطير وأحاجي من الزمن الغابر تحكيها الجدات للصغار قبلِ النوم. وعجبت أن في زماننا مثل «سِيمُونَةَ» الساحرة. وحين حكيت للزبير عنها قال لي:

– لقد أخبرنا نبينا أن أرضكم هذه هي أرض السحر والسحرة منذ زمان النبي «موسى»، وأنه قد وقعت بينهم وبين النبي موسى معارك ومفاصلات. لا عجب يا «سِيسِّي» أن «ابن مظعون» يأمرنا بالتحصين كل صباح ومساء من شياطين الإنس والجن فلا يستطيعون أن يصلوا إلينا.

وَصِيَّةُ دَلمار

خَيَّمَ الحزن على وجوه الجميع بعد أن دق أوتاده وغرسها في سوياً وفي قلوب أهل عَلَوَة. مات جدي «دَلمار». أيقظته أمي صباحًا فلم يستيقظ. نام في سلام. سمعت صراخ أمي فأسرعت إلى غرفته، ورأيته ممددًا على سريره وقد أغمض عينيه كالنائم. وجهه مفعم بالطمأنينة والسلام. ويده اليمنى فوق يده اليسرى على صدره وكأنه يصلي صلاة المسلمين.كان موته صاعقة على الجميع: الملك والملكة، الوزراء والحكماء، القادة والكهان والقساوسة، حتى الخدم. أظلمت سوياً في عيني، كما لم تظلم من قبل. كنت أخرج وأعود بلا هدف، وأحيانًا أجلس ثم أقوم. لاحظ «الزُّبَيْر» قلقي وحزني فجاء يواسيني. ضمني إلى صدره بقوة ولكن ضمته ما سكنت روعي بل هيجت أحزاني وأجرت دموعي وكأنه

كان يعتصرها من المحاجر. حاولت إيقافها فما قدرت. حين لاحظ «الزُّبَيْر» أن جسمي بدأ ينتفض وهممت بالبكاء بصوت، تركني ووضع يديه خلف ظهره واتكأ بهما على الحائط وكان ينظر إلى سقف «الدانقة».

العرب المهاجرون أخبروا أمي أنهم سوف يصلون عليه صلاة المسلمين. قالوا إن «دَلمار» شهد شهادة المسلمين معهم سرًّا قبل موته وكان حريصًا على تعلم صلاتهم. وكان يقلدهم في صلاتهم ويصلي في غرفته. وأرادوا أن يدفنوه بطريقتهم ولكن الملك أراد أن تقام له جنازة ملوكية تليق بمقامه ومكانته من الملك قبل دفنه. حملوه على «عنقريب» قصير الأرجل جميل النسج مطلية أرجله باللون الأحمر وقد فرش بنوع من البروش الملونة المنسوجة من السعف النادر وقد وضع فوق البرش بساط ملون، ورشوه بكميات كبيرة من العطور، ولفوا جسده بنسيج من القماش الأبيض المغزول من القطن. وحملوا الجثمان

والعنقريب فوق الأعناق وسار وراءه الوزراء والقادة والأشراف والحكماء والتجار وجموع غفيرة من الناس إلى حيث يدفنونه. العرب المهاجرون اصطفوا خلف جثمانه وصلّوا عليه. حين وصلوا إلى مدافن العَنَج جنوب سوبأ وضعوا الجثمان تحت ظل شجرة ظليلة من أشجار السيال، وكان الحفارون يحفرون القبر بهمة عالية. ثم لما اكتمل الحفر نزل اثنان منهما داخل القبر بينما حمل الجثمان جمع آخر من الوزراء وناولوهم الجسد الملفوف بالقماش ثم أزاحوا «العنقريب» بعيداً. ثم غطوا الشق الذي وضعوا فيه الجثمان بالطوب المصنوع من اللبن وغطوه بالطين، ثم واروه بالتراب حتى صار القبر كومة مستطيلة من التراب، ثم رشوا عليه الماء، ووضعوا عليه بعض أغصان النخيل ووضعوا شاهدين مؤقتين من الطوب المحروق ريثما ينحتون له شاهداً. ثم انصرف الجميع وبقيت أنا وأمي أمام القبر.

أمي بكت عليه كما لم تبك على أحد، فقد كان هو كل شيء بالنسبة لها. وكانت تظن أنها أكثر الناس حزنًا. ليتها رأت حِمَمَ الحزن التي تغلي في صدري، وتتفجر بين جوانحي فتفريها. لكن الناس كانوا يرون تجلدي فلم أظهرها للناس.. تمنيت لو تذهب أمي حتى أبقى وحدي فأرتمي على القبر وأبكي بكل جوانحي. كنت لا أريد أن يراني أحد وأنا بهذا الضعف. كنت سأبكي مثل النساء. ولكن أمي لم تتركني وحدي، وشدتني من يدي بقوة فتبعتها إلى العربة الواقفة. كانت تسحب جسدًا بلا روح؛ فقد كانت روحي ترفرف حول قبر جدي. تركها جسدي هناك وعاد مع أمي.

سرعان ما تم تعييني ترجمانًا في موقع جدي؛ فالملك لا يبقى يومًا واحدًا بدون ترجمان، والوفود لا تنقطع. ولم أسأل نفسي هل كان تعييني ترجمانًا للملك لأنني أهل لهذا المنصب، أم يا ترى كان عرفانًا لجدي «دَلمار»؟! لم أفرح للمنصب والوظيفة، رغم أنها كانت حلم

حياتي، ولكن حين تحقق أصبح واقعًا مؤلمًا يذكرني بجدي «دَلمار». وتضاءلت نفسي وأنا أجلس في مكتبه المعهود بالقصر ، ويحييني الجميع مكان «دَلمار» ويطلق البعض الآخر عليَّ اسم «دَلمار الصغير». أحسست أن هذا ليس مكاني ولا منصبي وأنني أتعدى على مكتب جدي «دَلمار». وحرصت على ألا أجعل هذا المنصب سببًا للشهرة والعلو. فكنت أدخل القصر خلسة وأغادره خلسة حتى أخلو مع نفسي وأمي و«الزُّبَيْر».

كبير الكهنة والقساوسة جاءوا يعزونني، وأقاموا قداسًا في بيت جدي ورتلوا الصلوات. وقالوا إن جدي «دَلمار» كان قارئًا جيدًا للإنجيل. تذكرت حواراته السابقة مع كبير الأساقفة فضحكت سرًّا.

أحداث الأيام الماضية التي سبقت موت «دَلمار» كانت عاصفة. جدي كأنه كان يعلم اقتراب انضمامه لأسلافه الراقدين.

خلا بي يومًا في المسقوفة، وأجلس الخادم عند المدخل الخارجي وأمره ألا يُدخل أحدًا علينا إلا إن كان الملك. ارتعت حين سمعت كلامه للخادم فجدي حين يقول كلامًا فهو يعني ما يقول بالحرف، وهو لا يهزل ولا يعرف الهزل.

وجدت داخل المسقوفة طعامًا وشرابًا فعلمت أن الحديث سيطول. وأسدل جدي الستائر وأنار المشاعل الزيتية المثبتة على جدار المسقوفة. وأجلسني قبالته، وبقي صامتًا حتى ظننت أنه لا يريد الكلام. ثم تكلم فجأة وقال كلامًا كثيرًا استمر لساعات طويلة. وأذكر من كلامه أنه قال فجأة:

– اسمع يا «سِيسِّي» وانتبه لما سوف أقوله لك جيدًا فهو خلاصة عمري الطويل. وقد أذن لي سيدنا النجاشي أن أقصَّ عليك كلَّ شيء فقد أصبحت أنت الآن محل ثقته وقريبًا سوف تصبح مستودع أسراره. وما سأقوله لك هو أول الأسرار.

- حاضر يا جدي، أنا منتبه جيدًا لكل كلمة ستقولها.

أمسك جدي بيده على لحيته وتنهد تنهيدة زفر فيها نفسًا حارًّا عميقًا، ثم بدأ حديثه:

- سأحكي لك تاريخًا لأحداث لم تكن تعرفها ولا يعرفها كثير من الناس، ولكن تفاصيلها يعرفها سيدنا الملك وأعداؤه.

- وهل للملك أعداء يا جدي؟

- لا تقاطعني يا ولدي حتى لا يتشتت فكري واسمع الحكاية كلها منصتًا.

أوشكت أن أقول «حاضر يا جدي» ولكنني اعتبرت أنها ستكون مقاطعة لكلام جدي «دَلمار» فآثرت الصمت.

قال «دَلمار»:

- سأحكي لك قصة الأمير «أَصْحَمَةَ» ابن الملك «الأبجر» ملك مملكة عَلَوَة الذي أصبح هو الآن ملكنا وسيدنا النجاشي.

كان أبوه سيدنا «الأبجر» النجاشي السابق هو ملك مملكة عَلَوَة. وكان ملكًا محبوبًا من جميع الناس، لا يظلم أحدًا أبدًا. وكان جدك «دَلمار» الذي يحدثك الآن هو صديق «الأبجر» المقرب قبل أن يصبح ملكًا، فقد نشأنا ولعبنا وسافرنا معًا، وحين أصبح سيدنا الأبجر هو الملك، كنت صديقه المقرب وكاتم أسراره. ولم يكن له أولاد إلا الأمير أَصْحَمَةَ الذي كان غلامًا صغير السن حينما وقعت الأحداث التي أرويها لك الآن.

كان «الأبجر» ملكًا طيب القلب، حسن الظن بالناس، ولكن وزراءه الذين كانوا معه لم يكونوا مثله فقد كان همهم هو جمع الأموال و
الحصول على الثراء. ولم يكن الملك يسمح لهم باستغلال مناصبهم للتعدي على أموال الناس فقد كان ملكًا عادلًا ولذلك أحبه الناس.

كان الوزراء يتم اختيارهم وترشيحهم بواسطة الكنيسة، وكانت الكنيسة بنفوذها وسطوتها تفرض هؤلاء الوزراء على الملك النجاشي

فرضًا، وكان أساس الاختيار هو مبدأ ولائهم للكنيسة وسياساتها فقط، ولم يكن له علاقة بكفاءتهم ولا نزاهتهم، وكانت أهم مؤهلاتهم هي الولاء المطلق للكنيسة. كان هؤلاء الوزراء يتوقون للثراء بأية وسيلة فقد كانوا يقدمون إتاوات ضخمة للكنيسة. فاجتمعوا يومًا في منزل أحدهم وتفكَّروا حول كيفية تنحية الملك والانقلاب عليه وتولية غيره حتى يخلو لهم الجو فيحصلوا على ما يشاءون من النفوذ والأموال. ولكن الوزير الذي جرؤ على التحدث بالفكرة كان خبيثًا فقد غلَّف أطماع الوزراء في ثوب الخوف على المملكة والملك فماذا قال لهم:

قال إن ملكنا ليس عنده غير ولد واحد هو الأمير أَصْحَمَة، ليخلفه على سرير الملك من بعده، وهذا الأمير ما يزال صغير السن جدًّا، وتعلمون أن المملكة يتهددها الأعداء من كل مكان، فلو مات الملك الأبجر فستصبح بلادنا ضعيفة يتخطفها الأعداء وتتقاسمها الممالك من حولها. قالوا له: وما الحل؟ فقال لهم: الحل هو

«نِيَّار» شقيق الملك النجاشي فله أولاد كثيرون فهو الذي يصلح للملك أكثر من «الأبجر». واتفقوا على هذا الحل وذهبوا إلى بيت «نِيَّار» وقالوا له: أنت أولى بالملك من أخيك؛ لأن لك أبناء يشدون من أزرك ويدعمون ملكك ويطيلون أمده ويرثونك في الملك ونحن وزراء الملك سنكون وزراءك وقد اتفقنا وأجمع رأينا على هذا. ولكن «نِيَّار» غضب غضبًا شديدًا وأراد طردهم من بيته وهددهم بأنه سوف يبلغ أخاه الملك «الأبجر» بالأمر ليتم عزلهم جميعًا من الوزارة فهم لا يستحقونها وليقدموا للمحاكمة بتهمة الخيانة. ولكن الوزراء لم يغادروا بيت «نِيَّار» شقيق الملك، وبدلًا من ذلك قالوا له: «اعلم أننا إن خرجنا من بيتك ولم يتم هذا الأمر فسنتوجه جميعنا للملك ونقول له إن أخاك يتآمر عليك ليخلعك من الملك وسوف نشهد جميعنا على هذا، وستكون النتيجة كارثة عليك وعلى أولادك من بعدك. وبدلًا من هذا كله فنحن الآن نعرض عليك أمرًا هو في مصلحة

الجميع، وستصبح أنت بموجبه ملك البلاد، وتكون المملكة قد أمنت الغزو الخارجي، ولا يتطلب ذلك سوى تنحية شقيقك من الملك. كما أننا نعدك بأنك لن تبذل أي جهد من جانبك لتصبح أنت الملك فنحن سنتولى تنفيذ هذا الأمر برمته، وسنقوم بالإنابة عنك بتنحيته، وتوليتك علينا ملكًا مكانه. وفي حال لم تجر الأمور كما ينبغي فلن تعود عليك بأي خسارة لأنه لن يعرف أحد من الناس حينها أن لك صلة بهذا الأمر».

كان «نِيَّار» مثل أخيه الملك «الأبجر» رجلًا طيب القلب، ولكنه لم يكن خبيرًا في أمور السياسة والملك ولا يعرف المكر والدسائس، فخضع للوزراء والحكماء تحت إلحاحهم وتلاعبهم بالكلام، وكان يظن أن ذلك ستكون فيه المصلحة للجميع وظن أن تنحية أخيه الملك ستكون تنحية سلمية. ولن يحدث شيء سوى ذهاب أخيه ومجيئه هو، وسيكون هؤلاء الوزراء الحادبون على المصلحة هم وزراءه من

بعد وعونًا له في إدارة شئون البلاد وأمور الملك مثلما هم الآن. كما أن ذلك سيكون في مصلحة أبنائه الذين سيصبحون أمراء وسيكون منهم ولي العهد بعده، كما أن الملك سينتقل في أولاده وأحفاده من بعدهم. ولم يفطن «نِيَّار» إلى أن الذين هددوه بالوشاية الكاذبة لدى أخيه الملك هم ليسوا أهلًا للثقة، ولكن بعد فوات الأوان.

ففي ليلة من ليالي الشتاء الطويلة تسللت فرقة مسلحة إلى مخدع الملك أدخلها الوزراء سرًّا، فاغتالوا الملك «الأبجر». ولما سمع الحراس الجلبة والصوت في مخدع الملك هرعوا للنجدة، ولكن الفرقة المسلحة اغتالت جميع الحراس قبل أن يتمكنوا من الهرب. وخرج الوزراء في صباح اليوم التالي على الناس يلبسون ثياب الحملان، وقالوا إن خونة تسللوا بليل واغتالوا الملك «الأبجر» وإنه سوف تتم تولية شقيقه «نِيَّار» ملكًا على البلاد ليتمكن من الأخذ بثأر أخيه.

فوجئ «نِيَّار» بما حدث، فلم يكن يتوقع أن الأمر يتضمن مقتل أخيه ويُتْمَ الابن الوحيد لأخيه الملك. كان «نِيَّار» يعلم من الذي يقف وراء المؤامرة ولكنه لم يكن يجرؤ على التصريح بل انفطر فؤاده على مقتل أخيه بالرغم من توليه مقاليد الملك، فانطوى على سر عظيم لم يخبر به أحدًا فظل يؤرق مضجعه ويغتاله ببطء.

الوزراء كانوا يضحكون في سرِّهم حين ذهبوا للملك الجديد ويشروه بمقتل أخيه وإتمام المهمة بنجاح، وأنه قد أصبح هو الملك الجديد! وفي واقع الحال كان يهنئ بعضهم بعضًا بالنصر الذي حققوه لأنفسهم؛ فقد أصبح كل شيء في أيديهم بما في ذلك الملك القادم.

وفي يوم التتويج نظر الملك «نِيَّار» فرأى ابن أخيه الأمير الصغير اليتيم «أَصْحَمَةَ» واقفًا وحيدًا ينظر للناس وقد فقد أباه، فاستيقظ ضميره في تلك اللحظة من لحظات الصدق مع

النفس ورقَّ له قلبه وأشفق فؤاده فضمه إلى أبنائه في القصر هو وأمه.

«أَصْحَمَة» كان يعي ما حدث حوله ولكنه لم يفهم السبب وراء مقتل أبيه، فقد كان يعلم أن أباه ملك عادل محبوب من جميع الناس. لم يكن يعلم يومها أن يد عمه الملك الجديد ملوثة بدماء الملك المقتول ظلمًا، ولكنه كان يتساءل: لماذا توقف البحث عن قتلة أبيه؟ ولماذا لم يتم عقد أي محاكمات؟ ولم يجد جوابًا لهذه التساؤلات.

كان وجود «أَصْحَمَةَ» في القصر قريبًا من عمه وتحت سمعه وبصره قد جعل إحساس الملك بالذنب يتعاظم فصار يقربه إليه ويرعاه، فنشأ في القصر وصـار أقرب إلى الملك من أبنائـه الحقيقـيين. وكان جـدك «دَلمار» يا «سِيسِّي» بمثابة المربي «لأَصْحَمَةَ» في القصر فقد كنتُ ترجمان الملك «الأبجر» ومستشاره الخاص وكاتم أسراره ولما قتل أصبحت تلقائيًّا

ترجمان الملك «نِيَّار». وكنت أراقب ما يجري من تصرفات الملك بعين المتغافل الذي لا يفوته شيء. واستغللت إشفاق الملك على ابن أخيه الصغير ذي السنوات الثماني، فكنت أحرص على أن يعرف «أَصْحَمَةَ» ما يدور من حوله، وحرصت على تعليمه وتربيته فنشأ نابغة ذكيًّا فطنًا، وكان سريع التعلم حاضر البديهة. قوي الذاكرة، وكان يدرك في قرارة نفسه قوة المنافسة مع أبناء عمه أولاد الملك فدفعه ذلك إلى التفوق عليهم جميعًا في شتى المجالات.

حين لاحظ الوزراء والحكماء الذين كانوا طرفًا في المؤامرة أن الملك يقرب «أَصْحَمَةَ» أكثر من أولاده أحسوا بالخطر، فذهبوا إلى الملك «نيَّار» وقالوا له إننا لاحظنا أنك تقرب «أَصْحَمَةَ» أكثر من أبنائك وإننا نخشى أن توكل إليه المهام وتتطور الأمور فتصل إلى مرحلة توليه الملك من بعدك فتعود الأمور إلى ما قبل مقتل أبيه؛ لأن هذا هو الذي قتلنا أباه من أجله.

غضب «نِيَّار» من استمرار هذه المؤامرات من جهة الوزراء فقال لهم:

- ألم تقتلوا أباه منذ سنوات ليست بعيدة؟ فماذا تريدون الآن؟

قالوا له: إما أن نقتله نحن أو تنفيه أنت بعيدًا عن سوياً، فرفض الملك هذا في بادئ الأمر وتقطع قلبه على ابن أخيه المظلوم، ولكن الوزراء أوعزوا إليه بأن «أَصْحَمَةَ» شديد الذكاء، وأنه قد كبر الآن ولا بد سيعلم من الذي كان وراء مقتل أبيه، وسوف يكتشف أن عمه الملك ووزراءه هم الذين فعلوا ذلك، خصوصًا أنه لم تتم أي محاكمات بعد مقتل أبيه. فاقتنع «نِيَّار» بكلامهم ولكنه جعل الوزراء يعدونه بعدم قتله ويكتفون فقط بإبعاده عن مملكة عَلَوَة. وفي لحظة من لحظات الغدر تم اختطاف «أَصْحَمَةَ» وبيعه إلى تاجر من تجار العبيد بستمائة درهم واشترطوا عليه أن يبيعه لأحد العرب شرقي بحر الجار حتى لا يعود إلى عَلَوَة

أبدًا. ولم يكن التاجر يعلم أن هذا العبد الذي اشتراه هو «أَصْحَمَةَ» ابن الملك «الأبجر» نجاشي عَلَوَة الأسبق.

اختفاء الأمير «أَصْحَمَةَ» أوجد لدى عامة الناس شعورًا بمؤامرة محوكة على الملك السابق وأسرته، فقد قتل الملك في ظروف غامضة لم يكشف عن تفاصيل أحداثها، واختفى ابنه في ظروف مماثلة فما الذي يجري. كانت عيون الناس تتساءل ولم يجرؤ أحد على الكلام. كان لهذا الأمر وقعه الشديد على الملك «نِيَّار». لم ينم بعد ذلك هانئًا فقد تآكله الشعور بالذنب وأثقلت كاهله الهموم، وأحس بالجرم المضاعف في حق أخيه، وحق الابن اليتيم والأرملة الثكلى التي كانت عنده في القصر، والتي كانت نظراتها الحزينة الخائفة المتسائلة تقتله كل يوم، وعجزه عن أن يفعل شيئًا حيال هذا كله رغم كونه الملك. فخرج يتمشى في البرية في ليلة من ليالي الخريف لعله ينسى همومه. وحين أمطرت السماء لجأ إلى ظل

شجرة يحتمي بها من المطر فأصابتها صاعقة فقتلته وأحرقت الشجرة. وفقد الناس ملكًا آخر وأصبح العرش شاغرًا.

أعداء المملكة في أقصى الجنوب والجنوب الشرقي والذين غزوا اليمن وجزيرة العرب منذ ما يقرب من خمسين عامًا بجيوش جرارة تأكدوا من ضعف مملكة عَلَوَة التي كانت قد انشقت عنهم أصلًا والتي تملك من الجيوش والقوة والعتاد والأموال ما لا يملكون، فأيقنوا أن ضعفها هذا مؤقت وأنه لن يدوم ووجدوا أن هذه فرصة مواتية لهم للاستيلاء على عَلَوَة فطمعوا في ضمها لمملكة أكسوم مرة أخرى، خاصة أن عَلَوَة تخضع لسيطرتها أجناس الشرق حتى بحر الجار حيث مناجم الذهب. وبالفعل تحركت جيوشهم محاذية النيل الأخضر هابطة من الجبال والتلال نحو مملكة عَلَوَة. أعداء المملكة من الغرب جاءوا من بلاد ما بين النيلين وحشدوا جيوشهم غرب نيل سوبأ واستعدوا للهجوم على العاصمة. كان

الوزراء قد أطلقوا يد «ساري الليل» أخطر تجار الرقيق ليخطف ما يشاء من النساء والصبيان. كانت هجمات «ساري الليل» وأعوانه من تجار الرقيق على بلادهم وأخذ النساء والأطفال عبيدًا لبيعهم للممالك الأخرى – سببًا وراء حنق الأعداء من الغرب، وكان وزراء الملك « نِيَّار» قد أطلقوا «لساري الليل» وبقية تجار العبيد العنان لجلب أكبر عدد من العبيد مقابل إتاوات يأخذها الوزراء، وقد قام تجار العبيد بهجمات كثيرة خطفوا فيها الأطفال والنساء لبيعهم عبيدًا، وكان «ساري الليل» هو أكثرهم هجمات؛ فهو يفعل ذلك للمتعة وليس للمال. وكان شجاعًا وشديد البأس. وانتشرت تجارة العبيد في عهد الملك «نِيَّار». كما أن السحرة والمشعوذين الذين كان الملك الأبجر يقوم بإحراقهم وقتلهم قد وجدوا في المملكة الضعيفة فرصة للأخذ بثأرهم والقضاء على الدولة المسيحية وعودة مملكة السحرة وسلطانهم. تأزم الأمر جدًّا وعجز الوزراء

والحكماء عن إيجاد خلف مناسب للملك «نِيَّار»، خاصة أن أبناءه لم يكونوا مؤهلين لتولي الملك والتصدي لجيوش السحرة القادمين للحرب، والذين أصبحوا على مشارف النيل من ناحية الغرب. أبناء الملك «نِيَّار» استمروا في التنازع من أجل الملك ودب بينهم العداء، فكل واحد منهم يريد أن يكون هو الملك. وفي ظل هذه الظروف التي تهدد المملكة وتعصف بها فزع الوزراء والحكماء، وقلَّبوا الأمور بينهم، فلو لم يتصرفوا بسرعة فإنهم سيخسرون كل ما عملوا من أجله طوال السنوات الماضية؛ لأن عَلَوَة ستضيع بما فيها ومن فيها.

أقنعهم «أحد الناصحين» بأن الحل الوحيد أمامهم هو تولية ملك قوي حكيم وقادر على الإمساك بزمام الأمور، وتطيعه الرعية وتدين له بالولاء. وأن هذا لا يتوافر إلا في شخص «أَصْحَمَةَ» بن «الأبجر» الأمير الذي باعوه عبدًا لتاجر الرقيق. قالوا كيف نسترده وقد بعناه.

وفي لحظات، قرر الوزراء الاستماع إلى صوت العقل أو ربما إلى صوت المصلحة، ورأوا أن الحل يكمن في عودة «أَصْحَمَةَ» وتوليته الملك. فأسرعوا إلى حيث باعوه فعلموا أن التاجر قد سافر إلى «باضع» ليبيع من معه من العبيد إلى العرب. وفي «باضع» وجدوا التاجر فساوموه على استعادة العبد المبيع بضعف ثمنه، وقصوا عليه حكاية كاذبة؛ ليبرروا استرداد العبد مرة أخرى. وبعد أن منوا التاجر بقبض الثمن مضاعفًا دلهم على السفينة التي كانت توشك أن تقلع به متوجهة إلى الساحل الشرقي للبحر لتبيعه للعرب.

رجعوا بالعبد المبيع فتوجوه ملكًا على عَلَوَة. الشعب فهم الحكاية وعرف من الذي كان وراء المؤامرة على الملك الكبير «الأبجر» وابنه «أَصْحَمَةَ»، بعد أن قام جدك «دَلمار» بإخبار الملك بالقصة كلها.

- ولكن يا جدي، كيف عرف الناس

المؤامرة؟

- ألم أقل لك ألا تقاطعني يا «سِيسِّي»؟ وعمومًا فسوف أجيبك. هل نسيت أن جدك «دَلمار» كان هو ترجمان «الأبجر» و«نِيَّار» وكاتم أسرارهما؟ لقد أخبرني الملك «نِيَّار» يومًا وهو سكران بكل شيء، وحينما أفاق في اليوم التالي نسي أنه أخبرني. وكنت في صراع بين كتمان أسرار الملك ومصلحة المملكة، وبعد أن مات الملك عملت سرًّا على إقناع الوزراء بعودة «أَصْحَمَةَ» وتوليه مقاليد الملك.

- كنت أتوقع هذا يا جدي، فقد أحسست به في ثنايا كلامك حين قلت أقنعهم «أحد الناصحين ».

- كنت حريصًا على أن يتم عزل هؤلاء الوزراء ومحاكمتهم ونصحت سيدنا النجاشي بهذا، ولكنه عزلهم ولم يحاكمهم وعفا عنهم واكتفى بعدم توليتهم مسئوليات هامة في البلاد.

هذا هو درس الأسرار الأول، أرجو أن تكون

قد وعيته. وسوف أستأمنك الآن على أحد أهم أسرار الملك. قال هذا وأعطاني علبة من الخشب فتحتها فإذا هي مبطنة بالحرير الأخضر وبداخلها مصحف جلدي مكتوب عليه تارة بالحبر الأسود بخط غير جميل، وتارة أخرى بأنواع رديئة من الحبر، وبه صفحات غير مكتملة وأخرى مبتورة. وبعض الصفحات نظيف جداًّ وصفحات أخرى متسخة جداًّ.

- ما هذا يا جدي؟

- هذا مصحف مذكرات «أَصْحَمَةَ» الملك، منذ أن كان صغيرًا. طلب مني أن أهديه لك لتقرأه وفيه كثير من أسرار الملك وما قابله خلال حياته الأولى. هو لك الآن. اقرأه وحافظ عليه. الملك يحبك جداًّ وقد عبر لي عن هذا يوم رآك. واضح أنه سيقربك منه كثيراً، والدليل هو أنه أعطاك مصحفه الخاص الذي لم يطلع عليه أحد حتى ولا أنا، وسمح لك بالاطلاع على أسراره التي لم يخبر بها أحدًا من الناس،

بالطبع أنا أعرف الكثير منها؛ فقد أخبرني هو به أو رأيته بعيني حين كان صغيرًا مثلك في العمر.

– حاضر يا جدي.

– وهناك أمر آخر أريدك أن تنتبه إليه.

– ما هو يا جدي؟

– هؤلاء العرب القادمون، هم مختلفون جدًّا عما اعتدته من قبل من القوافل العربية القادمة. وقد سمعت قصصهم وهي من أغرب ما سمعت. لا بد أن أمرًا خطيرًا يحدث في جزيرة العرب. سمعت اليهود في الإسكندرية منذ مدة ليست بالقصيرة يذكرونه ويقولون إنه سيأتي من بني إسرائيل رجل في بلاد العرب يملك كل العالم وإن هذا زمانه وإنهم سوف يتبعونه، وعلمت أن كبير الكهنة عنده علم كذلك. وقد حدث الأمر كما ذكره اليهود إلا أنه قد اتضح الآن أن هذا النبي ليس من بني إسرائيل وإنما هو من العرب أبناء عمومتهم، ولا ندري ما

سيكون. عمومًا هم الآن ضيوف الملك، وأنا وأنت أصبحنا القيِّمين على ضيافتهم فعليك أن تبذل كل ما في وسَعك ليبقوا في بلادنا آمنين؛ لأنه من الواضح إن كان ما يقولونه صحيحًا – وأغلب ظني أنه صحيح – فسوف يلقون شرًّا كبيرًا وسوف يتربص بهم كثير من الأعداء، فقد خاب ظن اليهود في ظهور الملك منهم؛ لأنه تبين أنه من العرب بني إسماعيل وليس من بني إسرائيل بن إسحاق. وأنا قرأت في التوراة أن هذا الملك سيكون هو ابن الأمة الوضيعة «هاجر» وليس ابن الحرة الرفيعة «سارة» وسينزع من بني اسرائيل العمامة، فقد قرأت نبوءة حزقيال[26]: «وأنت أيها المطعون الأثيم، ملك إسرائيل، يا من أزف يومه في ساعة العقاب النهائي اخلع العمامة، وانزع التاج، فلن يبقى الحال كسالف العهد به، ارفع الوضيع، وضع الرفيع. ها أنا أقلبه، أقلبه، أقلبه؛ حتى لا يبقى منه أثر، إلى أن يأتي صاحب الحكم، فأعطيه إياه».

- وماذا يعني بنزع العمامة يا جدي؟

- نزع النبوة والشريعة من بني إسرائيل، فهي لن تكون لهم يا ولدي من بعد، وواضح الآن أنها ستكون في بني عمومتهم من العرب بني إسماعيل، مثلما بشَّر المسيح بذلك حين أخبر بني إسرائيل: «الحجر الذي رفضه البناءون قد صار هو رأس الزاوية». وأن هذا قضاء من الرب «من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا»، كما تنبأ المسيح بأن من سيقف ضد هذا القضاء سوف يدفع الثمن غاليًا «ومن سقط على هذا الحجر يترضض، ومن سقط هو عليه يسحقه».

- أنت الآن صديق للزبير، وهو شاب قوي وذكي مثلك، ولا بد أنه حكى لك عن قصتهم.

- تحدثنا كثيرًا، وقد أخبرني أن قريبه نبي.

- ليس قريبه هو فقط ولكنه قريب لمعظم هؤلاء القادمين. الملك أمر بمنحهم بيوتًا وأعلن أنهم ضيوفه، وأصدر أمرًا بعدم التعرض لهم.

وهناك أمر آخر خطير وسر كبير أريدك أن تطلع عليه أيضًا ولا بد أنك لاحظته وهو يتعلق بالكنيسة والمطران الكبير.

– ما هو يا جدي؟

– الكنيسة تريد أن تكون هي الحاكم الحقيقي لعَلَوَة وليس الملك. وفي سبيل ذلك، يجمعون الأموال والذهب ليبسطوا سلطتهم الدينية والسياسية على المملكة ويفرضوا سياساتهم ورأيهم على الملك، وهم ينفذون سياسة الكنيسة في الإسكندرية وخططها. أريدك أن تكون مستيقظًا ومنتبهًا لهذا الأمر وأن تفتح عينيك جيدًا؛ فكل كلمة يقولها كبير القساوسة وكل خطوة يخطوها تصب في مصلحة هذه السياسة. وهم يعرفون ماذا يفعلون، وينفذونه في صمت وبدهاء ومكر شديد. والناس في عَلَوَة مسيحيون ويثقون بالكنيسة، والكنيسة تعرف ذلك وتستغله لمصلحتها. كثير من القساوسة يعيشون حياتين متناقضتين؛ حياة

يعرفها عامة الناس خارج الكنيسة، ولكن هناك حياة أخرى عارمة تحت سراديب الكنيسة، تدور فيها القصص العجيبة والأحوال المريبة. كبارهم فسدوا ولكن رهبانهم هم من أصدق من رأيت لسانًا وأرق أفئدة. والملك لا يحبهم، بل إنه يتوق للتخلص منهم. ولكنه لا يستطيع؛ فالكنيسة سلطانها قوي وبأسها شديد. وهي تريد أن يكون الملك تابعًا لها بدلًا من أن تتبع هي الملك. أريدك حين تكون قريبًا من الملك أن تحميه من بطارقة الكنيسة؛ فالملك ما يزال شابًّا، ويحتاج لمن يرى بعينه ما يدور حوله. جدك «دَلمار» كان يدير المملكة من وراء ستار حين كان الملك صغير السن وتآمر الجميع عليه. وأنت ترى أنه قد عاد الآن ليكون ملكًا على سوياً مرة أخرى، ولكن هذا لا يعني أن المؤامرات قد انتهت أو أن الوزراء سيتوقفون عن إلقاء حبائل المكر والدسائس فكثير منهم قد فسد بدرجة لن يستطيع معها أن يعود إلى الحكمة والعقل وقد أعمتهم المطامع.

ومن يبيع الملك في سبيل مكاسبه الشخصية تتوقع منه أن يبيع كل شيء وكل أحد آخر في سبيل الذهب والمال والسلطة والجاه. أمك ستتولى الحرب على السحرة والساحرات، فهي كفيلة بهم وقادرة عليهم، ولكنني أريدك أن تقف بالمرصاد للوزراء والكنيسة دون أن يحسوا بذلك. أريدك أن تعتبر ما قلته لك من كلام اليوم قاعدة تنطلق منها نحو المستقبل. اعمل في صمت وافتح عينيك جيدًا. اشتر ولا تبع، واسمع ولا تتكلم. وضع نفسك مكان عدوك وانظر كيف يفكر واستبق الأحداث حتى لا تقع وأنت في غفلة عنها. إن سوبأ بل عَلَوَة كلها أمانة بين يديك يا ولدي. وهي أمانة كبيرة جدًّا، أكبر من سنك بكثير. ولكنك تراني وقد كبرت جدًّا وأنت لا تزال في بداية الشباب ومقتبل العمر، ولكنني لمست فيك النضج والمسئولية، وأنت سليل «أرياط» العظيم وحفيد جدك «دَلمار». ولا أحد لي غيرك، وستصبح قريبًا جدًّا من أكثر الناس قربًا للملك. فحافظ عليه

وإن اقتضى الأمر أن تفديه بنفسك وروحك فافعل، فالملك بذرة طيبة جدًّا، وأنا أرى أنه سيكون ملكًا عظيمًا يقود عَلَوَة إلى المجد والفخار. ضع نفسك مكان الملك دائمًا وفكر بعقله وافهم مقاصده ومراده وتصرف وفق ذلك.

حين عدت إلى البيت تلك الليلة، فكرت كثيرًا في كلام جدي، وتذكرت أنني قرأت في التوراة كثيرًا من النبوءات بقدوم المسيا وأن المسيح أخبر باقتراب قدومه وأخبرهم بأن جميع الأنبياء والناموس إلى يوحنا تنبئوا بقدومه وهو إيليا المزمع أن يأتي. وأن ملكوت السماوات يغصب والغاصبون يغتصبونه، وضحكت في سري حين تذكرت كلام جدي عن كثيرين ادعى كل واحد منهم أنه هو المسيا المنتظر وذكر بعض هؤلاء الغاصبين أمثال «باركوكوبياس» و«ثوداس» و «يهوذا الجليلي» و«مونتانوس» و«سيمون خادم هيرودوس» و«أترونجيس» و«دوستيوس».

يالكذب هؤلاء اليهود! لقد كان المسيح محقًّا حين أخبرهم أن ملكوت الله ينزع منهم ويعطى لأمة تعمل أثماره.

وحين تواردت في ذهني هذه الخواطر قفز في خاطري فجأة كلام «سِيمُونَةَ» الساحرة عن شيلون. ياللهول! ياترى، هل كانت «سِيمُونَة» الساحرة تتحدث عن شيلون الكتاب المقدس[27] الذي سيكون له خضوع شعوب؟ أترى هو نفسه نبي العرب الذي حدثني عنه «الزُّبَيْر»؟ وهل ستخضع له الشعوب فعلًا؟

رَحَلُوا شَرْقًا

تسعون يومًا مكثها العرب في سويأ. أذكر كل لحظة من لحظاتها. تسعون يومًا مرت كأنها طيف من الأحلام الجميلة في عالم خيالي مسحور. ما زلت أذكر أول يوم رأيتهم فيه وكأن الأيام نسيت أن تطوى صفحات ذلك اليوم وأحداثه فبقي حيًّا في ذاكرتي، عصيًّا على النسيان. ما زلت أذكر وجوههم المتعبة، وأعينهم الحزينة، وأجسادهم المنهكة، حين قدموا من الشرق وقت الضحى وأناخوا إبلهم البجاوية الهزيلة. لم تكن معهم أمتعة يومئذ ولا ثياب. ثلاثة أشهر أمضاها هؤلاء العرب معنا في سويأ، تجولوا في طرقاتها وأسواقها وعملوا بالتجارة وكسبوا قلوب الناس أكثر مما كسبوا من الأموال. الجميع أحبهم، وأهل سويأ كانوا يتعرفون إليهم ويتوددون لهم. أحسست كأنهم ولدوا في سويأ ونشئوا فيها. الناس بدءوا

يتعلمون لغتهم ويخاطبونهم بالعربية وهم تعلموا الحبشية وحدثوا الناس بها، وأصبحوا جزءًا من مجتمع سويأ الودود المتماسك.

ما زال صدى صوت ابن مسعود يتردد في أذني وهو يتلو ذلك الكلام العربي الجميل الذي يهتز له قلبك طربًا ويغوص في روحك. حين تسمع ابن مسعود للوهلة الأولى تظنه يغني ثم تدرك أنه لا يغني، وتظن أن عنده مزمارًا ينفث فيه، ولكنه في حقيقة الأمر لا يملك مزمارًا ولا يعرف العزف. ثم تقترب منه فينبئك صوته الحزين أنه يبكي، وتدرك في حقيقة الأمر أنه بالفعل يبكي.. وتنصت له فتجد أنك تبكي معه ولا تعلم ما الذي يبكيك. ولكنك تبكي وحسب. وحين تنتبه لنفسك فجأة في فزع وتظن أن سرك سيفتضح تجد أنك لست وحدك وأنهم جميعًا يبكون في صمت وهم يسمعون!

أذكر ذلك اليوم، حين جاء ذلك التاجر العربي ذو الملابس الزاهية الملونة، ووقف ناحية الباب

الشرقي وصاح مناديًا «ابن مظعون» أن مكة سجدت مع محمد ودخلت في دينه..

البشر الذي رأيته في وجوه العرب ذلك اليوم لم أره في وجه إنسان من قبل. كانت أعينهم تومض فرحًا وكان يعانق بعضهم بعضًا ويبكون. النساء العربيات بكين من الفرح وكانت أمي تبكي لبكائهن. عثمان بن عفان وضع جبهته على الأرض ساجدًا مدة طويلة دون أن يرفع رأسه أو يتكلم. ابن عوف خلع جبته اليمانية التي اشتراها من تاجر قَدِم من اليمن وأهداها للبشير الذي جاءهم بالخَبر. «الزُّبَيْر» كان واضعًا يديه فوق رأسه في دهشة وهو غير مصدق. مكة التي أذاقتهم العذاب واستكبرت أن تتبع محمداً، هاهي اليوم سجدت معه. كلهم سجدوا.

سرعان ما بدأ العرب في الاستعداد للرحيل كلهم دون تفكير، سرعان ما حزموا أمتعتهم، وكانوا يعملون في صمت. وكأن عودتهم

الفورية إلى مكة أمر محتوم ومتفق عليه.

تسعون يومًا كانت هي عودة الروح والأمل لقلبي. تسعون يومًا عرفت فيها معنى الصداقة، وفتحت عيني على أجمل المعاني التي كان الناس يحدثونني عنها ولا أراها في سوبأ، رأيتها حين صحبت «الزُّبَيْر» وجلست مع إخوته القادمين من الشرق. عرفت منهم الصدق في المشاعر، والعزم والمضاء والفتاء والحماس، عرفت معنى الذكاء والإيمان المتوقد والثبات على المبدأ.

سارت قافلة العرب مبتعدة، وانطفأت معها شعلة الفرح من عيني. ساروا في صمت، فلم يكونوا يريدون الذهاب، ولم نكن نحن نريدهم أن يذهبوا. «الزُّبَيْر» كان يلوح لي بيده حتى اختفت القافلة عن الأنظار. أذكر أنه بعد أن ابتعدت القافلة نزل من فوق جمله وأقبل يجري نحوي وعانقني، ثم أسرع ليلحق بالقافلة.

عدت إلى سوبأ، وإلى البيت والرتابة والملل.

ذهبت إلى الميدان الكبير وسط المدينة، محاولًا الخروج من هذه الدوامة وحاولت أن أجرب الرقص والمشاركة في الاحتفالات التي يقيمها شباب سويًا كل ليلة فأشغل نفسي بها عن ذكرى الزُّبَيْر، ولكن محاولاتي باءت بالفشل فلم أذق للرقصات طعمًا ولم أتجاوب مع الراقصين. كان صوت الطبول النحاسية الكبيرة داخل قلبي كأنه يأتي من عالم آخر وليس من عالمنا. نقلني عمق صوتها إلى صوت «الزُّبَيْر» العميق وغناء ابن مسعود. هؤلاء العرب أيقظوا في نفسي ماردًا ظمآنًا للمعرفة والإيمان العميق. لا أعرف عن دينهم شيئًا كثيرًا ولكنني أعرف أنهم يؤمنون به بصدق وعمق، وأن إيمانهم هذا مُعْدٍ سرعان ما ينتقل إليك فيتسلل إلى جوانب روحك ويمتلك ناصية قلبك تمامًا. كان «الزُّبَيْر» في أحلام اليقظة والنوم عندي. فقد كان صديقًا حقيقيًّا. وكان ذهابه بمثابة اغتيال بطيء للحياة في جسدي. أصبحت كثير النوم، بطيء الحركة،

متبلد المشاعر تجاه كل من حولي، وصرت لا أبالي. ولاحظت أمي هذا فجاءت إلى غرفتي وحكت لي أنها كانت كالميتة بعد رحيل أبي، ولكنها صارت إنسانًا آخر في وجود النساء العربيات عندها، فقد أحست خلال وجودهن بالحياة تملأ جوانحها وأن لها دورًا تؤديه، وأن كل يوم كان يشكل تحديًا كبيرًا لها فقد كانت تجهد نفسها من أجل إسعادهن. كل شيء قد ذهب مع آخر وقع أقدام أخفاف الإبل البجاوية التي رحلت بهن شرقًا. ثم قالت لي: «يا ولدي، الأيام ستتداول عليك بالأفراح والأحزان. عش أفراحها وأحزانها، ولكن إياك أن تقع فريسة لها. انهض وأدّ دورك فيها، وإياك أن تضعف، فهي لا تفترس إَلا الضعفاء. وإن كان الزُّبَيْر صديقك حقًّا فقلده في العزم والمضاء والإصرار». قالت هذا ثم تركتني وانصرفت.

كنت أعلم أنها كانت تواسي نفسها حين قالت هذا الكلام. جرحها كان أكبر من جرحي، ولكنها حين رأتني هكذا سرعان ما استدعت

قوتها لتمدني بها. الأمهات دائمًا هكذا، يعطين كل شيء ولا ينتظرن منك أي شيء بالمقابل. أمي كانت امرأة قوية، ورغم ذلك فقد عرفت مقدار حبها للنسوة العربيات حين انقلبت حياتها رأسًا على عقب.

فجأة استولى عليَّ شغف كبير أن أقرأ مذكرات الملك.لم أجلس مع أمي في ذلك اليوم، ودخلت مكتبي، وأغلقت الباب، وأشعلت المصباح الزيتي، وجئت بالصندوق الخشبي ففتحته وأخرجت مصحف المذكرات، وتأملته في يدي بضع لحظات، وكنت متهيبًا وخائفًا أن أقرأه، فقد آثرني الملك به من دون بقية الناس في عَلَوَة. رعشة وَجَل خفية اعترتني وأنا أوشك أن أطلع على أسرار المَلك، ولكنني سرعان ما تناسيتها وبدأت أقرأ مذكرات الملك النجاشي.

مُفَكِّرَةُ أَرْمَهَا

باسم الإله الواحد القدوس.

اسمي «أَرْمَهَا»، وعمري الآن ثماني سنوات. كان أبي الملك الأبجر يناديني «أَصْحَمَةَ»، بينما تدللني أمي الملكة باسم «أَرْمَهَا». ونشأت فعرفت هذين الاسمين وأصبح المقربون مني ينادونني «أَرْمَهَا» بينما اشتهر «أَصْحَمَة» فأصبح اسمًا شائعًا معروفًا. لقد تعلمت القراءة والكتابة بالحبشية، كما أنني أعرف بعض العربية. أهدت لي أمي هذا المصحف لأتمكن من كتابة وتدوين أفكاري فيه. قالت لي أمي: إنني سوف أحب هذا المصحف في يوم من الأيام، ومن يدري فقد أهديه لابني حين أتزوج وتنجب لي زوجتي، وهو سوف يقرؤه ليعرف الكثير عن والده. ومن الممكن أن يهديه لابنه أيضًا. أظن أنني شطحت بخيالي بعيدًا.

أذهب لكنيسة «مارية» كل يوم أحد. أنا لا أحب الذهاب للكنيسة. ولكن أبي يقول لي لابد أن أتعلم المسيحية جيداً؛ لأنني قريبًا سوف أصبح الملك، والملك لا بد أن يكون مسئولًا عن الكنيسة ليكون شعبه مؤمنًا. أكره كبير القساوسة لأنه متملق، ورائحته كريهة رغم أنه يضع عطورًا ليخفي هذه الرائحة. ولكنني أحب «أبونا يُوأنَّسْ» المسئول عن العبيد لأنه طيب القلب، ولأنه يحاورني بعقل متفتح ويتقبل أفكاري المجنونة بابتسامة حانية وصدر واسع. وأحب الأم «سيتا» المسئولة عن الجواري لأنها تحضنني وتقبلني كثيرًا وتعتني بي وتعطف عليَّ. وعلى كلٍ حال فالقسيس أفضل كثيرًا من «سِيمُونَةَ» الساحرة التي كانت تريدني أن أتعلم السحر عندها، وكانت تأتي إلى القصر ببناتها الساحرات يلعبن معي. أنا لا أحب البنات الساحرات فهن يقمن بأعمال شريرة. إحدى البنات الساحرات أمسكت كفي في يدها مرة ونظرت فيها ثم قالت:

– عجبًا عجبًا، أراك فجأة تسقط في قاع البئر ثم أراك فجأة تحلق في السماوات.

ولم أفهم حرفًا مما قالت. البنات ذهبن وأخبرن أمهن الساحرة «سِيمُونَةَ» بما قرأنه في يدي فأعطتهن قلادة وجئن بها فوضعنها في رقبتي وقلن إنها سوف تمنع عني الأرواح الشريرة وتحفظني. ولما رآهن القسيس يضعنها حول رقبتي غضب وقرأ من التوراة: «أما أنتم يا أبناء الساحرة، يا نسل الفاسق والعاهرة، فادنوا من هنا، بمن تسخرون؟ وعلى من تفغرون أشداقكم واسعة وتدلعون ألسنتكم. ألستم أنتم أبناء الخطاة والمنافقين؟»[28]. ونزع القلادة من رقبتي وألقى بها بعيداً. إحدى البنات الساحرات ذهبت والتقطت القلادة ولبستها حول عنقها وبعد أن انصرف الكاهن جاءت تمشي مثل قطتي الصغيرة «تُوتَا» التي في القصر حين تكمن وتترصد العصافير. همست في أذني:

– هل تريد أن تذهب معنا يومًا لنلعب ونلهو في حي «بَرَهُوْت» بجزيرة التمساح؟ سوف نعلمك أسرارًا وأشياء كثيرة ممتعة. لن تندم على ذهابك معنا. فكر. وإذا قررت الذهاب معنا الآن فلا مانع لدينا.

كانت تكبرني سنًّا، وكانت تمارس معي ألاعيب البنات كلها. الطريقة التي همست بها في أذني جعلتني ألعوبة بين يديها. نجحت في إغوائي وجعلتني أتخيل ما الذي يمكن أن يحدث في جزيرة التمساح وحي السحرة والمشعوذين. وفي أحد الأيام، أمرت خادمتي «أَبْريهيت» أن تعود إلى القصر لأنني عازم على البقاء في الكنيسة طول اليوم. قالت لي:

– لا بأس سوف أبقى معك.

– لا لا . أنا أريدك أن تعودي إلى القصر بدوني.

– حسنًا حسنًا يا سيدي. سرك محفوظ. ولن أخبر أحدًا.

قالت هذا وكانت تعبث بشعرها وهي تنظر مبتسمة في مكر إلى «ديمُونَة» الساحرة، ذات الخمسة عشر ربيعًا. أخَبرني «دَلمار» أن «ديمُونَة» من بنات اليهود، أرسلها أبوها «لبيد بنَ الأعصمِ» من جزيرة العرب لتتعلم السحر عند «سِيمُونَةَ». وحين سألت «دِيمُونَة» عن معنى اسمها قالت لي: «دِيمُونَة» يَعني «الجنوب» فقد ولدتني أمِي حين كانت هي وأبي في رحلة إلى أخوالي في اليمن جنوب جزيرة العرب.

بعد أن راقبت «أَبْرِيهِيت» وهي تغيب عن الأنظار عائدة إلى القصر انطلقنا أنا و«دِيمُونَة» إلى جزيرة التمساح. كانت تمسك بيدي طول الوقت وهي غير مصدقة أنني وافقت على الذهاب معها. حين وصلنا المعدية على شاطئ النيل أعطتني «ودعة» من أصداف البحر وطلبت مني أن أغلق يدي عليها ولا أفتحها أبدًا. ثم أعطتني شيئًا لأضعه في فمي بعد أن نفثت فيه نفثات من فمها. كان نوعًا من النبات لا

أعرفه. رائحته غريبة. قلت لها:

– ما هذا يا «دِيمُونَة»؟

– هذا مسحوق خلطة الخشخاش وشقائق النعمان وأعشاب أخرى. صنعته أمنا «سِيمُونَة». استنشقه بلطف ثم ضع البقية في فمك. الآن سيبدأ الاستمتاع.

بعد قليل بدأت أحس بخدر لذيذ. قربت «ديمُونَة» وجهها من وجهي. رأيت أنفها أكبر من القبة التي فوق كنيسة «ماريه» وكانت شفتاها أكبر من مؤخرة البغل! بدأت أضحك ملء فمي حين رأيت أن أحجام الأشياء ومقاساتها مختلفة. حين أردت أن أدخل المركب الراسية على الشاطئ رأيت أن قدمي أكبر من المركب. وسألت نفسي كيف تستطيع هذه المركب الصغيرة أن تحملني وهي لا تتسع لقدمي؟ ثم دخلنا المركب ولدهشتي اتسعت المركب لنا جميعًا.

عندما عبرنا النيل سمعت صوت «سِيمُونَةَ»

وهي تشتم وتسب «دِيمُونَة» وترفع صوتها:

– لماذا أحضرته إلى هنا أيتها الملعونة؟ الآن سوف تنقلب الدنيا كلها علينا. هيا أدخليه داخل الكوخ. «آهْتِي»، «أُجُوقًّا» «ولْهَانَا» تعالين داخل الكوخ بسرعة وساعدنهاَ على خلع ملابسه، وضعنها في مكان جاف، أو علقيها يا «وِلْهَانَا» فوق المبخرة.

كنت كالنائم بعين مفتوحة. وكنت أرى أشباحهن تتراقص وهن يحمن حولي وأعينهن البراقة تطالعني. وكنت أسمع كل شيء بوضوح ولكنني ما كنت أقدر على الكلام ولا المقاومة. كنت أحس بالأيدي تلمس وجهي وصدري. أحسست بأيد كثيرة تدلك جسمي بزيت أو دهن ذي رائحة غريًبة. وبيد تمسك ما بين فخذي، وتعبث بينهما، وأحسست بشيء يشبه التبول، ولكنني لم أكن أتبول. كانت «سِيمُونَة» تدخل شيئًا داخل مبالي وتنفخ فيه ثم تصب فيه ومن فوقه سائلًا، وتربط الكرتين من تحت بخيط أو

سير جلدي.

- هذا الصبي صغير السن، لا أقدر أن أفعل أكثر من هذا وإلا تضخمت مثانته وانكشف أمرنا. على الأقل ضمنت ولاءه لنا مادام أثر هذا الشيء داخله. قريبًا سوف يكتشفون الرباط ويزيلونه. ألبسيه ثيابه وأيقظيه. وأضيفي للبخور قليلًا من السندروس والمسك الخام.

بدأت أشم رائحة بخور نفاذة في أنفي تشبه رائحة الحرمل المحترق، فأفقت على الفور وفتحت عيني. كانت «دِيمُونَة» تنظر في وجهي بإشفاق، وحين فتحت عيني قالت:

- «أَرْمَهَا» أنت نمت؟ نحن لم نجئ للنوم، استيقظ ودعنا نأكل شيئًا. ثم نبدأ بتعليمك بعض الأسرار. توقعت أننا سنقضي معًا وقتًا ممتعًا، ولكن رأيت أنك كنت نعسانًا ونحن في المركب فدلكت جسمك بزيت السمسم حتى ترتاح قليلًا.

كنت مشغولًا بنفسي فلم أرد على كلامها.

أحسست بمكان التبول صار قويًّا ومتحجرًا رغم إرادتي وأحسست برباط يشده من تحت، فصرت أحك نفسي، وأحاول إخفاء هذا الشيء الذي استيقظ فجأة. وحين رأت «دِيمُونَة» أنني أحك المنطقة لمعت عيناها ونظرتَ نحوي نظرة غريبة ثم غالبتها وقالت وهي تنظر إلى باب الكوخ:

– «أَرْمَهَا» توقف عن هذا الهرش!! أمي «سِيمُونَةَ» وضعت لك «عِرْق» الرجولة. سوف تحس بتنميل قليل وتوتر وسرعان ما يزول. وسوف تحس بالحاجة للتبول بعد قليل ويعود كل شيء لحالته التي كان عليها. أنت توشك أن تصبح رجلًا. وحين تكبر وتتزوج سوف تستمتع كثيرًا. سوف تكون رجولتك مختلفة عن بقية الرجال. أنت تفهمني بالطبع. ولكن امتنع الآن عن هذا الهرش!! أبعد يدك.

كنت أعرف أنها تكذب ولكنني لم أجبها واستدرت للجانب الآخر وفتحت سروالي

بسرعة ونظرت فرأيت منظرًا كنت أراه أو أحس به حين أستيقظ من النوم صباحًا، ورأيت ما تحته مربوطتين بخيط!

– «أَرْمَهَا»، لا تقطع هذا الخيط. اتركه دائمًا هناك وهو سوف يسقط من تلقاء نفسه بعد فترة.

حين أدركت ما يفعلنه بي امتلأ قلبي رعبًا وتوتر شَعْرُ رأسي. هؤلاء البنات الساحرات نفثن سحرًا في مبالي وكنت قد علمت من بعض أصدقائي أن هذا النوع من السحر يسمى «سحر السيطرة» تتمكن الساحرة بواسطته من السيطرة الكاملة على أي شخص وتوجيهه لفعل أي شيء تريده فلا يمتنع أبدًا مهما كانت النتائج. عرفت أنني في المكان الخطأ فقلت دون تفكير:

– أريد أن أعود إلى سويأ الآن.

– بالطبع بالطبع يا «أَرْمَهَا» أعيديه الآن فورًا يا «دِيمُونَة».

كانت «سِيمُونَة» هي المتحدثة. ولاذت البنات

بالصمت بينما امتعضت «ديمُونَة» وأظهرت عدم الرضا فهي لم تكن تريدِ أن تعيدني هكذا وبسرعة. وطوال الطريق كانت تضع ذراعها حول رقبتي تعبيرًا عن الصداقة. وحين وصلنا سحبت رقبتي من ذراعها وأسرعت الخطى دون أن أودعها أو أنظر ناحيتها. لم أسمعها تتكلم وكان واضحًا أن الدهشة قد عقدت لسانها من تصرفي القوي وموقفي الحازم الذي ظهر فجأة تجاهها.

حين وصلنا للكنيسة دخلت أحد المراحيض المخصصة للعامة، وهناك قطعت الخيط المربوط حول رجولتي وتبولت كما لم أتبول من قبل في حياتي. أحسست بعده كأنني عائد من عالم آخر، عالم غريب.. تذكرت حادثة القلادة وكلام الكاهن. رأيت الأب «يُوأَنَّسْ» فأخبرته بما حدث لي. وعلى الفور قال لي:

– أين الخيط؟ هات الخيط فورًا.

– نزعته وألقيته في حفرة المرحاض يا

«أبونا».

– يا للأسف !! ليتك احتفظت به. ولكن لا تخش شيئًا، وعليك أن تعدني بقطع صلتك بهؤلاء البنات الشريرات. وأنا سوف أخبر الكاهن الأكبر ليمنعهن من الاقتراب من الكنيسة مرة أخرى. أنا أعجب من رئيس الكهنة، كيف يسمح لساحرة شريرة مثل سِيمُونَةَ بدخول الكنيسة، بل ولها غرفة خاصة في سرداب الكنيسة تدخلها متى شاءت!

أمس زرنا بيت عمي «نِيَّار» وأخذت أمي هدايا كثيرة لزوجة عمي وأولاده. عمي «نِيَّار» عنده اثنا عشر ابنًا. معظمهم أكبر مني في السن. أبي يحب عمي جدًّا، وسمعته يقول لأمي إن «نِيَّار» هو أفضل إنسان في الوجود، فهو نظيف من الداخل، وطيب القلب ولكنه ساذج، يستطيع أي إنسان أن يلعب بعقله ومشاعره. وإنني أخشى عليه من الأشرار.

كان أبي حكيمًا جدًّا وكان رأيه في عمي

«نِيَّار» صائبًا.

اليوم أرسلوني للكنيسة! الراهبات رحبن بي واحتضنني وقبلنني قبلات كثيرة. أنا أستحي من التقبيل خاصة أن إحداهن قبلتني من فمي قبلة سريعة. الأخرى لاحظت هذا فقالت لها إن التقبيل من الفم خطيئة، قبليه من خده فقط. فأجابتها الأخرى بأن هذه قبلة مقدسة وأن هذا الذي نقبله هو سيدنا «أَصْحَمَة» الذي سيصير في يوم من الأيام راعيًا للشعب والكنيسة. كان «أبونا يُوأَنَّسْ» قد أخبرني عن القبلة المقدسة من قبل وقال لي: معناها المصافحة بالأيدي وتكون بين الشمامسة. راهبة ثالثة حين سمعت الكلام عن القبلة المقدسة أسرعت فقبلتني من فمي هي أيضًا. أحسست أن قبلة الراهبة لم تكن قبلة عادية فقد ألصقت شفتيها بشفتي بقوة وبقيت هكذا فترة حتى انقلبت معدتي وكدت ألقي ما في جوفي.

في الكنيسة مسموح لي بأن أدخل كل

صومعة من صوامع الرهبان. الكنيسة بها مخازن كثيرة للحبوب والغلال والطعام، وبها مطبخ وقاعة طعام وغرف واسعة. معظم القساوسة والكهنة لهم زوجات. أما الرهبان فغير متزوجين. والكنيسة بها سراديب تحت الأرض وغرف وأماكن غير مسموح لأحد بدخولها. وقد رأيتها بأبوابها القوية وأقفالها الكبيرة. وبالطبع لم يقل لي أحد لا تدخل فأنا ابن الملك النجاشي، ولكنني فهمت من كلامهم أن هناك غرفًا لا يجوز دخولها إلا بإذن من الكاهن الأكبر خاصة غرفة الساحرة «سِيمُونَة» التي يحظر الاقتراب منها، وخاصة حين تأتي «سِيمُونَةَ» متخفية وتدخل إليها سرًّا كل أسبوع.. بالكنيسة كثير من الراهبات، بعضهن في مقتبل العمر وكثير منهن كبيرات في السن. الكنيسة مستودع للذهب. الذهب موجود في كل مكان. وأتوقع أن الغرف المغلقة داخل السراديب مليئة بالذهب أيضًا.

كنت أمطر الكاهن بوابل من الأسئلة عن

المسيح والكنيسة. فكان يجيب عن البعض القليل منها بينما يكتفي بالابتسامة أحيانًا، وحين كنت أحس أن أسئلتي للكاهن محرجة أتوجه لـلأب «يُوأَنَّسْ» المسئول عن الصبيان وأسأله فكان يجيبني بلطف عن بعض الأسئلة، ويحيلني للكاهن في الكثير منها. وهكذا أدركت أن هناك أسئلة لا تحب الكنيسة الخوض فيها وأن هناك أسئلة أخرى لا تريد أن تجيب عنها مباشرة وإنما تكتفي بضرب الأمثال مثل الطبيعة والمشيئة ودور كل أقنوم من أقانيم الثالوث المقدس. في مرة من المرات علق الكاهن على أسئلتي فقال:

– عقلك يسبق عمرك كثيرًا يا «أَصْحَمَة» فإما أن أحدهم يقوم بتلقينك هذه الأسئلة لإحراج الكنيسةوإمَّا أنك شديد الذكاء جدًّا. لقد سألت أسئلة لم يقم أحد قطُّ بالتفكير فيها.

أمي كانت منزعجة جدًّا أمس. جاءت الساحرة «سِيمُونَة»، وكانت تتحدث مع أمي

بصوت خفيض. وحين خرجت جاءت أمي وضمتني إلى صدرها بقوة. سألتها: ما لك يا أمي؟ أخبرتني بقصة الساحرة «سِيمُونَةَ» وأنها أخبرت أمي بأن عمر أبي في الملك قصير، ولكنها أخبرتها أن الملك ممتد عندها وعند ابنها وأن من يحاول أن ينتزع الملك منهم تمتد يد النار من السماء فتنتزعه وتأكله. قلت لها: هل تصدقين نبوءات السحرة يا أمي؟ لقد أخبرني الكاهن ألا أصدقهم فهم كذبة ومشعوذون. قالت أمي: هذه الساحرة «سِيمُونَة» عندها خدم من الجن يخطفون لها الأخبار.. وقالت إن الخبر الذي جاءت به فريد، وذلك لأن كثيرًا من الجن الذين كانوا يصعدون إلى السماء للاستماع وتلقي الأخبار أصبحوا في هذه الأيام يقعون ضحايا الشهب الساقطة من السماء. الناس في سوبأ مسيحيون ولكنهم يصدقون السحرة ويخافون منهم. والسحرة يستطيعون أن يسببوا أذى كبيرًا للناس إذا أغضبوهم. سمعت أن أبي أمر بالقبض على بعض السحرة وإحراقهم

بإيعاز من الكنيسة ما عدا «سِيمُونَةَ» فإنه لم يأمر بالقبض عليها. «سِيمُونَة» الساحرة تخاف من أبي جدًّا ولهذا فهي تقابل أمي سرًّا. لاحظت أن أمي تخاف من «سِيمُونَةَ» ولهذا فهي تقابلها كلما طلبت «سِيمُونَة» الدخول إلى القصر. تستطيع الساحرة «سِيمُونَة» أن تدخل أي مكان في سويأ.

اليوم بلغت التاسعة من العمر وأكملت دروس الفروسية والنشاب. وأقامت لي أمي حفلًا كبيرًا في الساحة العامة للمدينة. وقمت برمي النشاب وأصبت جميع الأهداف. ومع أن أهل عَلَوَة مشهورون بدقة إصابة الأهداف إلا أن الجمع كانوا يعجبون من دقة إصابتي للأهداف ويهتفون بحياتي. الحفل لم يدم طويلًا؛ فقد جاء كبير الحراس وهمس لأمي ببعض كلمات فقامت ورجعنا إلى قصر الملك وانتهى الحفل. في الطريق سألت أمي لماذا انتهى الحفل فجأة يا أمي؟ فقالت إن أباك أرسل يستدعينا لأمر هام.

عدت لكتابة المذكرات بعد انقطاع دامٍ مدة طويلة، حدثت خلالها أحداث جسام، فقد اغتيل أبي الملك «الأبجر» وكنت مختفيًا مع أمي في بيت «تونيا» خالتي، وتولى عمي «نِيَّار» الملك، وانتقلنا للعيش مع عمي في قصر الحكم بعد أن عشنا مدة في بيت خالتي. لاحظت أن عمي الملك «نِيَّار» يحبني كثيرًا ولكنه كان يحب الجلوس وحده معظم الوقت. ولا يسمح لأحد بالاقتراب منه. أصبح «دَلمار» العجوز الذي كان ترجمان أبي هو صديقي المقرب فقد صرنا نجلس معاً ونتحدث فترات طويلة، وأحسست أنه يقوم مقام والدي الملك «الأبجر» فهو أشد حنوًّا من عمي الملك «نِيَّار» نفسه. كما تعلمت منه كثيرًا من الأمور عن الكنيسة فهو قارئ جيد للإنجيل. نشأت بيني وبين «دَلمار» صداقة من نوع غريب. كنا نجلس معظم النهار نقرأ الكتب، ويعلمني اللغات، ويحكي لي عن أسفاره. عرفت منه عن عَلَوَة وأجناسها ما لم أتعلمه في حياتي كلها

من أي إنسان آخر.

خرجت اليوم في الصباح الباكر إلى السوق خارج أسوار سوياً مع خادمتي «أَبْريهيت». وتسللنا خلسة دون أن نصحب معناَ أَيًّا من الحراس فقد قالت «أَبْرِيهيت»: إنه لا فائدة من اصطحاب الحراس لأنهم يضايقوننا جدًّا فهم يتبرعون باختيار الطرق التي يجب أن نسير عبرها. يفعلون ذلك بالنيابة عنا وذلك يضايقنا ولكننا لا نستطيع أن نمتنع. كما أنهم يمنعوننا من الذهاب إلى بعض الأماكن في السوق، خاصة سوق العبيد، ويفسدون علينا نزهتنا. وكانت تحمل سلة فيها بعض أشيائي، وتجولنا في سوق الذهب، ولاحظت أنها مضطربة قليلًا فقد كانت تمسك بيدي طول الطريق وكأنها تخشى أن أهرب منها وأحيانًا كانت تنظر يمينًا وشمالًا وكأنها تبحث عن أحدهم! وفجأة قالت لي:

– سيدي «أَرْمَهَا»، ما رأيك أن نقف قليلًا عند

سوق العبيد؟ صديقتي «مارية» منذ عهد الطفولة والتي كانت خادمة في بيت قائد الجيش قرروا بيعها في السوق. أريد أن أودعها الوداع الأخير فلا أدري إلى أين سيذهبون بها بعد بيعها ومن سيكون السيد الجديد!

قالت هذا وتشاغلت بإصلاح ثوبها ولم تنظر ناحيتي.

– ولكنني لا أحب أن أذهب إلى سوق العبيد فهو مكان مخيف. أنا أكره هذا المكان.

– أنا أيضًا لا أحبه ولكنني أحب صديقتي كثيرًا. أرجوك يا سيدي! لن نبقى هناك طويلًا.

قالت هذا وأمسكت يدى بكلتا يديها ونظرت في عينى وابتسمت ابتسامة جوفاء.

وتحت إلحاحها رضخت ووافقت على الذهاب معها إلى هناك. السوق مزدحمة جدًّا بالمتجولين والفضوليين أمام منصات العبيد ذوي الشعور المحلوقة والأجساد المدهونة البراقة، والجواري المعروضات للبيع وهن

يحاولن ستر صدورهن العارية بشعر رءوسهن وقد وضعن أيديهن بين أرجلهن معظم الوقت. والبعض منهن لا يملكن إلا شعرًا جعدًا مضفورًا قد تعبت فيه الماشطة جدًّا فتركته وهو لا يصل إلى الصدور بل لا يكاد يصل إلى الأعناق. أصوات النداءات ترتفع هنا وهناك وجلبة الباعة والمساومين. السوق بها عدد كبير من التجار الأجانب لا سيما العرب بوجوههم المشرقة وشعرهم الأسود الطويل المسدل على أكتافهم. كثر الصخب والتزاحم حول جارية جميلة صغيرة السن معروضة للبيع، وفجأة تحولت المساومة إلى شجار بين اثنين من العرب واضطر البائع إلى إعادة الجارية إلى العربة المجاورة للمنصة حسمًا للخلاف أو خوفًا على بضاعته المعروضة. وبينما كنت أراقب عملية بيع أخرى لأحد الصبيان وأمه، كانت يد «أَبْرِيهيت» ترتخي حول معصمي قليلًا ثم لم أعد أحس بها. وراقبت الصبي وهو يساق بعيدًا عن أمه ونظراته الخائفة وهم يسحبونه

بعيدًا، ودموع أمه المنسابة على خدها، ونظرة اليأس المرتسمة على وجهها.. كان «دَلمار» قد أخبرني أنه لا يجوز في قانون بيع العبيد التفريق بين الصبي وأمه. وهؤلاء الباعة يفعلون الآن شيئًا رهيبًا. نقل هذا المنظر الحزن فجأة إلى روحي التي امتلأت بؤسًا بهذا الموقف، وفي ردة فعل لا شعورية رحت أبحث عن يد «أَبْرِيهيت» لأتمسك بها ولكن أَبْرِيهيت لم تكن هناكَ! أَحسست فجأة بالذعر يدبَ في قلبي وكأنني غريق قذف به الموج إلى جزيرة نائية في البحر ليس بها إلا الوحوش والشياطين، فقد أحسست فجأة أنني وحيد وسط هذا الخضم. تركت المنصة وراء ظهري واستدرت حتى أجري بعيدًا بكل ما أوتيت من قوة، ولكن كانت هناك يد قوية تمسك بي وتشدني!! لم تكن هي يد «أَبْرِيهِيت» فأَبْرِيهِيت ليست بهذه القوة. ولدهشَتي كانتَ هَي يد امرأة أخرى تمسك بساعدي! وحين استدرت ناحيتها لم تنظر في عيني قطُّ. لم أحاول أن أفلت ساعدي من يدها

لأنني ظننت أنها من خدم القصر. قلت لها بأسلوب حاد:

- أين ذهبت «أَبْرِيهِيت»؟

قالت وهى تنظر بعيدًا:

- ذهبت لترى صديقتها وقد طلبت مني أن أعتني بك. تعال معي!!

قالتها في لهجة حاسمة صارمة رغم أنها أبقت صوتها هادئًا.. ولم تنتظر مني جوابًا فسحبتني معها صوب إحدى عربات العبيد بعيدًا عن المنصة. وظننت أن تلك العربة هي التي بها صديقة «أَبْرِيهِيت» وظننت أني سألقى «أَبْرِيهِيت» هناك فمضينا نحو العربة صامتين وكنت أنوي في نفسي أن ألومها على تخليها عني وتركي وحدي في سوق العبيد. لاحظت أن هناك عيونًا تنظر صوبنا وتراقبنا وحين كنت أنظر نحوها كانت تتشاغل في اضطراب بالنظر إلى الجواري المعروضات. وحين وصلت إلى العربة ونظرت داخلها لم تكن «أَبْرِيهِيت» بها،

والتفت ورائي فرأيت «أَبْرِيهِيت» تقف بعيدًا وتراقب! كانت نظراتها صوبي ممزوجة بالخوف أو الإشفاق! أحسست أن في الأمر شيئًا مريبًا لا أعرفه. أردت أن أصيح بأعلى صوتي فأناديها.

وقبل أن أفتح فمي امتدت يد من العربة وسحبتني بسرعة إلى الداخل فارتطم وجهي على أرضها الخشبية بقوة، وأحسست بمؤخرة أحدهم تجلس على ظهري وتسحقني وتمنعني من الحركة ويد ضخمة توضع على فمي لتكبت صرختي. الصدمة والمفاجأة منعتاني من المقاومة والصراخ. ولما استجمعت جأشي وحاولت أن أعض تلك اليد التي قبضت على فمي كان آخر ما رأيته رجلًا أسود ضخم الجسم مفتول العضلات أحمر العينين عابس الوجه جاثيًا على ركبتيه وقد رفع عصا قصيرة غليظة عاليًا في الهواء حتى وصلت لسقف العربة، ثم انهال بها على رأسي من جهة القفا!

أيقظتني حركة رتيبة متكررة تشبه وقع حوافر الخيل أو الحمير واهتزازات العربة وهي تسير في طريق غير معبد وترتطم بالحجارة والصخور. حين أفقت أحسست بألم قوي في رأسي وصداع وأنني أعاني من دوار. كانت عيناي معصوبتين وركبتاي بين ساعديَّ ويداي مربوطتين إلى رجليَّ بحبل من الليف القوي ملتفّ حول عنقي فصرت كأنني كرة من اللحم. وكانت هناك أصوات خافتة حولي وهمهمات. وشيئًا فشيئًا بدأت أدرك أن جسدي كله يؤلمني. أحسست بلحمي العاري على الأرض الخشبية للعربة تلعب به وتقذفه يمينًا ويسارًا كلما مالت العربة، صعودًا ونزولًا، وأحيانًا يرتطم بأجساد أخرى حولي. أدركت أنني في عربة نساء، فقد كنت أسمع أصوات البكاء المكتوم والأنين الصادر من حلوقهن، وأشم رائحة العرق الأنثوي المخلوط ببقايا العطور الرخيصة. وكان هناك جسد عارٍ لامرأة ضخمة بالقرب مني يتلقاني كلما طار جسمي في الهواء

من اهتزازة قوية لصندوق العربة فأجدني أهبط على جسدها فيخفف وقع الصدمة على الأرض الخشبية الصلبة. وكانت المرأة تشتم في حنق، وكان شتمها يعقبه دومًا صوت امرأة أخرى ترد على الشتم بكلام بذيء وفرقعة سوط «العَنَج»[29] في الهواء وصوت نزوله على أحد الأجسام، ثم صيحة ألم مفزعة، ثم صمت طويل لا يقطعه إلا وقع حوافر الخيل وصرير الخشب وأنين النساء. كنت أسمع أصوات العجلات الخشبية لعربة أخرى عن يمين عربتنا أو يسارها، وزفرات الخيل ولهاثها، ووقع أقدامها على الأرض العارية، وأشم رائحة الغبار يحملها الهواء وقَدَّرْتُ أننا في فترة ما بعد الظهيرة أو قبيل الغروب، فلا بد أنني فقدت الوعي ساعات طويلة. وحين حاولت الحركة تفجر الألم في كل عضلة من جسمي فأطلقت صرخة ألم مكتوم. سمعت صوت المرأة وهي تنادي قائد المركبة:

– أفاق! أفاق الغلام من غشيته يا «ميمون»!

- حقًّا؟

- نعم سمعت صوته!

- على كلّ، لقد وصلنا محطة التبادل. قريبًا ستتخلصين منه ومن كل هؤلاء العبيد الملاعين حين يصل «قَبَرْدِيتْ». وحينها تكون مهمتي قد انتهت.

وبعد برهة توقفت العربة، وسمعت وقع أقدام تقترب ثم أحسست بيد قوية تحملني خارجًا. وغمر الضوء عيني بشدة حين حلوا العصابة المربوطة حولهما.

حين فتحت عيني وجدت نفسي ملقى على الأرض وأنا عارٍ تمامًا ورائحة البول تفوح من جسدي كله، ولم أدرِ هل كان هذا البول مني حين أغمي عليَّ أم أنه من النساء اللاتي كن حولي في العربة، فقد كانت أرضية العربة الخشبية مبتلة كلها وتفوح منها الروائح. نظرت إلى أعلى فرأيت «ميمون» بجسده الضخم وعضلاته المفتولة وقد وضع يده اليمنى على

جبينه ليحجب ضوء الشمس عن عينيه، وهو ينظر إلى الأفق البعيد كأنه ينتظر قدوم عربة أخرى. كنا في مكان قفر في الخلاء ولعله مكان تتزود منه القوافل بالماء؛ فقد كان هناك بئر وحبال ودلاء.

كانت هناك عربتان أخريان غير عربتنا، وكانت واحدة منهما بها أكثر من عشرة صبيان مجردين من الثياب تمامًا، ومعظمهم غير مختون فتأكدت أنهم ليسوا من عَلَوَة. وكان معهم حارس قوي يحمل سوط «عنج» طويلًا في يده اليمنى، وقوسًا وكنانة مليئة بالأسهم خلف ظهره ناحية كتفه اليسرى. بينما كانت العربة الأخرى محملة بأكياس الذرة وبعض الطعام، والحشيش للخيل. وكانت عربتنا بها امرأتان في منتصف الثلاثين، وخمس صبايا في مقتبل العمر، وكانت جميع النساء عاريات تمامًا. وكانت الحارسة طويلة القامة ضخمة الثديين، جعدة الشعر وتحمل سوطًا طويلًا في يدها.

ظللت ملقى على الأرض بينما بقيت النساء داخل العربة، ولم تستجب الحارسة لتوسلاتهن وهن يطلبن السماح بالنزول لقضاء الحاجة واضطر بعضهن للتبول داخل العربة وكانت الحارسة تقف أمام باب العربة الجانبي. رائحة البول من النساء البائسات في العربة وتدفقه من شقوق الخشب أسفل العربة حرك فيها نداء الطبيعة فتوارت خلف العربة وجلست تقضي حاجتها. وحين كانت تظن أنها قد توارت عن أعين الآخرين كانت في الحقيقة قد جلست مقابل وجهي الملتصق بالأرض تمامًا فلم أملك إلا أن أرى منظرًا قبيحًا بشعًا من جسمها مكشوفًا في العراء وهو يقوم بوظيفته الطبيعية. وعبثًا، حاولت أن أدير وجهي فلم أقدر فقد كنت على الأرض ووثاقي مشدود، فأغمضت عيني بسرعة لتفادي النظر، ولكن المنظر بقي في مخيلتي إلى الأبد. قامت الحارسة بعد أن قضت حاجتها وجاءت تسير في كبرياء رافعة رأسها وهي تلوح بسوطها المصنوع من جلد

فرس النهر.

المكان موحش قفر، والصمت يسود المكان ولا تقطعه إلا أصوات الضباع ساعة المغيب وبعض النسور تحلق فوق رءوسنا.

تذكرت أمي، وحزنت من أجلها كثيرًا.. يبدو أن المصائب تتوالى عليها فلم يطل فقدها أبي الملك «الأبجر» كثيرًا حتى افتقدتني. أحسست بالذنب يأكلني أكلًا فبدأت أبكي في صمت. كان بكائي حزنًا على أمي وليس خوفًا من مستقبلي المجهول. وحين استجمعت جأشي أخيرًا حاولت أن أتكلم مع هؤلاء الخاطفين وأبيّن لهم أنهم ارتكبوا خطأً كبيرًا في حقي فأنا «أَصْحَمَة» ابن الملك «الأبجر» نجاشي سويأ وملكها الأسبق وابن أخ الملك «نِيَّار» الحالي. وكان من حقهم أن يسجدوا لي بدلًا من اختطافي مع العبيد ومعاملتي بهذه الوحشية. كيف يجرءون؟ ناديت في صوت متقطع حاولت أن أبقيه هادئًا ولكن خوفي كان

يفضحني:

- أنت يااال «ميمون».. هل تعرف من أنا؟

- اخرس أيها القرد العاري قبل أن أدخل سوطي هذا في مؤخرتك.

- أنت ترتكب خطأ كبيرًا فأنا «أرمهـ...»

- أغلق فمك القذر أيها العبد القزم القميء قبل أن أبول لك فيه.

قال هذا وهو يسرع ناحيتي لينقض عليَّ بسوطه ولكن المرأة كانت أسرع منه وصولًا فأحسست بلسعة سوطها مثل الجمرة تلهب ظهري العاري. ولما وصل «ميمون» بعدها ألقى بالسوط من يده ونفذ وعيده فأخرج مباله وتبول فوق رأسي وعلى فمي مباشرة. بلغ بي الحنق والغيظ حدًّا منعني من الكلام فبقيت صامتًا أسمع ضحكات الحارسة على الحادثة، وتعليقات «ميمون» الساخرة. هؤلاء الناس لا يشبهون الإنسان في شيء!!

عند المغيب وصلت عربتان إحداهما ضخمة ولكنها فارغة تمامًا والأخرى ترجل منها عدد من الرجال الأشداء يتقدمهم رجل طويل قوي البنية يلبس حلقة كبيرة في أذنه اليمنى ويبدو أنه رئيسهم وكانوا ينادونه «سِرْنُوبْ»، سار في شموخ وتعالٍ تجاه عربة الصبيان، وقد أمسك يده اليسرى بيده اليمنى خلف ظهره وهو يتفرس فيهم واحدًا تلو الآخر، وكان حارس العربة يتبعه في صمت، وكانت أعين الصبيان تنظر نحو الأرض ورءوسهم مطرقة. أشار «سِرْنُوبْ» بيده إلى الحارس القوي الذي سرعان ما جاء بقيود حديدية وسلاسل من العربة واستبدل بالقيود المصنوعة من الليف سلسلة واحدة طويلة تتنقل بين الأطواق الملتفة حول أعناق الصبيان وتنظمهم جميعهم كخرزات قلادة بشرية عملاقة. وكان لكل صبي سلسلة أخرى تتدلى من الطوق الذي حول عنقه إلى الأغلال التي على يديه فتجمعهما معًا ثم تنساب للأسفل حتى تربط الأغلال التي حول

قدميه، وبذلك فإن الصبي الواحد حتى لو انفصل عن سلسلة رفاقه فإنه يظل مقيدًا لا يستطيع الحركة إلا بمساعدة الحارس.

بعد أن انتهى الحارس من جمعهم بتلك السلسلة قام بإصعادهم واحدًا تلو الآخر إلى عربة أخرى كانت تنتظر بالمحطة حتى عبأها بهم جميعًا داخلها، ثم أغلق الباب. وانطلقت العربة نحو الشرق.

وبعد برهة وصلت عربة أخرى صغيرة يجرها فرسان أسودان، وترجل منها رجل ضخم يلبس جبة كبيرة بيضاء وفهمت من سمته أنه التاجر «قَبَرْديتْ» الذي كانوا ينتظرونه. واستقبله «سِرْنُوبْ» ثم اصطحبه إلى عربة النساء اللاتي لم يتم إنزالهن منها أصلًا وكنت أنا الوحيد الذي على الأرض. حين وصل «قَبَرْديتْ» قرب العربة نظر إليَّ غير مكترث، ثم التفتَ ناحية وقال بعد برهة يسأل «سِرْنُوبْ»:

– كم طلبوا ثمنًا له؟

- ستمائة يا سيدي.

- ما اسمك أيها الغلام؟

- «الأمير أَصْحَمَة بن النجاشي الأبجر ملك مملكة عَلَوَة.. لقد أخط...».

قاطعني سِرْنُوبْ بضحكة رنانة مجلجلة:

اسمك «أَسْحَمْ» أيها العبد المجنون. هل نسيت اسمك بين عشية وضحاها؟ آه لقد نسيت فقد أوصى بك سيدك السابق وقال إنك مصاب بجنون العظمة أو داء التوهم. توهم ما شئت أيها العبد البائس الحقير ذو الرائحة النتنة!!

قال هذا ثم التفت مناديًا:

- يا «تِمَايَا»!

- أمرك يا سيدي.

- انتبه لهذا العبد المعتوه، فأنتم ما زلتم في أول الطريق، ولو فتح فمه أو عاد يهذي بهذا الكلام فعليك أن تتخلص منه فورًا وتلقي به لهذه الضباع الصائحة من حولنا. وأعدك أنك

سوف تسترد ثمنه كاملًا مني شخصيًّا.

حين سمعت اسم «تِمَايَا» اقشعر كل موضع في جسمي ووقف شعر رأسي هلعًا ورعبًا وخوفًا، فقد سمعت أن «تِمَايَا» هو أحد أعوان «ساري الليل» وقد كان «تِمَايَا» ماردًا ضخمًا مفتول العضلات.

ولم ينتظر «تِمَايَا» مزيدًا من الأمر فانقض على عنقي بيده الضخمة الخشنة وأصابعه القوية يخنقني حتى أزبد فمي وظننت أنني في عداد الأموات. ثم أرخى يده من حول عنقي قليلًا وقرب عينيه من وجهي حتى كاد رمش عينه يلمس رمش عيني، وكدت أغيب عن وعيي من قوة رائحة الخمر المنبعثة منه والممزوجة برائحة فمه النتنة.

– ما اسمك الآن؟

قال السؤال بصوت خفيض متحشرج غاضب وقد جحظت عيناه وكأن الشرر سيتطاير منهما، وكان يوحي بأنه سوف يعاود

خنقي هذه المرة حتى الموت. قلت في خوف واستسلام:

– «أَسْسْسْ» «أَسْحَمْ» !!

– أَسْحَمْ ماذا؟

– «أَسْحَمْ» يا سيدي.

– نعم هكذا.. جيد الآن!!

انتصب «تِمَايَا» واقفًا، وتنفس ملء رئتيه نشوة الانتصار، بينما ذقت غصة الذل مرة مثل طعم الحنظل في حلقي لأول مرة في حياتي.. وأحسست ببؤس من حولي من الصبيان المساكين والنساء اللاتي كن يبكين في العربة ويستغثن، ثم لا يجدن إلا السوط يلهب ظهورهن وأقبح الشتم البذيء يشنف آذانهن!

كنت أنظر بعيني رأسي إلى «قَبَرْدِيتْ» التاجر وهو يضع ستمائة درهم في يد «سِرْنُوبْ» ثمنًا لي. لم أصدق أنني سأشاهد مثل هذا اليوم. ابن ملك عِلَوَة يباع بستمائة درهم ويؤخذ عبدًا

والسلاسل في عنقه ويديه ورجليه، والسوط يلهب ظهره وحارس مجهول يركب على ظهره ويخنقه ويبول على وجهه وفي فمه. وحتى اسمي تغير فقد أصبح لي اسم جديد: «أَسْحَمْ»!! من يصدق هذا؟

أعادوني مرة أخرى داخل عربة النساء، بعد أن استبدلوا بأصفادي وقيودي سلاسل حديدية. لاحظت أن «ميمون» لم يعد يقود عربتنا، كما اختفت المرأة الحارسة التي كانت معنا في العربة فعلمت أن مهمتهما قد انتهت بعد أن قاما بالتسليم وأصبح قائد العربة الجديد هو «تِمَايَا»، ولم تكن هناك حاجة لامرأة حارسة للنساء فالسلاسل تكفلت بكل شيء.

كنت أتوقع أن نرتاح قليلًا في محطة التبادل، ولكن خاب ظني حين علمت أن محطة التبادل لم تكن إلا بداية الرحلة فقط، فالعربات تسير ليلًا وتتوقف نهارًا. لم أذق طعامًا أو شرابًا منذ يومين حتى الآن. تيبست شفتاي وجف حلقي،

ويبدو أن هذا أمر جيد لأنني لن أحتاج أن أقضي حاجتي في العربة على كل حال. النساء من حولي صمتن في ظلمة الليل وكن مثل أشباح داخل العربة، لا أرى إلا هياكلهن تتقاذفها العربة يمينًا أو شمالًا. وبين الحين والآخر كنت أسمع أصوات الضباع فعلمت أننا نسير في طريق غير معتاد لأنني لم أسمع صوت الكلاب تجاوبها. النساء بقين هادئات إلا صوتًا خافتًا من إحداهن وهي تصلي: «أيتها السيدة العذراء يا أم النور، تحت ظل حمايتِك نلتجئ يا والدة الله القديسة، فلا تغفلي عن طلَباتنا، في احتياجاتنا إليك، لكن نجّينا من جميع المخاطر على الدوام، أيّتها العذراء المجيدة المباركة. السلام عليك أيتها الملكة، أمّ الرحمة والرأفة، يا حياتنا، حلاوتنا، ورجاءنا. إليك نصرخ نحن المنفيين أولاد حواء، و نتنهّد نحوك نائحين وباكين، في هذا الوادي، وادي الدموع. فلذلك يا شفيعتنا، انعطفي بنظرك الرءوف نحـونا، وأرينـا بعد هذا المنفى، المسيح ثمرة بطنك

المبارك. يا حنونة، يا رءوفة، يا حلوة، يا مريم البتول. صلّي لأجلنا يا والدة الله القديسة، لكي نستحق مواعيد المسيح». كانت المرأة عارية إلا من عقد حول عنقها ينتهي بصليب صغير من خشب الأبنوس يختفي في حياء بين ثدييها، أو تدفع به حركة العربة المجنونة عاليًا في الهواء. وتساءلت: لماذا كانت تصلي لمريم العذراء ولم تصل لله الآب؟ ولم أجد في نفسي جوابًا. غفوت قليلًا، ولا أدري أكان بسبب الإعياء والتعب أم بسبب الظلمة التي تلف المكان وحركة العربة الرتيبة، أم أنه بسبب الشعور باليأس من وصول نجدة يرسلها عمي الملك «نِيَّار» تنقذني مما وقعت فيه. لا بد أنني بدأت أستسلم لقدري، وأفكر فيما نحن مسوقون إليه. وحين غلبني الإعياء والرهق وأغمضت عيني، حلمت بنفسي وأنا عبد عند أحد الأسياد، يناديني باسمي الجديد «أَسْحَمْ» أو يطلق عليَّ اسمًا آخر من اختياره، ثم يأمرني فأطيع وأقوم بخدمته وأسكن مع الخدم والعبيد!

وإذا تأخرت عن خدمته يلهب ظهري بالسوط أو يمنع عني الطعام والشراب أو يلقي بي في غرفة مظلمة تحت الأرض.

أفقت على ضوء أشعة الشمس المنبعث بين شقوق العربة الخشبية، ونظرت حولي في فزع فرأيت النسوة وقد أفقن قبلي، وكانت إحداهن تنظر ناحيتي، نظرات غريبة بدا منها وكأنها عرفتني. لم تشح بنظراتها عني ولكنها بقيت صامتة. يوم جديد في الأسر، استقبلته بصمت وتجهم، ولكن المرأة التي كانت ليلة البارحة منهمكة في الصلاة همست بصوت يسمعه من في العربة ولا يسمعه «تِمَايَا» قائد العربة:

- «أنا أعرف هذا المكان، ولا بد أنهم سوف يتوقفون فلن يتمكنوا من السير نهارًا. وسوف تنالون نصيبكم من النوم والراحة. لا تستسلموا. ليكن إيمانكم بالمسيح قويًّا».

رغم أن اليوم بدأ بشمس ساطعة فإن الجو سرعان ما تغير، فقد بدت في الأفق الشرقي

غمامة حمراء غريبة، ولاحظت أسراب القطا وهي مسرعة تتجه نحو الغرب، و كثيرًا من الوحوش المجفلة حولنا، وأسراب الغزلان الفزعة، وقطعان حمر الزرد المخططة الهاربة وهي لا تلوي على شيء، وشيئًا فشيئًا تغير لون السماء فصار مثل سحابة حمراء تملأ السماء كلها ، ثم صار لونها أسود شديد السواد، وتذكرت أن هذا هو موسم الرياح ونحن في هذا المكان في العراء ولم نصل بعد إلى أي ملجأ أو مأوى. كانت العربة تطير طيرانًا وهي تسابق هبوب الرياح، ولا بد أن «تِمَايَا» قد أدرك هذا فكان يريد أن نصل إلى المحطة التالية بأي شكل من الأشكال. ولكن خاب مسعاه فقد بدأ هبوب الريح العاتية التي تقتلع كل شيء يقابلها، وكان صوتها مثل عزيف الجن في أودية الموت، فاضطر «تِمَايَا» إلى النزول بالعربة في حفرة كبيرة، صنعتها السيول، وربط الخيل إلى صخرة قريبة، وأنزل النساء إلى الأرض تحت العربة وأمرنا أن نرقد منبطحين على بطوننا

ونبقي رءوسنا منخفضة ناحية الشرق من حيث تهب الريح وأن نغلق أفواهنا ونتنفس من أنوفنا. وبعد هنيهة وصلت الريح العاتية وهي تحمل التراب يسفع أجسامنا ويضربها بملايين الإبر وكأنها محماة في النار. كنت أتنفس بصعوبة بالغة وقد دخلت ذرات الغبار الدقيق في فمي وأنفي وعيني وملأت أذني وكل جزء من جسمي. وبعد دقائق معدودة أصبحنا جميعنا تحت التراب يغطي كل شيء ويسفَى فوقنا وعلى كل ما حولنا. خيم الظلام الحالك على الأرض، ونحن ما زلنا في بداية النهار، وانعدمت الرؤية تمامًا وأصبحت الوسيلة الوحيدة للتواصل بمن حولنا هي اللمس. استمر الحال هكذا عدة ساعات، وكنا مثل الأموات في انتظار القيامة، ثم بدأت سرعة الريح تخف رويدًا رويدًا، وانقشعت الغمامة وأصبح من الممكن رؤية من حولنا وما حولنا.

حين أمرنا «تِمَايَا» بالخروج من تحت العربة وبدأنا الوقوف على أقدامنا انهالت كثبان الرمل

والتراب من على رءوسنا وأجسادنا على الأرض حولنا، فكنا كمن يخرج من القبور على الحقيقة، وقد تغيرت ألوان أجسادنا فصارت غبراء مختلطة ببقايا العرق، وكانت وجوهنا كمن يلبس أقنعة من الطين الأسود والتراب الثقيل فوق رءوسنا وكأننا نحمل أثقالًا. وكان الغبار الداخل مع هواء التنفس يملأ رئتي كل واحد منا فنحس به يقطع حلوقنا بعشرات السكاكين ويذبحها ذبحًا.

أمرنا «تِمَايَا» بسحب العربة إلى خارج الحفرة بعد أن ربطها بحبل قوي فأصبحت النساء بمثابة دعم للأحصنة المجهدة. حين استقرت العربة خارج الحفرة أمرنا بالصعود، ولكنني جلست تحتها أقضي حاجتي. لم يعد يهمني شيء في هذه الحياة. لا أمل لي ولا أخشى أحدًا. لم أستتر من النساء حولي وأنا أقضي حاجتي، وهن لم يفعلن أيضًا. كنا في حال تشغلنا عن مثل هذه الأمور، وكنا مثل الحيوانات التي في البرية. كنا نسخر من واقعنا

في صمت ودون تعليق. المرأة الضخمة بدأت تتكلم وتعلق على النساء من حولها، وبدأت أرى الابتسامة المجهدة على أفواه جائعة بائسة محبطة، حين نظر بعضنا إلى بعض كنا جميعنا كأشباح بُعثت من داخل القبور في يوم الدينونة وجلست تنتظر مصيرها المجهول. حين نظر بعضنا إلى بعض تحول البؤس إلى ضحك، حاولنا أن نضحك ملء أفواهنا لننتصر على ذل العبودية. النساء أفلحن في الضحك، وحاولت أن أضحك فخرج الصوت من فمي مثل فحيح الأفعى. وحين سمع «تِمَايَا» الضحكات انتهرنا بصوته القبيح الأجش، فسكتنا مغلوبين على أمرنا.

بعد مسير عدة ساعات وصلنا إلى المحطة التي كان يقصدها «تِمَايَا». لاحظت أن عربة الصبيان لم ترافقنا ولم تصل معنا، ويبدو أنها شقت طريقًا آخر غير طريقنا. وحين وصلنا أدخلونا «الدَّرْدُور»[30] وهو الكوخ الوحيد في المكان وهو مبنى مستدير مبني من الطين

ومسقوف بالخوص وله باب قصير. حين دخلنا وجدنا حصيرًا على الأرض وبه بضعة مساند من الجلد ملقاة هنا وهناك. وجاء «تِمَايَا» ببعض التمر نثره على الأرض وأرغفة من الخبز اليابس ودلو فيه ماء. وضعه دون كلام ثم فرقع سوطه ففهمنا أنها إشارة لنا لبدء الأكل، ثم خرج وأغلق الباب الخشبي من الخارج.

جلسنا متجمعين في حلقة مثل هيئة جلوسنا في العربة يقابل بعضنا بعضًا، وبدأنا نأكل في صمت. لاحظت أنني الشخص الوحيد المختلف جسديًّا عن بقية الموجودين، ولكننا في غمرة الأحداث نسينا الفروق الجسدية، ولم نكن ننظر. التمر قاس يختلط بالدم السائل من شفاهنا الجافة المشققة وكذلك الخبز، وكنا نغمسه في الماء فكان الماء هو إدامنا وشرابنا معًا. المرأة الضخمة كسرت حاجز الصمت وانطلقت تتحدث عن قريتها التي اختطفت منها وبيتها وبيت زوجها. اختطفها أعوان «ساري

الليل» من إحدى قرى الكرنينا التي تقع غرب النيل الآخر الغربي. كان زوجها غائبًا وكانت تخرج مع النسوة لاستقاء الماء فكن يحملن الجرار فوق رءوسهن. وكان الخاطفون قد كمنوا لهن عند مكان استقاء الماء. ولما أحست بقية النسوة الأخريات بالخاطفين ألقين بالجرار وهربن فنجون بأنفسهن بينما أعاقها جسمها الضخم وجرتها الكبيرة عن الهرب فأدركوها. قالت إنها جرت حتى أحست أن معدتها اشتعلت نارًا وأن صدرها سوف يخرج منه الدخان، ثم لما انقطع نفسها وزاغت عيناها تعثرت فوق حجر فسقطت. الخاطفون الثلاثة بعد أن جردوها من ثيابها، اعتدوا جميعهم عليها وهي على الأرض قبل أن يرفعوها ثم اعتدوا عليها كرة ثانية في المركب حين كانوا يعبرون نيل سوياً متجهين جهة الشرق. المرأة الأخرى رسمت الصليب على وجهها حين سمعت كلام المرأة الضخمة.

قالت الضخمة إنها سمعت أن الحال تغير بعد

الملك «الأبجر» وأن كل ما يحدث من تجارة العبيد في عَلَوَة قد استحدث من بعده وأن للحاشية والوزراء الذين حول الملك «نِيَّار» علاقة بما يحدث. وأن الكرنينا يعدون العدة للزحف على سوبأ وقد بدءوا يتحالفون مع الأجناس المجاورة؛ لأنهم سئموا من الاعتداءات المستمرة من تجار العبيد على قراهم وخطف نسائهم وأطفالهم. كنت أستمع ولا أشارك في الحديث. وبعد قليل لاحظت أن بعض النسوة يتهامسن وهن ينظرن ناحيتي، ثم قالت المرأة المتدينة التي كانت تصلي ونحن في العربة:

– أنت تشبه الأمير أَصْحَمَةَ ابن الملك الأبجر أيها الفتى. ولولا العيب والحياء لقلنا إنك هو. فمن أنت؟

أوشكت أن أخبرهن بحقيقة أمري ولكنني خشيت سخريتهن أو أن يصل الخبر إلى «تِمَايَا» فيدق عنقي هذه المرة! فقلت:

– يخلق من الشبه أربعين يا «مَجْدَلِيَّة». أنا

«أَسْحَمْ»، اسمي «أَسْحَمْ»!!

فضحكن واستمر النساء في رواية قصصهن وكيف تم اختطافهن. «مَجْدَلِيَّة» المرأة المتدينة قالت إنها رأت الأمير أَصْحَمَةَ في الكنيسة ذات يوم، وهو يشبهني كثيرًا ولهذا سألتني. وبعد أن سمعت تعليقي قالت:

– توقعت أن تكون أنت هو الأمير «أَصْحَمَةَ» فكل شيء أصبح واردًا ومتوقعًا في هذا الزمان العجيب، وهؤلاء الكلاب لا يتورعون أن يبيعوا ملك عَلَوَة نفسه في سوق العبيد لو استطاعوا. ولكن، لماذا وضعوك معنا ولم يضعوك مع الصبيان؟

– حقيقة لا أدري، ولكن ربما لأنهم اختطفوني من السوق، فلم يتسن لهم الوقت لوضعي في العربة الأخرى أو ربما لأنني صغير السن جدًا.

– أرأيت؟ إنهم باتوا يختطفون الناس حتى من سوق سوبأ نفسها. وأنا متأكدة أن «ساري الليل» وراء هذا كله. ألم أقل لك إنهم لم يعودوا

يخشون شيئًا؟ سوف يجلبون على أهل سوبأ وعَلَوَة كارثة كبرى.

المرأة الضخمة كانت تجلس على عقبيها وتمد ساقيها وقد خبأت عفتها خلف وسادة نتنة الرائحة، بينما جلست المرأة المتدينة على فخذها اليسرى ووضعت اليمنى فوقها وقد أسدلت شعرها الطويل من الأمام فوق صدرها. العذارى الخمس الأخريات ضممن أفخاذهن وجلسن على ركبهن وأسدلن شعورهن فوق صدورهن وكن ينظرن إلى الأرض دومًا.

حين انتبهت إلى نفسي وجدتني أجلس القرفصاء وقد احتويت ساقي بيدي اليسرى لأغطي عورتي وكنت آكل باليد اليمنى. قالت المرأة الضخمة:

– ألا تلاحظون أنكم بدأتم منذ الآن تجلسون كما يجلس العبيد، خاصة «أَسْحَمْ»؟ قالت هذا وضربت بيدها على ركبتي فوقعت على ظهري وانكشفت عورتي.

ضحكت المرأتان في خبث وابتسمت العذارى الخمس في حياء ظاهر، ولم ينظرن ناحيتي، واستمرت المرأة الضخمة في تعليقاتها الساخرة فقالت:

– لقد حفرت تلك الحارسة الملعونة أخاديد على جسدي بسوطها الطويل وكأنها تشق جداول لري الزرع في ظهري. ألم يخبرها أحد أننا ما زلنا في موسم الرياح وأن أوان الزراعة لم يحن بعد؟

– ولكن أنت أمطرتها بسيل من الشتائم يا «سُنْدَرَة» تكفي لري أرض عَلَوَة كلها وسقيا الزرع.

– ما كنت أخشى سوطها، بل هي كانت تخشاني، فقد جلست بعيداً في الجانب المقابل ولم تجرؤ أن ترفع عينيها في عيني ولو لمرة واحدة. أقسم إني لو تمكنت منها لقتلتها بيدي هاتين وليكن ما يكون.

قالت هذا وضغطت بيدها الضخمة المتشنجة

على رغيف الخبز اليابس فتكسر وتفتت. وضحكنا رغم البؤس، وعلمت أنه يمكننا أن نفرح في أشد اللحظات قسوة وضراوة، وأن أنفسنا تملك الاستعداد الفطري للتعايش والتكيف مع كل الظروف والمواقف.

سرعان ما أصبحنا أصدقاء وتقاربت لغة التفاهم بيننا، ولجأ بعضنا إلى بعض في هذه المأساة. أدركت أنني الرجل الوحيد بينهن وأنني مسئول عنهن وأنني يجب أن أكون الأكثر صبرًا وتحملًا وتجلدًا وأن أكون أكثر انتباهة. تخيلت أن المرأة المتدينة «مَجْدَلِيَّة» هي أمي وأن المرأة الضخمة «سُنْدَرَة» هي خالتي وأن البنات الخمس هن أخواتي. كانت النساء قد حفرن حفرة في جانب الكوخ تفضي من تحت الجدار إلى الخارج وكن يجلسن لقضاء حاجتهن فيها، ولم يكن الماء يكفي للشرب والاغتسال معًا، فكن يستخدمن أعواد الخوص للتطهر والنظافة. بعض البنات لم يأكلن إلا قليلًا فبدا عليهن الشحوب والهزال. واحدة

منهن فاض دمها الشهري، ولم تعرف كيف توقفه فتركته ينساب بين فخذيها حين نفدت أعواد الخوص. كانت غير مبالية.

كانت القافلة تسير ليلًا عبر طرقات غير مسلوكة وتهجع نهارًا في أماكن مريبة لعلها أعدت خصيصًا لمثل هذه الرحلات. وبعد ليالٍ عديدة من السير المضني، لا أعلم كم عددها، تغير شكل الأرض فرأينا التلال والجبال أمامنا وعرفت أننا قد اقتربنا من «باضع» على بحر الجار، فقد حكى لي «دَلمار» ترجمان أبي عن هذه الأماكن وأنك إن رأيت التلال فعما قريب تصل بعدها إلى العمران والمدن الكبيرة على البحر.

وقبل الليلة الأخيرة التقينا بعربة الصبيان وحراسها وعربة التاجر «قَبَرْديتْ» فأصبحنا قافلة مكونة من ثلاث عربات إضافة إلى عربة المؤن. وفي هذه الليلة انضمت إلينا عربة أخرى بها خمسة من الحراس المقاتلين

يحملون الحراب والنشاب والسهام، وقدرنا أن التاجر «قَبَرْديتْ» قد استأجرهم لحراسة القافلة من هجمات اَلزنافج والبجاة. تأكدت أن هذا الأمر كله مرتب ومدبر، وأن الرحلة جميعها قد تم التخطيط لها بعناية، وأن اختطافي لم يكن أمرًا عارضًا أو حدث عن طريق الخطأ ولكنه كان مقصودًا، فقد تخلصوا من أبي فاغتالوه، واليوم تخلصوا مني فجعلوني عبداً بعد أن أصبح عمي «نِـيَّـار» هو الملك فجأة. يا ترى، هل لعمي «نِـيَّـار» يد في هذا الأمر؟ هل من المعقول أن يد عمي ملوثة بدماء أبي؟ لا أريد أن أصدق هذا أبدًا فقد كان أبي يحبه جدًّا. ولكن كيف وهو الذي جعلنا أنا وأمي ننتقل لنعيش معه في القصر بعد مقتل أبي؟ ولكن لماذا لم يتم القبض على قتلة أبي ولم تجر أي محاكمات؟ ومن هم قتلة أبي أصلًا؟ ولماذا قتلوه؟ تذكرت نظرات «أَبْرِيهِيت» الخائفة وتصرفاتها المريبة، وراجعت الموقف كله في ذهني فأيقنت أن لها يدًا في تدبير اختطافي من

السوق. ياللأسف! حتى خادمتي أصبحت ضمن المتآمرين.

لم نسر ليلًا وإنما أصبحت القافلة تسير نهارًا، وصح ما توقعه «قَبَرْديتْ» فحين شقت القافلة طريقها عبر الجبال كانت السهام تأتينا من كل صوب وكنت أسمع طنينها في الهواء ووقوعها على جدران العربة الخشبية وصيحات الحرب المنبعثة من أفواه الحراس، وكانت القافلة تنطلق مجنونة بين الجبال. وكانت «مجدلية» تقول:

– خير لكم أن تنجوا من هؤلاء الزنافج فإنهم لو قبضوا عليكم لذبحوكم ذبح الشياه!! أنا شخصيًّا أفضل أن أباع للعرب ولا أقع في أيدي الزنافج.

عرفت من كلامها أنهم ينوون بيعنا للعرب !! والعرب هم في الجانب الآخر من بحر الجار. بدأ اليأس والقنوط يدب في نفسي من أي أمل في الهروب أو النجاة مما وقعت فيه.

فجأة امتدت يد «تِمَايَا» من خارج العربة وحملني كما يحمل الطفل الرضيع ورفعني فوق كتفيه، فرآني المطاردون مربوطًا ومكبلًا، ثم أعادني إلى العربة.

فهم المطاردون الرسالة ونجت القافلة بأعجوبة من هجمات الزنافج، وتجاوزت الجبال منحدرة صوب البحر، فقد كفوا عن ملاحقتنا بعد أن علموا أن العربات لا تحمل سوى العبيد، وهم كانوا يطمعون في البضائع والذهب والثياب. ولو علموا أن في العربة نساء لربما هاجمونا بضراوة واستولوا عليها. علمت الآن الحكمة من إبقائي في عربة النساء. العربة الأخرى كانت مكشوفة والمطاردون رأوا العبيد فلم يطاردوهم. ولم يتوقفوا عن مطاردة عربتنا المسقوفة والمقفلة من جميع الجوانب حتى أراهم «تِمَايَا» أنها لا تحمل سوى الغلمان أيضًا حين حملني ورفعني عاليًا في الهواء ليروني. وبعد يوم كامل من المسير لاحت معالم مدينة «باضع» في الأفق ورأينا بيوتها المطلية باللون

الأبيض. ولم تدخل القافلة طرقات المدينة بل تجاوزت سوقها متجهة إلى الميناء.

حين وصلنا قرب الميناء وقفت العربة عند مدخل سور كبير وترجل التاجر «قَبَرْدِيتْ» وسمعنا نباح الكلاب، ثم انفتح باب السور ودلفت العربات إلى ساحة أمام البيت الضخم متعدد الطوابق والذي يبدو أنه بيت التاجر«قَبَرْديتْ» ثم توجهت إلى الباحة الخلفية وهناك أنزلونَا وأدخلوا الصبيان في قسم من المبنى وأُدخلت النساء في القسم الآخر. وقسمونا إلى ثلاث مجموعات؛ وضعوا المرأتين في غرفة والصبايا الخمس في غرفة ثانية ووضعوني في غرفة أخرى ضيقة وحدي بعد أن نزعوا كل الأصفاد والقيود والسلاسل واكتفوا بسلسلة ذات طوق جلدي حول عنقي ربطوها بالسارية التي في وسط الغرفة وأبقوا يديَّ مربوطتين خلف ظهري.

الغرفة كريهة الرائحة جدًّا ومظلمة، فليس بها

نوافذ ولا تكاد تتسع للفرش القطني المتسخ ذي المخدة والغطاء الملقى على الأرض. جمعتها وألقيت بجسدي عليها ووضعت السلسلة بين رجلي، ثم لم أشعر بشيء بعد ذلك. لا أدري كم نمت، ولعلني نمت يومين أو ثلاثة.. فقد أيقظني الجوع.. وربما قصدوا أن يتركوني نائمًا حتى أستيقظ بإرادتي وقد ارتحت واستعدت عافيتي. عندما استيقظت كان الطعام الذي أحضروه في الأيام السابقة موضوعًا ومتراكمًا عند باب الغرفة الموارب، وقد عبثت به القطط. لاحظت أن باب الغرفة لا يمكن لأحد الدخول منه إلا وهو يحبو أو راكعًا ولا أذكر كيف أدخلوني عبره أول مرة. هجمت على الطعام الذي أكلته القطط حتى شبعت منه ، فالتهمت بقاياه التي تركتها متناثرة علي الأرض، ثم أدركت بعد أن انتهيت من الأكل أن الطعام كان سمكًا مسلوقًا. كنت آكل مثل الكلب تمامًا. فقد كنت مُقعًى على ركبتي وعنقي مربوطًا إلى السارية بسلسلة. وكان الطعام بعيدًا عن المتناول،

ويداي مربوطتين خلف ظهري فكنت أضع فمي على الأرض ألتقط بقايا الطعام المتناثر، أو أضع فمي على الصحفة العميقة ثم لا أدرك بقايا الطعام في قعرها لأن دائرتها أضيق من دائرة وجهي. وحين كنت أفعل هذا كانت السلسلة تصلصل وتفضح حركتي. ولما علموا من صوت السلسلة أني استيقظت وأكلت جاء حارس ففتح الباب وحدثني بلهجة لم أفهمها، ثم أجلسني على الأرض وجاء بموسى حادة وبدأ يحلق شعر رأسي بعنف فأزاله جميعه وأحدث خدوشًا وجروحًا جديدة في جلدة رأسي، ثم جاء بلوفة وصابون وسطل مليء بالماء وتكلم بلهجة آمرة، فهمت منها أنه يجب عليَّ أن أغتسل. وعندما فك أصفادي عن يدي وبدأت الاغتسال ولمست رأسي أدركت أن هناك جرحًا كبيرًا فيه من الخلف وأن هناك الكثير من الخدوش الدامية على ظهري وفخذي وساقي وذراعي وكتفي. كانت كل عضلة في جسمي تجعلني أصيح من الألم حين ألمسها، وتمالكت

نفسي فدلكت جسدي باللوفة والصابون جيدًا ثم نضحته بالماء. وغسلت عن جسدي أكوامًا متراكمة من الطين والبول والأقذار، وأحسست بعد ذلك أن جسمي أصبح خفيفًا من الأثقال وكأنني سأطير في الهواء. نظرت إلى نفسي فوجدت أنني أقف عاريًا حافي القدمين، محلوق شعر الرأس، مليئًا بالخدوش والجروح والندوب التي جعلتني لا أستطيع أن أكف فمي عن التأوه أو أمنع حلقي من الأنين، وأن الأمير «أَصْحَمَةَ ابن الملك الأبجر نجاشي مملكة عَلَوَة» قد أصبح اليوم هو العبد المبيع بستمائة درهم، والذي يأكل كما يأكل الكلب وينتظر أن يباع فيكون عبدًا مملوكًا لأحدهم في بلاد العرب.

مكثنا في القسم الخلفي من بيت التاجر «قَبَرْديتْ» أسبوعًا ونيفًا. وفي صباح أحد الأيام أخرجونا جميعًا من غرفنا، فوقفنا عراة، وقد حلقت رءوس الذكور وتركت شعور الإناث مسترسلة على أكتافهن، ودهنوا أجسامنا بالزيوت والدهون فأصبحت تلمع تحت ضوء

الشمس. من يتكلم أو يهمس يتعرض للضرب المبرح بالسياط الضخمة الطويلة التي يتشقق منها الجلد ويسيل الدم. قام أحد الحراس بدهن أقدامنا اليمنى بطلاء أبيض، ثم علقوا حول أعناقنا لوحات كتبوا عليها بعض البيانات، وربطوا رءوس بعض العبيد المعروضين للبيع بدون أي ضمانات بقطعة من القماش كما وضعوا الأغلال حول أيديهم. جميع العبيد لم يكونوا يستطيعون القراءة بخلافي أنا، فقد كنت أستطيع قراءة اللوحات. وكانت اللوحات مكتوبة بالعربية. كنت أقرأ المكتوب سرًّا ولم أبين للحراس أنني أستطيع القراءة. كتبوا على لوحتي:

– الاسم: «أَسْحَمْ» ، العمر: تسع أو عشر سنوات، الأصل: «مجهول»، القدرات: مجهولة، الميزات: شديد الذكاء، صغير السن، العيوب: مرض التوهم.

كنت أحاول أن أسرِّي عن نفسي بقراءة

اللوحات المعلقة على أعناق العبيد من حولي، أو ربما كنت أحاول الهروب من واقعي حتى ظهر الحارس «تِمَايَا» ويبدأ يلقي علينا الأوامر والتعليمات الأخيرة فأخبرنا أننا متوجهون لنصير مِلكًا لأسياد آخرين وأن علينا أن نطيع كل من سيكون سيدًا لنا وإلا تعرضنا لأشد أنواع التنكيل والعذاب الذي نتمنى معه الموت الرحيم، وأن الموت لن يكون رحيمًا فسوف يصبح جزاؤنا القتل البطيء وأنهم سيقومون بتقطيعنا أجزاء ونحن أحياء ويطعموننا لأسماك البحر لو امتنعنا عن طاعة الأوامر، أو تمردنا أو عصينا. وممنوع أن يكلم بعضنا بعضًا أو ينظر بعضنا إلى بعض، ناهيك عن النظر إلى أسيادنا القادمين.

وضعونا داخل عربة مقفلة تحركت بنا صوب السفن الراسية عند ميناء «باضع»، وسرعان ما وصلنا إلى الميناء، فقد كان بيت التاجر «قَبَرْديتْ» قريبًا جدًّا من مرسى السفن. ومكثنا بضع ساعات واقفين قبالة إحدى السفن

الراسية. وتجمع التجار والمشترون، وكثر اللغط والجدال من حولنا، وكان هناك عدد من العرب والأجناس الأخرى. ثم جاء أحد العرب التجار وأشار بأصبعه نحوي، وبدأ يتفاوض مع التاجر «قَبَرْديتْ» ثم جاء ودار حولي وتفحصني ولَمس جسدي ثم طلب من «قَبَرْديتْ» أن يأمرني بفتح فمي وإخراج لساني للخارِج ونظر داخل فمي وتفحص أسناني وتعجب، ثم تكلم مع «قَبَرْدِيتْ» قليلًا وانصرف، وبعد انصرافي جاء التاجر «قَبَرْديتْ» وأمرني أن أفتح فمي مرة أخرى فرأى أن أسناني بيضاء نظيفة، ورأيت الدهشة على وجهه ولكنه لم يكلمني. وبقيت واقفًا وحدي، ثم جاء اثنان من الحراس فأصعداني إلى قارب صغير وقاما بالتجديف حتى وصلنا إلى السفينة. وقام من في السفينة بإنزال سلم من الحبال فأصعدني أحد الحراس وجعلني أتسلق السلم إلى سطح السفينة، ثم نزل إلى القارب وعاد إلى الشاطئ. جاء من كان على سطح السفينة ينظرون

ويتفحصونني. ثم أمرهم أحدهم أن ينزلوني إلى قاع السفينة ففتحوا بابًا خشبيًّا وألقوا بي مثل كيس من القطن أو مثل زكيبة قمامة حين ترمى في سباطة النفايات فوقعت على وجهي وأغلقوا الباب.

المكان مظلم ورطب. والدم يسيل من فمي الذي وقعت عليه، وحركة السفينة صعودًا ونزولًا مع الأمواج أصابتني بدوار البحر فتقيأت كل ما كنت قد أكلته صباح ذلك اليوم. وجاءت الفئران فبدأت تأكل القيء. الفئران لم تكن خائفة فقد تسلقت جسدي على الفور وبلا تردد. أصبحت وحيدًا، ضعيفًا، خائفًا، خائر القوى، يائسًا. واستسلمت لما سوف يفعلونه بي.. وانتظرت القادم. وفجأة وبلا تفكير وجدتني أنتفض، وثارت نفسي كأنها بركان هائل يقذف الحمم، وأحسست بقوة جبارة تملأ جوانحي وتكتنف كياني. وبدأت أقول لنفسي: أهكذا هي نهايتي؟ أحقًّا أنا ضعيف ومستسلم لكل ما يفعلونه بي؟ أحقًّا أنا وحيد في هذا العالم، أم أن

هناك إلهًا حقًّا يراقبني ويحرسني؟ فإن كان يراني فلماذا لا ألجأ إليه كما كان المسيح يفعل؟ وما فائدة الصلاة إن لم يكن هذا هو وقتها؟

جثوت على ركبتي وأغمضت عيني، ورفعت يدي المغلولتين وبدأت أترنم في قعر السفينة في جوف الظلمة بصوت مضطرم: «أصلي لك يا إلهي الواحد الله الآب، ضابط الكل، خالق كل شيء، ما يُرى وما لا يُرى. إن شئت أن تجيز عني هذه الكأس، ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك. إن لم يمكن أن تعبر عني هذه الكأس إلا أن أشربها فلتكن مشيئتك.» «يا رب أرني عدلك. يا رب أرني قوتك ومشيئتك. آمين». ثم رفعت صوتي وبدأت أرتل من سفر المزامير ما كنت أحفظه:

«الرَّبُّ لِي فَلَا أَخَافُ. مَاذَا يَصْنَعُ بِي الإِنْسَانُ؟ الرَّبُّ لِي بَيْنَ مُعِينِيَّ، وَأَنَا سَأَرَى بِأَعْدَائِي. الاحْتِمَاءُ بِالرَّبِّ خَيْرٌ مِنَ التَّوَكُّلِ عَلَى إِنْسَانٍ. الاحْتِمَاءُ بِالرَّبِّ خَيْرٌ مِنَ التَّوَكُّلِ عَلَى الرُّؤَسَاءِ.

كُلُّ الأُمَمِ أَحَاطُوا بِي. بِاسْمِ الرَّبِّ أُبِيدُهُمْ. أَحَاطُوا بِي وَاكْتَنَفُونِي. بِاسْمِ الرَّبِّ أُبِيدُهُمْ. أَحَاطُوا بِي مِثْلَ النَّحْلِ. انْطَفَأُوا كَنَارِ الشَّوْك. بِاسْمِ الرَّبِّ أُبِيدُهُمْ. دَحَرْتَنِي دُحُورًا لأَسْقُطَ، أَمَّا الرَّبُّ فَعَضَدَنِي. قُوَّتِي وَتَرَنُّمِي الرَّبُّ، وَقَدْ صَارَ لِي خَلاَصًا. صَوْتُ تَرَنُّمٍ وَخَلاَصٍ فِي خِيَامِ الصِّدِّيقِينَ: يَمِينُ الرَّبِّ صَانِعَةٌ بِبَأْسٍ. يَمِينُ الرَّبِّ مُرْتَفِعَةٌ. يَمِينُ الرَّبِّ صَانِعَةٌ بِقُوَّة. لاَ أَمُوتُ بَلْ أَحْيَا وَأُحَدِّثُ بِأَعْمَالِ الرَّبِّ. تَأْدِيبًا أَدَّبَنِي الرَّبُّ، وَإِلَى الْمَوْتِ لَمْ يُسْلِمْنِي. اِفْتَحُوا لِي أَبْوَابَ الْبِرِّ. أَدْخُلْ فِيهَا وَأَحْمَدِ الرَّبَّ. هذَا الْبَابُ لِلرَّبِّ. الصِّدِّيقُونَ يَدْخُلُونَ فِيهِ».

وبينما كنت أترنم وأرتل فتح باب الكوة من أعلى وعلمت أنهم سمعوا صوتي فجاءوا ليضربوني ويؤدبوني لأخرس وأصمت فلم آبه ومضيت في صلاتي وتراتيلي. وعلى الفور نزل اثنان من الحراس وحملني أحدهما فوق كتفه وصعد بي إلى سطح السفينة، ولم أقطع صلاتي. وجاء كل من في السفينة ينظر.

وظننت أنهم سوف يقومون بتقطيعي قطعة قطعة قبل أن يلقوا بي طعامًا لأسماك البحر كما أخبرونا صباح اليوم. حسنًا فليفعلوا فلن أقطع صلاتي. ولكنهم، ولدهشتي، جاءوا بقارب صغير وأنزلوني إليه وجدف بي الرجلان إلى البر. ولم أقطع صلاتي فقد كنت منهمكًا فيها بكل قوتي وكانت عضلات جسمي تختلج كلها وكان العرق يتصبب من جسمي، ولم أكن أنظر إلى ما حولي ولا من حولي. ومضيت في تلاوة المزامير:

«أَحْمَدُكَ لأَنَّكَ اسْتَجَبْتَ لِي وَصِرْتَ لِي خَلاَصًا. الْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَّاءُونَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ. مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ كَانَ هذَا، وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا. هذَا هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي صَنَعَهُ الرَّبُّ، نَبْتَهِجُ وَنَفْرَحُ فِيهِ.آهِ يَا رَبُّ خَلِّصْ! آهِ يَا رَبُّ أَنْقِذْ! مُبَارَكٌ الآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ. بَارَكْنَاكُمْ مِنْ بَيْتِ الرَّبِّ. الرَّبُّ هُوَ اللهُ وَقَدْ أَنَارَ لَنَا. أَوْثِقُوا الذَّبِيحَةَ بِرُبُطٍ إِلَى قُرُونِ الْمَذْبَحِ. إِلهِي أَنْتَ فَأَحْمَدُكَ، إِلهِي فَأَرْفَعُكَ. احْمَدُوا الرَّبَّ لأَنَّهُ

صَالِحٌ، لأَنَّ إِلَى الأَبَـدِ رَحْمَتَهُ» آمين.

فرغت من قراءة المزمور ومن الصلاة عندما اقتربنا من البر، وقبل أن يصل القارب الصغير إلى الشاطئ كان هناك رجل يتجه ناحيتنا وهو يكاد يطير طيرانًا نحو القارب. ثم لما وصل إلى الماء جعل يخوض خوضًا وكأنه يصارع الأمواج بساقيه. وحين اقترب تفرست في وجهه فإذا هو «دَلمار» ترجمان أبي، وأحب الناس لي من بعد أمي. قفز إليَّ القارب حين وصل إليه وأخذني في حضنه وضمني إليه بقوة وكان ينظر إليَّ بفرح شديد ولم ينطق بكلمة واحدة. ثم أمرهم بفك أغلالي ووضع رداء فوق جسمي فأحسست بأنني عدت إنسانًا مرة أخرى. ولم ينتظر وصول بقية من كان معه من المرافقين بل أدخلني داخل عربته الفاخرة وأدخل معنا أحد الحراس وانطلقت بنا العربة إلى الغرب.

كنت وأنا في العربة المنطلقة غربًا و«دَلمار» إلى جواري وكأنني في حلم سماوي، فكنت أمد يدي فألمسه بين الفينة والأخرى لأتأكد أنني

مستيقظ وأن «دَلمار» معي وأنه حقيقة ماثلة أمامي، وكان يبتسم ويجاوبني بلمسة حانية كلما امتدت يدي ناحيته. وحين تجاوزنا مدينة «باضع» وأصبحت العربة على مشارف التلال لحق بنا عدد من العربات الفارهة التي كنت أعرف أنها من عربات القصر الملكي في سوبأ فأوقفوا عربتنا. وقبل أن أترجل عن العربة فتح «دَلمار» حقيبة ملابسي التي كان يحملها معه وقام بإلباسي ملابس فاخرة جدًّا ووضع قدمي في حذاء من الجلد، ووضع غطاءً فوق رأسي الحليق، ثم نزل قبلي وساعدني على الترجل. حين وطئت الأرض مرة أخرى بقدمي اللتين تلبسان الحذاء أحسست بأنني قد عدت إنسانًا فعلًا. كنت أحس بالملابس غريبة على جسدي. وقفت زائغ النظرات حيرانَ مصعوقًا أمام العربة الملكية، وحين كان «دَلمار» يتحدث إليَّ كانت آلاف الخيالات تطوف بذهني: منظر عربة «تِمَايَا» ذات الرائحة النتنة الكريهة والأرضية المبتلة ببول النساء ودمهن الشهري

النازل بين أفخاذهن المكشوفة، وصيحات الحارسة، وشتمها البذيء، وفرقعة سوط العَنَج وهو ينزل على الأجساد العارية، وصيحات الألم المنبعثة من النساء، والأنين المكتوم، والبكاء، والريح العاتية والتراب، وعواء الذئاب في ليل البادية المظلم، وصليل السلاسل، والعبيد ذوو الأجساد العارية والرقاب المغلولة بالسلاسل وسهام الزنافج التي تطن فوق رءوسنا، والأكل مع القطط والإقعاء مثل الكلب واللوحة المعلقة على رقبتي و«سِرْنُوبْ» وهو يقبض ثمني من «قَبَرْدِيتْ» ويعد النقود. نزل الجميع من عرباتهم وتقدموا ناحيتي ثم سجدوا لي. وقال «دَلمار»: «مرحبًا بك أيها الملك الشاب»، ثم هتف الجميع:

– (الملك يعيش فليكن أمره) (فليعش ملكنا الملك أَصْحَمَةَ) (فليعش فليعش فليعش).

تمتم «دَلمار»:

– حمدًا للقدير، حمدًا للقدير يا «أَصْحَمَةُ».

أنت أصبحت اليوم ملك مملكة عَلَوَة العظيمة.
سنعود بك إلى سوياً.
انتهت مفكرة أَرْمَهَا

عَوْدَةُ الزُّبَيْر

مفكرة الملك أَصْحَمَةَ ملأت جوانحي حزنًا عميقًا على ما عاناه سيدنا الملك في شبابه بعد فقدان والده، وعلمت منها كيف انحدر بعض أناس في مملكة عَلَوَة العظيمة إلى هذا الدرك السحيق باستعباد الإنسان وبيعه، ولكنها زادت تعلقي بالملك. أصبحت أحملها أينما سرت. قرأتها كلها وأعدت قراءتها. وحين عدت إلى عملي في القصر أصبحت أنظر إليه نظرة إكبار واحترام فوق ما كنت أكنه له. لقد كبر سيدنا الملك «أَصْحَمَةَ» في عيني جدًّا رغم أنه في مثل سني. عاهدت نفسي على الإخلاص له وخدمته حتى الموت. كنا نجلس ونتحدث كثيرًا. وعرفت أنه عاد من هذا البلاء شديد الإيمان بالله عظيم الثقة به. حدثني مفصلًا عما حدث له في الأسر وكيف أنه حين لجأ إلى الله الواحد أنقذه من العبودية ورد إليه ملكه.

وسألته:

– هل عرفت من قتل أباك الملك «الأبجر» يا سيدي؟

– نعم عرفتهم. ورغم أنني أضمرت في نفسي العفو عنهم جميعًا فإن البعض منهم خاف وهرب إلى الأعداء، ومن بقي منهم أمنته، لكنهم لن يتولوا منصبًا ولا وزارة. فقد خانوا الأمانة من قبل والخيانة هي أبشع صفة. لن أثق بمن يخون شعبه.

– و«أَبْرِيهِيت»؟!

– ذهبت إلى الكاهن واعترفت له بكل شيء. مسكينة، عاشت في رعب، فقد أجبروها على التعاون معهم وهددوها بالقتل، وبعد اختطافي ساوموها على حياتها بالصمت. وبعدما اعترفت للكاهن اختفت ولا أثر لها. ولكن العجيب في الأمر هو أن التاجر «قَبَرْديتْ» الذي اشتراني منهم عاد مطالبًا بماله الَذي دفعه ثمنًا لي، والأعجب من ذلك أنهم حين لم يعطوه

ماله واضطر إلى تهديدهم بأنه سوف يخبر الملك أنهم هم الذين كانوا وراء هذه المؤامرة كلها لم يستجيبوا لتهديده، وربما ظنوا أنه لن يجرؤ على هذا الأمر أو أنه لن يقدر أن يصل إلى الملك، ولكنه تمكن من ذلك فجاء إليَّ شاكيًا وقال:

– أيها الملك لقد اشتريت غلامًا من قوم في السوق بستمائة درهم واستلمته وأخذوا دراهمي ولكن لما ذهبت به إلى باضع أدركوني وأخذوا مني الغلام ووعدوني بضعف ثمنه ولكنهم لم يعطوني دراهمي !!

فأمرتُ بإحضارهم وواجهتهم به، وقلت لهم إما أن تعطوه دراهمه أو تسلموه غلامه في يده فيذهب به حيث يشاء!! فقالوا بل نعطيه دراهمه. أردت أن يعرفوا أنني علمت بأمرهم. وأردت ألا أظلم التاجر حتى وإن أساء لي.

قال لي سيدنا الملك:

– لقد عاهدت الرب ألا أظلم أحدًا من الناس،

فلقد عاينت الظلم بعيني ورأيت كيف أن البريء يؤخذ فجأة فيصير عبداً ويسام الذل والهوان. لن أنسى أبدًا ما حييت أولئك النسوة البريئات اللواتي ذقن ما هو أشد من الموت، وكنت أسمعهن بأذني في أوقات الشدة يتمنين الموت ولا يجدنه. ولو كنت أعلم أين هن الآن لأمرت بشرائهن وتحريرهن جميعًا ولو دفعت نصف ملكي في سبيل ذلك. لقد أمرت بإيقاف تجارة العبيد في مملكتي بالكامل. ولن يجرؤ أحد أن يقوم بهذا العمل. وطردت تجار العبيد منها.

– ولكن المملكة لا يزال يتهددها الأعداء يا سيدي ، فقد احتشدت جيوشهم غرب النيل. والكنيسة تتآمر معهم، والغريب أن من يتزعمهم هم أبناء عمك الملك الأسبق «نِيَّار».

– أعلم هذا وسوف يحمينا الرب كما حماني وأنا في الأسر، وسوف يحرس عَلَوَة لأنها مملكة عظيمة وسوف يحمي سوياً «دار السلام»..

حين عدت إلى البيت أمسية ذلك اليوم رأيت

جمعًا كبيرًا أمام بيت «تَانِيشَا»، وقبل أن أستوضح الأمر رأيت الإبل البجاوية باركة في الساحة الأمامية للبيت، فترجلت عن فرسي وأرسلته وجريت أعدو ناحية البيت. أيقنت أن «الزُّبَيْر» قد عاد. وبالفعل كان «الزُّبَيْر» هناك. وتهللت أساريره حين رآني وجرى إليَّ معانقًا دون أن يتكلم. أحسست أن روحي قد عادت إلى جسدي.

كانوا كثيرين في هذه المرة. عادوا كلهم وجاء معهم آخرون. وتولى «الزُّبَيْر» تقديمهم جميعًا وعرَّفني إلى شاب اسمه «جعفر» وامرأته «أسماء». كانت أمي أشد الناس فرحًا بعودة النساء العربيات وكن كثيرات. قال «الزُّبَير» إن واحدة منهن من بني هاشم وثلاثًا من بني أمية وامرأة من بني أسد وأخرى من بني مخزوم وثلاث نساء من بني جمح وواحدة من بني علي وثلاثًا من بني عامر وواحدة من بني تميم ونسيت الأخريات.

أخبرني «الزُّبير أنهم جاءوا من طريق آخر غير الطريق الأول رغم أن سفينتهم وصلت إلى سواكن ومنها استأجروا الجمال والأدلاء إلى سوبأ لكن الأدلاء أخذوهم من طريق آخر وقالوا لهم إن الطريق الأول أصبح يكمن فيه الزنافج الذين يغيرون على القوافل. وأخبرني أنهم دفنوا أخًا لهم اسمه «خالد ابن حزام» فقد نهشته حية فمات بعد يوم واحد من السير في الطريق إلى سوبأ.

كان بيني وبين «الزُّبَيْر» أحاديث كثيرة لم نكملها في المرة السابقة. تحدثنا طويلًا وأخبرني أنهم عادوا لأن قريشًا انقلبت عليهم مرة أخرى. وأنهم ينوون الإقامة مدة أطول. وبقدر ما حزنت لسماع أخبار عودة التعذيب في مكة فقد فرحت لمجيء «الزُّبَيْر» وأصحابه.

العرب القادمون مكثوا في حيهم القديم وتقاطر الناس إليهم يحيونهم ويكرمون مثواهم. «سِيمُونَةُ» الساحرة شوهدت تحوم حول بيوتهم

هي وبناتها وهي التي نادرًا ما يراها أحد بالنهار. قالت لي أمي إنها رأتها في مجلس الملكة، فنظرت إلى أمي بعين لئيمة ثم صرفت وجهها وغادرت. أصبح الحي القديم يحمل اسم «حي العرب» رغم أن العرب لم يكونوا هم السكان الوحيدين، كان كثير من الجيران يأتون بالطعام المصنوع في البيوت ليشاركوا العرب وجباتهم. منازل العرب لم تخل من الداخلين والخارجين المرحبين والقادمين بالطعام. نساء سوبأ كن يتقاطرن على النساء العربيات وكانت مجالسهن عامرة بالأحاديث. حتى «بَرَكَة» الأرملة الوحيدة التي نزحت إلى سوبأ من منطقة الجنادل جاءت بفطورها لتشارك هؤلاء العرب. «بَرَكَة» الوحيدة الصامتة، «بَرَكَة» التي لم تغادر بيتها منذ أن توفي زوجها، يبدو أنها وجدت أخيرًا من ترتاح في الحديث معه، هؤلاء النساء العربيات أطلقن لسانها بالكلام. «بَرَكَة» وجدت لنفسها عند النساء العربيات حياة اجتماعية لم تجدها عند

نساء سوياً المشغولات دائمًا، مجلس النساء العربيات يتسع لكل قادم. وعندهن الجديد دائمًا وأحاديثهن لا تُمل.

أمس تجمعت النساء العربيات عند «بَرَكَة» وكان في المجلس رُقَيَّة، وأُمُّ حَبِيبَة، وأُمُّ سَلَمَة، ورَيْطَة، وعَائِشَة بنت الحارث، وزينب بنت الحارث، ورَمْلَة بنت أبي عوف، وليلى بنت أبي حَثْمَة، وسَوْدَة بنت زَمْعَة، وسَهْلَة بنت سُهَيْل، وفاطمة ابنةُ المُجَلَّل (أم جميل)، وعَمْرَةُ بنْتُ السَّعْدي، وكُلْثُوم بنت سهيل، و أسماء بنت عُمَيْس، وفاطمة بنت صَفْوَان، وفُكَيْهَة بنت يَسَار، وبَرَكَةُ بنتُ يَسَار، وحَسَنَةُ أم شُرَحْبِيل.

«تَانِيشَا» عرضت على النساء العربيات حَمَّامًا نوبيًّا، وتساءلت «ابنة المُجَلَّل»: وما الحمام النوبي؟

انطلقت «بَرَكَة» تشرح:

– نحفر في الأرض حفرة أو ندفن بُرْمَةً كبيرة تحت الأرض فلا يبدو منها غير فمها، ثم نملؤها

بالجمر المتقد، ونلقي فوقه عطورًا من الزنجبيل والقرنفل والدارصيني واللبان الذكر وخشب الصندل والمر، ثم تقعي الواحدة منا عارية فوق الجمر عندما يبدأ في الخمود، وتجعل من ثيابها التي خلعتها كمثل الخيمة من حول جسدها بحيث لا يتسرب شيء من الدخان، أو تتغطى «بالشملة».

– عجيب هذا الأمر يا «بَرَكَة»! وما «الشملة»؟

– قطعة من القماش الخشن سوداء اللون، نشتمل بها ونتغطى عندما نجلس للدخان، وسوف أحدثك يومًا عن ثياب أهل سوبا، سوف أحدثك عن «القنجة»[31] و«القرن»[32] و«القرقاب»[33] و«الرحط»[34] و«الشملة»[35] و«القرمسيس»[36] و«الفردة»[37] و«الزراق»[38] وغيرها من ملابس النساء.

– لو تكملين لي الحديث عن الدخان أولًا! ثم

من بعد ذلك أحب أن تحدثيني عن الثياب.

- نعم يا بنت المجلل، نبقى فوقه حتى نتفصد عرقًا. فتتفتح مسام البشرة الرطبة وتمتص الزيوت الطيارة من دخان العطور المحترقة.

- أهاااا!!

- ثم ندلك أجسادنا بالدهن أو «الدِّلْكَة». فتختلط رائحة «دخان العطور المحتَرقة» برائحة الدلكة، التي يشمها الرجال فيجن جنونهم ولن يتركوك لتنامي طول الليل يا بنت مجلل.

ضحكت النساء، وتساءلت بنت المجلل:

- وما الدلكة يا «بَرَكَة»؟

- عجينة من العطر نصنعها من دقيق الذرة أو الدخن ونخلطها مع العطور المجلوبة من الهند مثل المحلب المطحون مع ماء القرنفل المنقوع والصندل والمسك والضفرة وحطب الطلح، ولكن العبرة ليست في المكونات إنما

في طريقة عمل الدلكة.

بعد عدة أيام خرجنا أنا و«الزُّبَيْر» إلى الشاطئ وجلسنا في المكان المعتاد، وأعدنا سالف عهدنا القديم، وفي طريق العودة مررنا بكنيسة «مارية»، ولدهشتنا رأينا رجلين من العرب يدلفان إلى الكنيسة وهما يحملان زكيبتين ثقيلتين فوق أكتافهما، وتسمر «الزُّبير» في مكانه فقد عرف الرجلين، قال لي «الزُّبَيْر»:

– ما الذي جاء بـ«عمرو» و«عمارة» إلى الحبشة؟

– من «عمرو» و«عمارة» يا زبير؟

– عمرو بن العاص بن وائل القرشي من بني سهم، أحد دهاة العرب. واضح أنه جاء في أثرنا، وعمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي وهو ابن أحد سادات قريش وتجارها. ولكن لماذا دخلا الكنيسة؟

– أنا أعرف الكنيسة جيدًا. تعال نتبعهما ونرى ما وراءهما؟

ودخلنا كنيسة «مارية» خلسة فرأينا الرجلين جالسين ينتظران، ثم رأينا أحد الخدم يهرول مسرعًا إلى بيت الكاهن «أنطونيوس» المجاور للكنيسة ثم يعود ومعه الكاهن، ويتوجه الجميع ناحية المذبح الذي كنا قد اختبأنا خلفه.

وعجبت كيف يسمح الكاهن باقتراب هذين الوثنيين من المذبح؟ وكانوا قريبين منا جدًّا فكنا نراهم ولا يروننا فسمعنا الكاهن وهو يقول:

– حسنًا يا «عمرو». هذه هدايا كثيرة جدًّا وهي لجميع الكهنة بالكنيسة، فهل لي أن أسأل لم تجشمتم كل هذا العناء؟ وما المطلوب منا بالمقابل؟

– الأمر سهل وبسيط يا نيافة الكاهن، وهو أنه قد أوفدنا قومنا لنسترد بعض السفهاء من بني جلدتنا الذين هربوا إلى بلادكم وهم قد خرجوا من ديننا ولم يدخلوا دينكم ، ولو بقوا عندكم فسوف يخربون عليكم ويثيرون الفتن مثلما أثاروها في بلادنا، وقد رأينا أن ندخل البيوت

من أبوابها وأنتم أبوابها فلجأنا إليكم لتقفوا معنا حين نلقى النجاشي.

– حسنًا، ومتى سيكون لقاؤكم بسيدنا النجاشي؟

– غدًا صباحًا يا نيافة الكاهن نزوره أنا و«عمارة» و«عبد الله»، وأرجو أن نراكم في مجلسه، وتقوموا بالواجب.

قال لي «الزُّبَيْر» ونحن عائدان لنخبر العرب بالأمر:

– هذا الرجل من دهاة العرب ولا بد أنه يضمر شرًّا، انظر كيف بدأ بتقديم الهدايا للرهبان ليكسب ودهم ويضمن مناصرتهم، ولا أدري من هو عبد الله الذي ذكره، وأما الآخر «عمارة» فإنه زير نساء سكير ولا أخشى بأسه، وعلى ذكر «عمارة» هذا فقد جاء به أبوه «الوليد» إلى أبي طالب عم النبي وقال له «خذ ولدي هذا بدلًا عن ابن أخيك «محمد» وأعطني «محمدًا» أقتله فأريحك منه». فقال له

«أبوطالب»: تعطيني ابنك أربيه لك وأعطيك ابني تقتله؟ هل هذا عدل يا أبا عمارة؟

ضحكنا كثيرًا حين كنا عائدين إلى البيت، وحين وصلنا كان «الزُّبَيْر» يحدث «جعفرًا» وأصحابه عما جرى من «عمرو» و«عمارة» في كنيسة «مارية».

عَمْرٌو وَعِمَارَة

في الصباح بكرت كعادتي إلى قصر الملك،الجميع يستقبلونني بحفاوة ويحيونني مثلما كانوا يحيون جدي المتنيح «دلمار». وفوق كوني الآن «ترجمان الملك» فقد أصبحت صديق الملك المقرب فأنا في مثل سنه، وهو يحبني جداً، الجميع لاحظ هذا فالملك يثق بي بلا حدود، مثلما تثق الملكة بأمي، ولكنني لا أتدخل في شأن الملك وإدارته للمملكة إلا إذا استشارني أو طلب رأيي مباشرة، فهو حكيم بما يكفي لإدارة البلاد كلها، وأنا ما زلت في بداية عهدي بالقصر والسياسة وشئون الحكم، والملك أكثر مني حنكة ودراية ويفوقني دهاء وحكمة.

وصل الكهنة أبكر مما اعتادوا كل يوم وجلسوا في موقعهم المعتاد بمجلس الملك، وطاف عليهم السقاة بعصير الليمون الممزوج

بالعسل، وشراب العسل الممزوج بالزنجبيل، والليمون الساخن بالقرفة، وبعد قليل أعلن كبير الحراس في القصر أن «عمرًا» و«عمارة» يستأذنان في الدخول لمقابلة الملك فأذن لهما، ودخل الرجلان وسجدا تحية للملك ثم نهضا واقفين.

كان أحدهما قصير القامة، قوي البنية، مرن الأعضاء عريض الصدر، له عينان ثاقبتان وفوقهما حاجبان غزيران، وكان أدعج[39]، أبلج[40]، وكان فمه واسعًا، ووجهه ينم عن القوة من غير شدة وتلوح عليه لائحة البشر والأنس، وكان دائم الابتسامة، وعرفت فيما بعد أنه «عمرو»، كان يلبس جبة فاخرة تدل على ثراء وشرف، وأما الآخر «عمارة» فقد كان رجلًا طويلًا جميلًا وسيمًا فاتنًا متوازن الجسم قوي البنية، شديد الاعتداد بنفسه له خصلات شعر جعلها جدائل وأرسلها فوق كتفيه، وكان يلبس جبة تظهر عنقه وشعر صدره، وبينما كان «عمرو» يخاطب الملك ويحدثه كان

«عمارة» منشغلًا بالنظر إلى الجواري في القصر ومغازلتهن والغمز لهن بعينيه وتحريك حاجبيه.

بدأ «عمرو» بتقديم الهدايا للملك فقدم فرسًا عربية بيضاء جميلة مطهمة، وقدم جُبَّةً مصنوعة من الديباج الأخضر المطرز باللون الأصفر، كما أهدى جبة جميلة لجميع الوزراء وقائد الجيش وكبير الحراس.

نهض النجاشي من كرسيه وأجلس عمرًا بجواره على سرير المُلْك تعبيرًا عن الحفاوة، وسأله عن حاله وسبب قدومه إلى أرض عَلَوَة. وعلى الفور نهض «عمرو» وقدم التحية مرة أخرى للنجاشي وتحدث بصوت عال:

– أيها الملك المعظم، لقد لجأ إليكم بعض الغلمان السفهاء من بلادنا، وقد فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم بل جاءوا بدين جديد مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا أشراف قومنا إليك من آبائهم وأعمامهم

وعشائرهم لتأمر بردهم إلى بلادهم، ويقينًا إن أشراف قومهم أعلم بهم وأخبر بما يعيبون عليهم مما جاءوا به.

لاحظت أن الكهنة ينظر بعضهم إلى بعض في تعجب مصطنع أثناء حديث «عمرو»، ثم استأذن الكاهن «أنطونيوس» فأذن له النجاشي، فوقف وقال:

– سيدي الملك المعظم، لقد صدق هذا العربي، فالخير كله في أن تأمر بالقبض على هؤلاء الغلمان السفهاء على الفور وتسلمهم لهذا الوفد، ولا شك أنهم لا يستحقون أن تراهم أو تكلمهم أو تسمع منهم شيئًا.

ما رأيت النجاشي غاضبًا مثلما رأيته في تلك الساعة، فقد احمرت عيناه وانتفخت أوداجه وامتلأت عروق وجهه، ثم قال:

– ما هذا الذي تقوله أيها الأب المحترم؟ كيف تريد مني أن أسلم قومًا لجئوا إليَّ واختاروا بلادي من بين بقية البلاد، وكيف تريد مني أن

أكيد لهم وقد جاوروني وأكلوا من طعامي ونعموا بالأمن في بلادي؟ ثم أغدر بهم وأسلمهم لأول قادم يطلبهم دون أن أسمع منهم أو أتبين حقيقة أمرهم؟ إن كان هذا يشبه ديننا ويشبه أفعال السيد المسيح فأخبرني.

بهت الكاهن «أنطونيوس» من جواب الملك فسكت وعاد إلى مقعده وأطرق إلى الأرض وتشاغل بإصلاح برنسه وشد تونيته. وأطبق على المكان صمت رهيب، فسكت الجميع، حتى تكلم الملك:

- أجبني يا «عمرو»، أهؤلاء القوم عبيد لكم؟

- لا يا مقام الملك! ليسوا عبيدًا لنا بل هم أحرار وسادة في قومهم.

- ألكم عليهم دين فلم يقوموا بأدائه؟

- لا ولا هذا أيها الملك.

- ألم تقل فيما سبق إنهم سفهاء؟ فكيف يتفق هذا مع قولك الآن بأنهم أحرار وسادة في قومهم

ولا يدينون لكم بشيء؟ إذن فليذهب رسولنا ويأت بهؤلاء العرب لأكلمهم وأسمع منهم بعد أن سمعنا من وفد قريش.

بهت «عمرو» من جواب الملك فسكت، وخيم على القاعة صمت مهيب، بعد أن خرج رسول الملك وطار طيرانًا ليستدعي أولئك العرب، أخبرني «الزُّبَيْر» أنهم حين علموا بالأمر من رسول الملك لبوا النداء على الفور وكانوا يتحدثون وهم في الطريق. قال عثمان بن عفان:

– ماذا نقول للرجل إذا جئناه؟

قال «جعفر»:

– نقول ما نعلمه وما علمنا وأمرنا به نبينا، هل ثمة شيء آخر غير ذلك؟

– إذن يأمر بقتلنا أو ردنا مع «عمرو» و«عمارة» إلى مكة.

– والله لن نقول إلا الحق والصدق ولو ألقوا

بأجسادنا للطيور والنسور،ولو أذنتم لي فأنا أكفيكم الرد عليه.

– هو ذاك إذن.

وبعد فترة ليست بالطويلة وصل العرب وأذن لهم بالدخول على الفور، وكان الكهنة قد أمسكوا أقلامهم ونشروا مصاحفهم وأناجيلهم واشرأبت أعناقهم ينظرون. وبدأ النجاشي بالسؤال:

– لقد سمعت من «عمرو» وهو من قومكم يقول: إنكم أتيتم بدين جديد فارقتم فيه قومكم ودين آبائكم ، ولم تدخلوا في ديننا ولا في دين أحد من هذه الأمم فما حقيقة ذلك؟ أنصارى أنتم؟

– لا يا أيها الملك!

– أيهود أنتم؟

– لا لسنا يهودًا !

– فمن أنتم إذن؟ وما هو هذا الدين الجديد؟

وعلى الفور نهض «جعفر» زوج «أسماء» الذي عرفني عليه «الزُّبَيْر»، وكان رجلًا وسيمًا طويلًا مهابًا يبدو عليه الوقار، وكان أقنى الأنف واسع الجبين عريض الفم براق الثنايا. تقدم قليلًا ثم قال بصوت مسموع:

– أيها الملك! إنا كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف.. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدقناه وآمنا به واتبعناه، فعدا علينا قومنا هؤلاء فعذّبونا وفتنونا

عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشقّوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك، واخترناك علي من سواك ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نُظلم عندك أيها الملك!

كان النجاشي يتابع الكلام باهتمام بالغ، ويهز رأسه رضًا كلما سمع جملة من «جعفر». وبعد أن أكمل «جعفر» كلامه سأله النجاشي:

هل معك من كلام هذا النبي أو مما جاء به شيء تعرضه علينا؟

نعم فقد أنزل الله عليه قرآنًا وجاء فيه في شأن مريم والمسيح، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (61) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (71) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (81) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا

زَكِيًّا (91) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَلَمْ
يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (02) قَالَ كَذَلِك قَالَ
رَبُّك هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا
وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (12) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ
مَكَانًا قَصِيًّا (22) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ
النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا
مَنْسِيًّا (32) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ
جَعَلَ رَبُّك تَحْتَك سَرِيًّا (42) وَهُزِّي إِلَيْك بِجِذْعِ
النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْك رُطَبًا جَنِيًّا (52) فَكُلِي
وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا
فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ
إِنْسِيًّا)[41]

كان «جعفر» يقرأ هذا الكلام بصوت جميل حزين وترنيم عذب، ويمد آخر الكلام مداًّ فيتغنى به، وأحسست بدموعي تغلبني، وعبثًا حاولت إخفاء هذا الأمر بالتظاهر بالتجلد، ولكنني حين رفعت رأسي رأيت الملك وقد سالت دموعه من روعة هذا الكلام، ونظرت فإذا الكهنة يبكون ودموعهم تسيل على

المصاحف التي لم يكتبوا عليها شيئًا!!

وحين سكت «جعفر» تحدث الملك فقال:

- إن هذا والذي جاء به النبي عيسى ليخرج من مشكاة واحدة!!

ثم التفت مخاطبًا «عمرًا» و«عمارة»:

- انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما أبدًا.

وجاء كبير الحرس فاصطحبهما خارج القصر، فتبعتهما ورأيت أن هناك رجلًا ثالثًا كان ينتظرهما ويبدو أنه قد تأخر في الدخول معهما إلى النجاشي. قال «عمرو» مخاطبًا الرجل الثالث:

- أين ذهبت يا «عبد الله بن أبي ربيعة» فلقد ناصرهم النجاشي وأخرجنا من قصره، واللات والعزى لأنبئنهم غدًا عيبهم، ثم أستأصل به خضراءهم.

قال عبد الله بن ربيعة:

- لا تفعل فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد

خالفونا.

- والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى عبد، أعيدوني إلى الملك أيها الحراس.

حين عاد «عمرو» إلى قصر الملك كان العرب قد غادروا البلاط عائدين إلى بيوتهم، وكان «عمرو» يرمقهم بنظرة ماكرة وهو يمر بجوارهم، وحين دخل إلى الملك قال:

- أيها الملك المبجل! لقد كنت نسيت أن أقول لك إن هؤلاء يقولون في المسيح قولًا عظيمًا، فأرسل إليهم فسلهم عمّا يقولون فيه؟

حين سمعت كلام «عمرو» مع الملك أيقنت أن مخاوف «الزُّبَيْر» من هذا الرجل كانت حقيقية، فهو لن يتوقف حتى يؤلب الملك عليهم لأنه استغل حب الملك للمسيح، كانت الأنباء عما دار بين الملك و«عمرو» يتناقلها الكهنة والشمامسة فيما بينهم وأصبحت الأجواء مشحونة بالتوتر والترقب، ورأينا عمرًا يذهب مع الكاهن «أنطونيوس» إلى مسقوفته الفخمة

المجاورة لكنيسة «مارية» ويمضيان الساعات هناك. وفي صباح اليوم التالي أرسل الملك إلى العرب مرة أخرى، فجاءوا وقد سبقهم الكهنة والأساقفة والشمامسة الذين جلسوا في الساحة الكبيرة أمام الملك. وجاء «عمرو» و«عمارة» فسجدا تحية للملك ثم وقفا في الجانب الآخر البعيد عن العرب. ثم جاء العرب الآخرون فقالوا «سلام عليكم» ولم يسجدوا للملك. فابتدرتهم الكهنة يأمرونهم: اسجدوا للملك اسجدوا للملك، فلم يسجدوا واكتفوا بالتحية فقال «عمرو»:

– ألم أقل لك أيها الملك إنهم لا يعظمونك؟ أرأيت؟ إنهم لم يسجدوا لك!!

فسألهم الملك:

– مالكم لا تسجدون للملك؟

فقال «جعفر»:

– إنا لا نسجد إلا لله عز وجل فإن الله بعث إلينا رسولًا ثم أمرنا ألا نسجد لأحد إلا لله.

– ماتقولون في المسيح إذن؟

كان الموقف عصيبًا، وقد ساد في القاعة صمت وخيم عليها سكون، وكان الملك قد أخذ عودًا صغيرًا يعبث به بأسنانه وهو يستمع، ونظرت إلى وفد قريش فرأيت الابتسامة الماكرة على وجه «عمرو» وهو ينظر ناحية العرب. ثم تقدم «جعفر» وقال:

نقول فيه الذي جاء به نبينا محمد: فالمسيح هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، وقد أنزل الله في هذا قرآنًا: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (171) ﴾[42].

أخرج النجاشي العود من فمه ورفعه حتى

يراه الناس وقال:

- يا معشر القسِّيسين والرهبان هذه حقيقة المسيح، لا تزيد ولا تنقص، والله ما يزيدون على الذي نقول في المسيح ولو كان مثل هذا العود الصغير.

غمغم الكهنة بكلام غير مفهوم وارتفعت أصوات الاستنكار في القاعة، وتلفت بعضهم إلى بعض وتجهم وجه كبير الأساقفة، وكان الموقف عصيبًا قطعه صوت الملك وهو يقول:

- مرحبًا بكم أيها العرب ويمن جئتم من عنده، وأنا أشهد أن هذا الذي قرأتموه لا يأتي به إلا رسول، ووصفه موجود عندنا في الإنجيل، وهو الذي بشر به المسيح، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا الذي أحمل نعليه، اذهبوا يا «جعفر» فأنتم «سيوم» آمنون بأرضي، وانزلوا حيث شئتم، من سبكم غُرّم ثم من سبكم غُرّم، ما أحب أن لي جبلًا من ذهب وأني آذيت رجلًا منكم.

ثم التفت ناحية «عمرو» و«عمارة» وقال مخاطبًا كبير الحراس:

– ردوا عليهم هداياهم، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليَّ ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيَّ فأطيعهم فيه.

ثم ألقى بالعود وأمسك منسأته وجعل ينظر إلى بقية الوزراء والقادة نظرة الرضا وهم يقلدون الملك فيردون جميع الهدايا إلى «عمرو» و«عمارة»، وحين خرجا من قصر الملك رافقت وفدهم إلى الخارج، فقد كنت أريد أن أنتهزها فرصة لألقى «الزُّبَيْر» خارج القصر وأسمع منه رأيه فيما جرى في القصر فقد كانت كلمات الملك مدوية وقوية، لم أتوقع أن الملك بهذه الجرأة والوضوح في معتقده، وفي الخارج رأيت «الزُّبَيْر» وهو يتوجه ناحية عبد الله بن ربيعة الذي كان واقفًا وحده ثم ابتدره:

– ما هذا الذي تفعلونه يابن ربيعة؟ أهكذا تكون صلة الأرحام؟

- والله ما أردت هذا وما وافقت عليه، ولقد نصحت لـ«عمرو» ألا يفعل فلم يستمع لي وكنت أعلم أن عاقبة ذلك قطع الأرحام بيننا ولكني رأيت أنه أن آتي معهم أنا خير من أن يأتي غيري ممن لا يراعي نسبًا ولا ذمة ولا رحمًا، ألا ترى أنني لم أصحبهم أبدًا إلى النجاشي يا زبير؟ لقد كانا مختلفين منذ أن كنا في السفينة. وهل علمت بما دار فيها؟

- وما الذي دار؟

- حين كنا في البحر شرب «عمارة» الخمر مع «عمرو» وامرأته، فلما سكر «عمارة» قال لـ«عمرو»: مر امرأتـك فلتقبلني. قال «عمـرو»: ألا تستحي يا «عمارة»؟ كيف تريد من امرأتي أن تقبلك وهي من أشراف قريش ومن الأحرار وما هي لك بصاحبة؟!! فأخذ «عمارة» عمرًا يرمي به في البحر، وهو يقول: أنت وامرأتك عبيد لي ولأبي. كان سكران لا يعي ما يقول، فجعل «عمرو» يناشده الله حتى

تركه. ومنذ تلك الساعة و«عمرو» لا يكلم «عمارة» إلا قليلًا. وأنت تعلم أن «عمرًا» داهية العرب وهو لن يسكت حتى يهلك «عمارة» بحيلة من حيله. لقد سمعته بالأمس يقول لـ«عمارة»:

– يا «عمارة» ! إنك رجل جميل، فاذهب إلى امرأة النجاشي، فتحدث عندها إذا خرج زوجها، فإن ذلك عون لنا في حاجتنا، وأنت تعلم أن نساء الأحباش وخاصة ملكتهم تحب سماع الغزل والكلام الجميل، وأنت لا يعوزك هذان فتقرب إليها ثم كلمها في أمر هؤلاء العرب ألا ترى أن عمرًا يقود «عمارة» إلى فخ تكون فيه نهايته؟ وهل يجرؤ أحد من الناس أن يتغزل في امرأة الملك؟

كنت قد نسيت هذا الحدث ومرت عليه أيام ولكنني فوجئت يومًا بمنظر مهول. رأيت «عمارة» يجري في الطريق عريانًا كما ولدته أمه، والصبيان يعدون خلفه ويقذفونه بالحجارة

وهو يقول: أنا حمار الزرد، أنا الحمار المخطط. وقد تشعث شعره وتغيرت سحنته وامتلأ بالقذارات.

حين أخبرت «تَانِيشَا» ضحكت حتى كادت تسقط على الأرض ثم قالت:

– ألم تسمع بما حدث يا «سِيسِّي»؟ أنت ساذج مسكين فعلًا.

– وما ذاك يا أمي؟

– القصة يتناقلها الجميع، وعمومًا سوف أروي لك ما حدث. هذا العربي «عمرو» داهية شديد الكيد فعلًا، يبدو أن هناك خلافًا حدث بينه وبين صاحبه «عمارة»، فأرسل «عمارة» إلى زوجة الملك ليتحدث معها، ثم دخل على الملك فقال له: « إن «عمارة» رجل جميل وسيم. إذا خرجت خلّفك في أهلك، وإذا شئت فأرسل إلى بيتك الآن فإنه في بيتك ومع أهلك». فأرسل النجاشي رسولًا إلى بيته، فوجد أن «عمارة» يتكلم مع امرأته فعلًا، فصدق

النجاشي الخدعة، وسرعان ما عرضت الساحرة «سِيمُونَةُ» خدماتها للتخلص من «عمارة». فاستخدمت سحرها ونفخت في إحليله، فأصبح مجنونًا يجري في الطرقات. والعجيب في الأمر هو تبدل موقف «سِيمُونَةَ» فجأة إلى النقيض فهي التي كانت تحذرنا من العرب القادمين، وأنهم سوف يطفئون نيرانها، ولما جاء «عمارة» زارها في بيتها، وكانت تزودهم بالنصائح، ثم قلبت لهم ظهر المجن وأرسلت بناتها ففعلن بـ«عمارة» ما رأيت حتى أصبح مجنونًا يجري في الطرقات. ويبدو أن «سِيمُونَةَ» الساحرة تنوي أن تأخذه معها إلى جزيرة التمساح، فهو رغم كونه مجنونًا إلا أنه وسيم يفتن النساء، كما ترى وربما تدعوه إلى المبيت عندها.

قالت أمي هذا ثم أطلقت ضحكة خبيثة فهمت مغزاها.

قلت:

– ولكن يا أمي لِمِ حدث هذا التحول العجيب في موقف «سِيمُونَةَ» وهي التي كانت تحذرك من إيواء العرب؟

– «سِيْمونَةُ» ساحرة خبيثة شديدة المكر، وهي قد علمت وأيقنت أن العرب القادمين أصبحوا في حماية الملك، وأنها لا تقدر أن تغير هذا؛ ولذا فقد حرصت على ألا تخسر الملك والملكة، بل تستفيد من هذا الموقف بالتقرب إليهما حتى تضمن أن تكون لها المبادرة فيما يأتي من الزمان. ويبدو أن موقفها هذا هو لكسب الوقت وتغيير الخطط مستقبلًا متى حانت الفرصة للانقضاض عليهما. أنا أتوقع أن تسعى «سِيمُونَةُ» للوقيعة بين العرب وبين النجاشي مستقبلًا، أو بينهم وبين الكنيسة فهي تحسب لكل أمر حسابه، ابق وراقب الأحداث وسترى عجبًا.

مِنْسَأَةُ المَلِكِ

كان العرب فرحين جداًّ بما جرى في القصر، بيد أن الكنيسة كلها انقلبت ضد الملك، ولكنها لم تُظهر العداء حتى الآن، كنت أعلم أن الجو مشحون، وأنه سرعان ما سيظهر غضب الكنيسة فقد كان الكهنة مغيظين محنقين، وخاصة الكاهن «أنطونيوس»، لقيني في الطريق فشدني من يدي دون أن يتكلم وكان يسحبني سحباً إلى مسقوفته وبعد أن دخلنا أغلق الباب وأقبل عليَّ بوجه يملؤه التعجب وقال:

– ألم تسمع بما يقوله صاحبك؟

– ومن صاحبي يا نيافة الكاهن؟

– «أَصْحَمَة».

– أَصْحَمَةُ هكذا مجردة يا نيافة الكاهن؟ أليس هو سيدنا وسيدك الملك النجاشي ملك مملكة

عَلَوَة ورئيس الكنيسة وراعيها؟

- بلى، بلى. آسف لم أقصد الإساءة أو التقليل من الاحترام، فله كل التبجيل بالطبع! ولكنني الآن أخاطبك باعتباره صديقًا لك فقط وليس باعتبارك ترجمانه يا «سِيسِّي»، لا تفهمني خطأ!

- أنا أفهمك جيدًا يا نيافة الكاهن. قل لي ما الذي لم أسمعه؟

أدار الكاهن «أنطونيوس» ظهره وهو يكلمني وكان ينظر من النافذة نحو قصر الملك.

- كلام الملك عن السيد المسيح وطبيعة المسيح، ألا ترى أنه يوافق هؤلاء العرب في دينهم الجديد؟

- وهل قال الملك شيئًا لم يقله المسيح عن نفسه يا نيافة الكاهن؟

- كيف يقول عن المسيح إنه عبد؟ متى أصبح المسيح عبدًا؟ وهل نصدق كل هرطقة يأتي بها عربي من وراء بحر الجار؟ وأنا الذي ما كدت

أصدق أن أمية بن أبي الصلت انقطع عن بلادنا حتى يأتينا غيره بالمزيد من الهرطقات!

– يا نيافة الكاهن أليس في الإنجيل أن المسيح عبد؟

– أين هذا؟ أرني يا «سِيسِّي» فلربما أصبحت أعلم بالإنجيل مني!

– ألم يرد في أعمال الرسل: « فمن أجلكم أولًا أقام الله عبده وأرسله ليبارككم، فيتوب كل منكم عن سيئاته»[42]، ألم يرد أيضًا في أعمال الرسل: «تحالف حقًّا في هذه المدينة هيرودس وبنطيوس بيلاطس والوثنيون وشعوب إسرائيل على عبدك القدوس يسوع الذي مسحته»؟[43] ألم يقل أيضًا «باسطًا يدك ليجري الشفاء والآيات والأعاجيب باسم عبدك القدوس يسوع»؟ [44] ألم يقل المسيح بلسانه عن نفسه: «الحق الحق أقول لكم: إنه ليس عبد أعظم من سيده ولا رسول أعظم من مرسله»؟[45]

بُهت الكاهن «أنطونيوس» من هذا الرد،

وكأنه يسمع هذه الأعداد من الإنجيل لأول مرة في حياته، وكان فاتحًا فمه وهو يتابع كلامي، ثم ضحك وهو يقول:

– لا تفسر الإنجيل على هواك يا «سِيسِّي» لا لا لا. ليس هكذا، رويدك، فهذا مجرد تواضع من المسيح حين يقول هذا وهو أراد فقط أن يعلم تلاميذه التواضع حتى لا يظنوا أنهم أعظم من غيرهم، فالمسيح ليس عبدًا ولا إنسانًا عاديًّا، لا تقل هذا! لا يصح أن نقول عن المسيح: ابن الله. إنه عبد.

– بل المسيح عبدٌ لله الآب، مثلما هو إنسان، قال عن نفسه «أنا إنسان» والتلاميذ أنفسهم كانوا يقولون عنه هذا فوصفوه بأنه «رجل». ألم يرد في أعمال الرسل: «أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال.يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم كما أنتم أيضًا تعلمون»[46]. فماذا

قال سيدنا الملك مما يخالف هذه الأقوال؟

– اسمع يا «سِيسِّي» يا بني، مولاك الملك يريد أن يغير العقيدة المسيحية الراسخة؛ لأنه قرأ من إنجيل جدك «دَلمار» وهو نسخة غير قانونية بل هو أبوكريفا ولا أدري ما الذي تقوله هذه النسخة ولكنني متأكد أنها تقول عن المسيح كلامًا فظيعًا.

– أنا قرأتها كلها يا نيافة الكاهن ولم أجد فيها هذا الكلام «الفظيع» الذي تقول عنه، بل لم أجد فيها إساءة لسيدنا المسيح، ولم أقرأ فيها مخالفة للمسيحية الحقيقية، زيادة على كونها مترجمة عن الآرامية لغة المسيح نفسه.

– بل إنها نسخة لا تملكها الكنيسة ولا تعترف بها.

– إذا كنت تتحدث عن الأبوكريفا يا نيافة الكاهن فأنا قد قرأت العهد القديم الموجود عندكم بالكنيسة فوجدت أسفارًا غير موجودة في بقية نسخ العهد القديم ولا حتى في

الإسكندرية نفسها. فقل لي من أين أتيتم بـ «راعي هرماس» و«قوانين المجامع» و«رسائل أكليمندس»، و«المكابيين» و«طوبيا» و«يهوديت» و«الحكمة» و«يشوع بن سيراخ» و«باروخ»، و«أسفار أسدراس الأربعة»، و«صعود إشعياء»، و«سفر آدم» و«يوسف بن جوريون» و«أخنوخ» و«اليوبيل» إن لم تكن من أصل الكتاب القديم الذي جاء به فرمنتيوس؟

– إن أكبر مصيبة في تاريخ الكنيسة أن تكون عقيدة راعي الكنيسة ورئيسها مخالفة لمقررات المجامع المسكونية وقانون الإيمان يا «سِيسِّي». عقيدة الكنيسة في المسيح حسب قانون الإيمان تقول: {نؤمن بألوهية المسيح الكاملة، وبوجوده الأزلي مع الآب، وبولادته العذراوية، وحياته بدون خطية، وبموته البديلي، وقيامته بالجسد، وبصعوده، وأيضًا بشفاعته، وبمجيئه الثاني}. وكل ما يخالف هذه العقيدة فليس مسيحيًّا.

– اسمح لي يا نيافة الكاهن فقانون الإيمان يخالف نصوص الإنجيل. ففي حين يقول قانون الإيمان نؤمن بألوهية المسيح الكاملة، فإنه لا يوجد نص واحد صريح في الإنجيل زعم فيه المسيح بأنه هو الله أو قال «اعبدوني»، ولو مرة واحدة، في حين تجد أن الله في العهد القديم كثيرًا ما صرَّح عن نفسه بأنه هو الله وأمر الناس بعبادته.

– وهل كنت تنتظر من المسيح أن يقول للناس «أنا الله» حتى يقتله اليهود المتربصون به أو يسلموه للرومان ليقتلوه؟

– ها ها ها! يا نيافة الكاهن، إن كان هو الله فهل الله يخاف من اليهود أو يخشاهم؟

– ألم تعلم يا «سِيسِّي» بأن المسيح أخذ صورة إنسان! وأنه وهو في تلك الحالة يجري عليه ما يجري على الإنسان؟

– فلمن كان يصلي إذن يا نيافة الكاهن حين كان عرقه يتصبب كقطرات نازلة وكان يصلي

بأشد لجاجة؟ هل كان يصلي لنفسه؟

– كان ناسوته يصلي للاهوته يا «سِيسِّي»!! وكان يريد أن يعلم التلاميذ الصلاة.

– كيف سيعلمهم الصلاة وهو قد انفرد عنهم رمية حجر ليصلي؟

– عمومًا فما دمت مهتمًّا هكذا بدراسات اللاهوت يا «سِيسِّي» فلماذا لا نرسلك مع الشباب الذين ترسلهم الكنيسة لدراسة اللاهوت في الإسكندرية أو اليونان أو نيقية إن شئت خاصة أنك قريب من الملك فلربما تتضح الصورة أكثر لك وله وتتعلم شيئًا يفيدك ويفيده.

قال الكاهن هذا الكلام ثم توجَّه نحو باب المسقوفة وكأنه يشير إلى أن الحوار قد انتهى وأنه ينبغي أن أترك المسقوفة، مع أنه كان في بداية الأمر متلهفًا جدًّا للكلام معي، لابد أنه أصيب بالإحباط وشعر أنه لا فائدة من الحوار معي.

في اليوم التالي حين كنت متوجهًا نحو قصر سيدنا الملك تعمَّد الكاهن «أنطونيوس» أن يلقاني في الطريق ومعه شخص عربي كنت أراه لأول مرة، ولما وصلت قبالة مسقوفته خرج ومعه هذا العربي وبعد أن حيَّاني الكاهن قال:

– هل تعرف هذا العربي يا «سِيسِّي»؟

– في الحقيقة لا أذكر أني رأيته من قبل فمن هو؟

– هذا «عبيد الله بن جحش»، وهو أحد القادمين الذين كانوا على الدين الجديد الذي جاء به نبي العرب، واليوم ترك دينهم بعد أن أبصر النور الحقيقي، فأصبح بنعمة المسيح واحدًا منَّا وعلى ديننا.

– ولماذا تخبرني بهذا يا نيافة الكاهن؟

– ألست فرحًا بهذا الخبر؟ ألست مسيحيًّا؟ أم لم تعد؟ وعمومًا أردت أن أقول لك إنه حتى قومهم الذين جاءوا معهم ليسوا مؤمنين تمامًا

بهذا الدين الجديد. وأكبر دليل هو أن واحدًا منهم ترك دينهم وتبع دين المسيح.

كان العربي يقف معنا ويستمع للحوار ولا يعلق! وهو يلبس صليبًا كبيرًا من الخشب على صدره فكان يتحسسه أثناء كلام الكاهن ويتأكد أنه ما زال على صدره! ضحكت ضحكة هازئة وقلت للكاهن:

– عمومًا هنيئًا له الخلاص!

وفي المساء حين أخبرت «الزُّبير» لم يصدق الأمر فذهب مهرولًا إلى «أم حبيبة» زوجة عبيد الله وسألها فعلم منها أن عبيد الله هجرها وذهب إلى الكنيسة ليقيم مع الكهنة.

قال لي «الزُّبَيْر»:

– أريد أن أتحدث معه فهل ستأتي معي؟

وذهبنا إلى الدير المجاور للكنيسة والذي أصبح «عبيد الله» يقيم به، بعد أن ترك بيته وهجر «أم حبيبة» زوجته وطفلته الصغيرة

«حبيبة». وفي البداية لم يسمح الرهبان للزبير بمقابلة «عبيد الله» ولكنهم لما رأوني مرافقًا له تراجعوا وتركونا ندخل الدير. وكان الكاهن «أنطونيوس» ينظر ويراقب من نافذة مسقوفته، ولما انتبهنا إلى وقوفه خلف النافذة توارى بسرعة.

بوغت ابن جحش بدخولنا عليه فجأة، ولم يكن مستعدًّا. قام مسرعًا إلى الصليب المعلق من خيط على مسمار في الحائط فوضعه حول عنقه وقَبَّلَه، ثم أقبل نحوي يحييني وتجاهل «الزُّبَيْر». قال «الزُّبَيْر»:

– أنت تعلم يا بن جحش أنه لا إكراه في الدين، فهذا اختيارك، ولكنني أريد أن أعرف شيئًا واحدًا فقط.

– سل يابن صفية!

– ما الذي وجدته في النصرانية ولم تجده في الإسلام؟

– وجدت النور كله، فقد أبصرت سماحة

المسيحية وتسامحها.

– أليس ذلك في الإسلام يا بن جحش؟ فأنت تعلم أنه لولا أن الإسلام دين التسامح لقتلتك الآن من فورك هذا لأنك مرتد وداعية فتنة!

– رويدك رويدك يا بن صفية، فأنتم تنظرون من كوة الباب، أما أنا فقد فتح لي الباب كله فدخلت، وأنتم مازلتم عميان، تصأصئون، أما أنا فأبصرت.

– ماذا أبصرت؟ أنت تدخل في دين النصارى، والملك النجاشي نفسه شهد بالأمس للنبي محمد بأنه الرسول الذي بشر به المسيح. أليس عندك ذرة من العقل؟ هيا بنا يا «سِيسِّي» لا فائدة من الكلام مع هذا الرجل مطموس البصيرة.

وحين كنا نغادر باب الدير كان عبيد الله بن جحش يرفع صوته وراءنا عاليًا:

– فقحنا وصأصأتم يابن صفية. أبصرنا وأنتم ما زلتم تلتمسون البصر.

قال هذا بصوت عالٍ ثم ضحك بسخرية، وكأنه أراد أن يصل صوته إلى مسقوفة الكاهن «أنطونيوس». وانصرف «الزِّبَيْر» حزينًا ولم يتكلم. وحين مررنا بالقرب من مسقوفة الكاهن، تعمَّد «أنطونيوس» أن يفتح نافذة مسقوفته وينظر نحونا صامتًا في شماتة.

اليوم ذهبنا إلى مكاننا المعتاد على شاطئ النيل. وكان بالقرب منَّا بعض طيور اللقلق التي بدت غير مبالية بوجودنا. وكان بعضها يقف على رجل واحدة، ثم طارت فجأة فانتبهنا إلى حركة مريبة تأتي من وراء ظهورنا حيث جلسنا، فاختبأنا خلف نبات الصفصاف لنرصد ما يجري. وكانت هناك مجموعة من الرهبان تتسلل إلى النيل سرًّا قبيل المغيب وهم يحملون صناديق يضعونها داخل أحد القوارب التي تملكها الكنيسة. كان من الواضح أنها ثقيلة جدًّا فقد كان كل أربعة منهم يحملون صندوقًا واحدًا وقد توترت أعصاب أيديهم، وتقوست ظهورهم وعضوا على شفاههم وهم

يحملون الصناديق. كان «الزُّبَيْر» ذا فراسة لم أعهدها في أحد قبله. قال على الفور ملخصًا الأمر كله:

– الكنيسة تتواطأ سرًّا مع أعدائكم. وصناديق الذهب تتجه غرب النيل لتجييش الجيوش وقريبًا يغزونكم.

قال هذا وهو يعبث بغصن من الصفصاف البري الذي نما على جرف النيل، دون أن ينظر ناحيتي. قلت في لهفة:

– لا بد أن يعرف سيدي الملك أن الكنيسة تخونه وتطعنه في ظهره.

– علمت أنك تجادلت مع الكاهن «أنطونيوس»، وكنت أرجو أن تلين له في القول وتظهر له أنك مع الكنيسة، حتى تعلم ما الذي يطبخونه. ولكن فيما يبدو أنك أحرقت سفنك في جدالك معه، ومؤكد أنهم صنَّفوك مهرطقًا، وأظن أنهم قد نصبوا لك خشبة منذ الآن وربطوا فيها الحبل.

– هأ هأ هاااا. ما كنت أعلم أنك ساخر وأنك تجيد الهزل أيضًا يا «زبير». صرامتك وأنت تسخر تجعلني سأموت من الضحك. وعمومًا فأنا وأنت في نفس المركب. أنسيت أنك ذهبت إلى الدير وأضرمته بالحوار مع «ابن جحش»؟

– أنا لست حزينًا على «ابن جحش» بقدر حزني على «أم حبيبة». مسكينة هذه المرأة فهي لا تستحق أن يهجرها، ولكن بالتأكيد هو الخاسر فقد خسر دينه وخسر أعظم امرأة يمكن أن يحصل عليها رجل. قل لي متى تعلمني العوم؟

– الأمر سهل يا زبير. فأهم شيء هو أن تطفو فوق الماء وتحرك يديك وتركل برجليك؟

– لم أجرب الطفو حتى الآن، وأما الركل فما زلت أركل منذ ولدتني أمي. أتريد أن أركلك على قفاك الآن؟

كان بعض الوزراء الفاسدين قد أوهموا الابن الأكبر للملك السابق «نِيَّار» وإخوته أنهم هم

الأجدر بالملك وأن أَصْحَمَةَ ومن حوله قد اغتصبوا ملك أبيهم. حدث هذا الانقلاب بعد عودة الملك «أَصْحَمَةَ»الذي كانوا يطمعون أن يكون ألعوبة بين أيديهم لصغر سنه، ولكن سرعان ما خاب أملهم حين علموا أن الملك النجاشي الجديد كان شديد الحكمة عظيم الحيلة قويًّا في الحق. وزاد في حنقهم أن كثيرًا منهم تم عزله من منصبه ولم يتول أي منصب جديد، كما أن الملك قضى على كثير من مصادر أموالهم حين أوقف تجارة العبيد في عَلَوَة. وكان بعض هؤلاء الوزراء الفاسدين قد غادر سوياً وعبر النيل غربًا ، وأوعزوا إلى «كَالب بن نِيَّار» أنه أحق بالملك بعد أبيه وأن الوزراء يقفون معه، وأن الكنيسة ستدعمه وتؤيده. وقد تأكد هذا الأمر حين بايعه بعض البطارقة والأساقفة لحرب النجاشي.

كانت الشائعة قد بدأها أحدهم بين المصلين في الكنيسة. قال أحدهم: إن الملك النجاشي قد ترك النصرانية واتبع دين العرب، وانتقلت

الشائعة حتى صدَّقها أهل سوبأ. وبين عشية وضحاها تحولت سوبأ وانقلبت ضد الملك.

أصبح مجلس الملك خاليًا من الكهنة الذين تعلَّل بعضهم بالمرض في أول الأمر، ثم تجاسر بعضهم على الغياب دون تقديم مبررات أو أسباب. ثم غابوا جميعًا عن مجلس الملك. وعلمت أن الكنيسة قد أعلنت الحرب رسميًّا على الملك. وبدأ الناس يتسللون من سوبأ سرًّا ويعبرون النيل ليلًا ليلتحقوا بالعدو. وأصبح الأمر مخيفًا جدًّا وأصبح موقف الملك يضعف كل يوم، وكان لا بد من التدخل. ولأول مرة تدخلت في شئون الملك قبل أن يستشيرني ويأخذ برأيي. قلت لمولانا الملك:

– سمعتك بالأمس تقول يا سيدنا إن هذا هو النبي الذي بشَّر به المسيح، وأنا أعلم أنك قارئ جيد للإنجيل فقد أخبرني جدي «دَلمار» أنكما كنتما تتدارسانه كثيرًا، وخاصة النسخة الحبشية المترجمة عن الآرامية والتي كتبها

فرمنتيوس. فأين هي البشارات بهذا النبي؟

– هذا النبي هو صاحب «العمامة» أو الشريعة، ونحن نعلم أن «ملكوت الله» أو ملكوت السماوات الذي كان يوحنا والمسيح يبشران الناس به هو شريعة الله، وما جاء المسيح إلا ليبشر الناس بهذا الملكوت.

– معقول هذا؟. أين هذا يا سيدي؟

– ألم يقل المسيح: «إنه ينبغي لي أن أبشر المدن الأخرى أيضاً بملكوت الله لأني لهذا قد أرسلت»[47] فملخص رسالة المسيح هي البشارة بالنبي القادم والشريعة. وما حاول اليهود قتل المسيح إلا لأنه أخبرهم بأن الملكوت والشريعة ستُنزع منهم وتُعطى لأمة أخرى غيرهم. وواضح جداً أن نبي العرب هو صاحب الملكوت فهذا زمانه، وهو قد ظهر في هذا الزمان. واليهود كانوا ينتظرونه ويعرفون هذا مثلما يعرفون أن الملكوت الذي هو الشريعة ستنزع منهم، فلن تكون في بني يعقوب شريعة.

فإذا نزعت منهم فلمن تكون؟ مؤكد أنها ستكون في بني عمومتهم الذين هم العرب. وحديث المسيح لليهود في الإنجيل أوضح من الشمس: «لذا أقول لكم إن ملكوت الله يُنزع منكم ويُعطى لأمة تعمل أثماره»[48].

– ولكن يا سيدي هل في الكتاب المقدس أي بشارة بأن الشريعة ستعطى للعرب أو سيجيء نبي منهم؟

– نعم يا «سِيسِّي» هناك بشارات في العهد القديم ومنها كلام الرب لموسى النبي: «يُقِيمُ لَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِكَ مِنْ إِخْوَتِكَ مِثْلِي. لَهُ تَسْمَعُونَ»[49]. فلم يقل له «من قومك» وإنما قال له «من إخوتك» فمن هم إخوة بني إسرائيل إن لم يكونوا العرب؟

– لو جمعت أهل سويأ يا سيدنا وتحدثت إليهم فلربما يوضح هذا كثيرًا من الأمور، لأن عَلَوَة كلها أيقنت الآن أن الشائعة التي تقول إنك دخلت في دين العرب الجديد صحيحة فقد

أصبحت على كل لسان. وأهل عَلَوَة وسوبأ يحبونك حبًّا عظيمًا، فلو أوضحت لهم الأمور لوقفوا معك جميعًا.

- هل ترى هذا؟

- نعم يا سيدي.

لم أسمع رد الملك على اقتراحي، ولكنه بدلًا من ذلك كلفني بدعوة التجار إلى القصر بعد يومين، وحين أتى الموعد وجاء التجار متعجبين من إفرادهم بهذا الدعوة ومتلهفين لما سيقوله الملك كان كلام الملك مقتضبًا وموجزًا:

- أنا جمعتكم لأحدثكم بنفسي بدلًا من إرسال المنادي. من يبيع للأعداء طعامًا أو شرابًا أو سلاحًا أو دابة فهو خائن لملكه ولعَلَوَة وسوف أتأكد بنفسي أنه سيلقى جزاء الخيانة. ومن يبع لهم من التجار الذين يأتون من خارج عَلَوَة فسوف أتأكد بنفسي أنهم لن يطئوا أرض عَلَوَة بعدها أبدًا ما دمت حيًّا. انصرفوا.

انتشر الخبر بسرعة ووصل للأعداء فأدركوا أنه يجب عليهم سرعة المبادرة قبل أن تنضب إمداداتهم التي كانت تأتي من شرق النيل أصلًا.

فجأة استدعاني الملك إلى غرفته الخاصة وسألني:

– هل تريدني أن أكذب على الرعية يا «سِيسِّي»؟

– لا لا يا سيدي ما قصدت هذا.

– إذن أخبرني كيف أواجه الناس وماذا أقول لهم؟

– الأمر غاية في البساطة يا سيدي لو أذنت لي.

– تفضل أوضح لي.

أوضحت فكرتي كاملة للملك فنفذها كلها بتفاصيلها. أحضر الملك قطعة وكتب عليها «أشهد أن لا إله إلا الله وأن المسيح عيسى عبده ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم»

ثم وضع القطعة تحت قباءته وخرج إلى الناس. وكان أهل سوبأ قد اجتمعوا في ساحة القصر فتكلم الملك وقال:

- يا أهل عَلَوَة ألست أحق الناس بالملك؟

- بلى.بلى فليعش سيدنا الملك.

- كيف رأيتم سيرتي فيكم؟

- خير سيرة. فأنت أعدل الناس وأحكم الناس.

- فلماذا خرج هؤلاء عليَّ ولماذا ساندهم بعض الكهنة؟

- لأنهم يقولون إنك فارقت ديننا وزعمت أن المسيح عبد!!

- فماذا تقولون أنتم في المسيح؟

- نقول المسيح هو ابن الله.

وضع الملك يده على صدره فوق العبارة المكتوبة على القطعة التي خبَّأها تحت القباء وقال:

- وأنا أشهد أن المسيح لم يزد على هذا شيئًا.

نجحت الخطة، وانفض الناس جميعًا وهم يهتفون بحياة الملك. وأسقط في يد الكنيسة. وانقلب السحر على السحرة. وسرى الخبر بأسرع من الخبر السابق. وحين كان النجاشي منصرفًا من هذا اللقاء التفت فرآني أسير خلفه، فعاد وأمسك بيدي وجعلني أسير معه جنبًا إلى جنب وقال:

- «سِيسّي»، لم تكن نظرتي فيك خائبة. أنت مثل جدك «دَلمار» تمامًا. مشورتك أنقذت عَلَوَة من الدمار، وأنقذت الملك من الخلع. الآن أنا مطمئن للنصر. وأن حولي رجالًا هم جديرون بمناصبهم. ولكنني أريدك أن تعرف جيدًا ما هي عقيدتي في المسيح فقد كان جدك «دَلمار» يعرفني جيدًا ويعرف عقيدتي.

- إنه لشرف لي يا سيدي فتفضل اشرح لي.

- أنت تعلم أن أهالي مملكة «أكسوم» الذين ما زالوا يشكلون خطرًا على مملكة عَلَوَة من

الجنوب، قد اعتنقوا الديانة المسيحية في زمان جدي الأكبر، في وقت بدأت فيه الوثنية تنهار في مملكة النوبة شمالًا والتي تحولت بدورها إلى المسيحية، وأصبحت عَلَوَة بين مملكتين مسيحيتين، فرأى جدي أن ينأى بعَلَوَة عن الوقوع في مصيدة الصراع معهما، فأرسل كتابًا إلى ملك النوبة أظهر فيه – مداراةً – رغبته في استقدام الأسقف «لونجينوس» لينشر المذهب اليعقوبي الذي يدين به جيرانه الأقباط والذين كانوا قد استقر كثير منهم في مملكة النوبة، وهو المذهب الذي تدعمه الإمبراطورة «تيودورا» ذات النفوذ الشعبي القوي في البلاد المصرية.

ملك النوبة لم تخْف عليه بالطبع نوايا جدي ودوافعه الحقيقية ولكنه استغل الفرصة حين رأى في ذلك مصلحة دينية وأمنية وسياسية لمملكته فاستجاب لجدي أملًا في توحيد مواقف المملكتين لمناهضة البجاة شرقًا والذين هم عدو مشترك. وحين وصل الأسقف

«لونجينوس» سعى لمناهضة الملكانيين في عَلَوَة ليحدَّ من نشاطهم إن لم يكن شعبيًّا فلا أقل من أن يجتث لهم كل أثر في بلاط جدي. كما سعى في الوقت نفسه لتحبيب جدي في مذهب اليعاقبة وإيغار صدره على الذين عذّبوا دُعاته. وعمل بدهاء ومكر شديدين لإشاعة الثقافة اليونانية الكنسية وسط أعوان جدي، كما أحضر من القسطنطينية كثيرًا من نسخ الأناجيل والصلوات في سبيل تحقيق ذلك. وكان أبي يعلم أيضًا أن هناك صراعًا خفيًّا يدور بين اليعاقبة والملكانيين الذين نجحوا في استمالة بعض أهالي عَلَوَة لمذهبهم واستمالوا بعض القبائل مثل قبائل القرعان، وأرسلوا مناديب للإمبراطور بمدينة القسطنطينية لتحقيق هدف ظاهره الرغبة في تكميل النقص في معلمي الديانة المسيحية وباطنه تجسيد دور الإمبراطور في بلادهم. وكان أبي يراقب كل هذا ويعلمه. وقد حكى لي جدك «دَلمار» عن كل الخفايا، وأن ما يدور حولنا إنما هو صراعات

سياسية تلبس قناع الكنيسة، ولكن كل ما يدور حولنا ليس هو دين المسيح، فحقيقة المسيح هي ما جاء به هؤلاء العرب، وهو الدين الحق، الذي يقول بأن المسيح لا يعدو كونه عبدًا لله ورسولًا ونبيًّا وروحًا من الله. وهو ليس أقنومًا كما تزعم الكنيسة وليس هو الله المتجسد المتأنس. ولم يأت ليموت على الصليب أو ليكفر الخطيئة الأصلية، بل جاء ليبشر الناس باقتراب ملكوت السماوات وشريعة نبي الإسلام. هذه هي عقيدتي. ولكنني لا أجرؤ أن أعلنها أكثر مما فعلت، وإلا استغلتها الكنيسة لتحقيق أطماعها السياسية، فإذا فهمت هذا فقد فهمت عقيدتي. ولن أسمح للكنيسة أن تجعل البلاط محلًّا للصراعات وسوف ترى في الأيام القادمات ما سيكون.

كلام الملك أصابني بالذهول، فقد كان فهمه واضحًا ومرتبًا، ولكنني لم أعجب من جرأته في إيضاح ما يؤمن به، فقد حدثني عنه جدي «دَلمار»، الذي كان يرى نفس رأيه، وانتهى به

الأمر إلى اتباع دين هؤلاء العرب حتى مات.

تذكرت وصية جدي «دَلمار» فما زال صدى كلامه يتردد في أذني:

- «عليك أن تبذل كل ما في وسعك ليبقى هؤلاء العرب في بلادنا آمنين؛ لأنه من الواضح إن كان ما يقولونه صحيحًا - وأغلب ظني أنه صحيح - فسوف يلقون شرًّا كبيرًا وسوف يتربص بهم كثير من الأعداء، فقد خاب ظن اليهود في ظهور الملك منهم لأنه تبين أنه من العرب بني إسماعيل وليس من بني إسرائيل بن إسحاق».

في اليوم التالي جمع الملك قبائل «العَنَج» فلبوا النداء وكانوا عمالقة طوال الأجسام فجاءوا وهم يسدون الأفق. وتجمع قادة الجيوش ورؤساء الكتائب، وكان حشدًا مهيبًا. وتكلم النجاشي فقال:

كنت عزمت ألا أتحدث بما صنعه هؤلاء الخونة وكنت قد عقدت العزم على العفو عنهم

بعد كل ما فعلوا، فقد تآمروا على أبي الملك الأبجر حتى اغتالوه في قصره، وتآمروا عليَّ فاختطفوني وباعوني عبدًا، ولكن القدير أنقذني منهم وردَّ إليَّ ملكي وملك أبي. والآن يريدون أن يغزوا سوبأ، وقد ساندهم بعض الكهنة الفاسدين، بما يسمُّونه «جيش الكنيسة»، ليقضوا على ملك النجاشي طمعًا في السلطة، وهذا لن يكون! وأنا ماضٍ إليهم وسأعبر النيل غدًا وأتقدم الجميع، فإذا قُتلت فلكم أن تولُّوا أحدًا منكم عليكم، جديرًا بملك سوبأ. وإن نصرني القدير أريد منكم أن تستأصلوهم من دولة عَلَوَة إلى الأبد حتى لا يفكِّر أحدٌ في غزوها بعد هذا!

كنت قد قرأت في كتب التأريخ عن الجيوش القديمة وبأسها، ولكنني لم أر في حياتي هديرًا قويًّا وصادقًا يخرج من الحناجر كما سمعته اليوم. جدران بيوت سوبأ ارتجت واهتزت الأرض تحت وقع أقدام العَنَج العماليق. الحراب أُشرعت وارتفعت في الفضاء وكأنها

حقل من الذرة له سنابل من أسنة الرماح.
أغاني الحرب وأناشيدها ملأت الساحات.
وطارت الجيوش طيرانًا نحو السفن الرابضة على ضفة النيل الشرْقيَّة وكأنها طيورٌ كاسرةٌ تأوي إلى أوكارها في أعلى قمم الأشجار.
أشرعة القوارب نُشرت فملأت فضاء النيل.
والهتافات أفزعت طيور اللقلق الرابضة فحلَّقت وانطلقت تحوم فوقهم.

زاد احترامي للملك النجاشي حين أمرني – ونحن في غمرة الاستعداد للحرب – أن أجمع له العرب المهاجرين القاطنين في سوبأ؛ فأيقنت أن هذا الملك لا ينسى الأمور الصغيرة حتى أثناء اهتمامه بالعظائم. وحين أخبرت العرب توجَّسوا من أن الملك سوف يأمر بطردهم أو ردهم إلى بلادهم.

جاءوا إلى مجلس الملك بسرعة. وحين علموا عزم الملك على الحرب عرضوا أن يشاركوا مع الملك فيها، فابتدرهم الملك قائلًا:

- أنتم ضيوفنا وليس من المروءة أن تتكلفوا حربنا من أجل أننا آويناكم. وإني ماض لقتال الأعداء وقد هيأت لكم سفنًا على النيل، وأعددت لكم فيها المؤن من الطعام والشراب، فاركبوا فيها وانتظروا فإن هُزمت فامضوا حيث تريدون أعلى النهر أو أسفله، وإن ظفرت فاثبتوا. وأنا على عهدي معكم لا أنكث ولا أُبدّل، ولن أسمح أن يتعرض لكم أحد بأذى ما بقيتَ.

قائد الجيش نصح الملك ألا يذهب بنفسه للحرب، وأن بقاءه داخل سوبا يمنع الفتنة الداخلية، وأن قادة الجيش قادرون على دحر الأعداء فاستجاب له الملك.

أصاب العرب حزن عظيم وأسف شديد لما سوف يحدث خلال الأيام القادمات وكانوا يخشون أن ينتصر الأعداء على النجاشي، خصوصًا وأن هناك حشودًا ضخمة قد توافدت على جانب النيل الغربي، وقد ائتلف الكارنينا

مع أعداء الملك وناصرتهم الكنيسة بأموالها وذهبها ورجالها. وسافرت وفود الكهنة سرًّا ليناصروا المعتدين. ولكن العرب رغم ذلك لم ينتقلوا إلى السفن التي أعدَّها لهم الملك النجاشي بل بقوا في سوبأ.

وعند فجر اليوم التالي امتلأ النيل بالرماح والأقواس والسهام والسلاح، مشرعًا في أيدي العَنَج العماليق يعبرون بالقوارب. وكان البعض منهم يخوض في النيل وكأنه يلهو. وامتلأ النيل بالزبد الطافي وكأنه قد غضب مع الملك الذاهب للقتال. وانطلقت الأناشيد والأهازيج من حناجر الغزاة، العابرين غربًا. وسمعنا قعقعة السلاح ورأينا سحب الغبار تسد الفضاء بعد أن عبر العماليق النيل. ثم أصبحت الأصوات تبتعد رويدًا رويدًا، ثم لم يعد هناك غير السكون والترقب والحذر والأبصار تبتدر كل قادم من جهة النيل، والآذان تشتاق لكل خبر جديد. وارتفعت الشمس في كبد السماء. العرب كانوا قلقين جدًّا وقد خيَّم الحزن على وجوههم، خوفًا

من أن تكون الغلبة للعدو فيأتي ملك آخر لا يعرف من حقِّهم ما كان يعرفه أَصْحَمَة الملك فجعلوا يدعون الله ويستنصرونه للنجاشي واجتمعوا صفًّا وأخذوا يصلون.

وفي غمرة الترقب والتوتر قال عثمان بن عفان:

من رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم وينظر لمن ستكون الغلبة ثم يأتينا بالخبر؟

قال «الزُّبَيْر»:

– أنا أحدثكم سنًّا فدعوني أنا الذي أعبر النيل لأنظر لكم.

ولم ينتظر «الزُّبَيْر» إجابة منهم، فشرع في التنفيذ. ذهبنا إلى النيل، وأخذ «الزُّبَيْر» معه قِرْبة من قرب استقاء الماء، فنفخها بفمه ثم ربطها ربطًا محكمًا، واستوثق من الرباط ثم ربطها بحبل «عشميق» على صدره، ولما رآني أنظر إليه ضحك وقال:

- لماذا لم تعلمني العوم يا «سِيسِّي» فقد طلبت منك أكثر من مرة؟ آه فهمت ، لقد كنت تعلم أنني سأفعل هذا في يوم من الأيام، حتى تجلس على الضفة وتراني وأنا أغرق وأستغيث لكى تنقذني. عمومًا لو انفتحت هذه القربة وأنا في وسط النيل ومِت غرقًا، فسوف آتي وأركلك على قفاك.

كدت أقع على قفاي من الضحك وأنا أسمع «الزُّبَيْر»! كان يمزح في وقت الجد، وكانت لهجته في المزح صارمة ولكنها تجعلك تضحك رغمًا عنك.

- هأ هأ. لا أخشى عليك من الغرق يا زبير، بل أخشى أن يتناولك أحد أفراس النهر على مائدة الإفطار فهي كما ترى قد تجمعَّت غاضبة حتى أخافت التماسيح. ولكن يمكنني أن أفعل هذا بدلًا منك يا زبير فأنا أجيد السباحة.

لم ينتظر «الزُّبَيْر» ليسمع ردي فقد ألقى نفسه في جسارة وسط أمواج النيل الهدَّارة وجعل

يضرب الماء بيديه ويركل برجليه محاولًا السباحة غربًا، وحمله التيار حتى اختفى عن أعيننا، فقد كان الوقت «دميرة» وكان النيل في أشد أيام فيضانه واتساعه وسرعته. كانت بعض أفراس النهر الشرسة قد تجمعت في المكان، ولكن «الزُّبَيْر» لم يعبأ بها واستمر يخبط الماء بذراعيه وهو يعبر النيل. وكانت التماسيح أيضًا على مقربة من المكان ولكنها اتخذت جانبًا قصيًّا، ولزمت أماكنها متأدبة في حضرة أفراس النهر، فالتماسيح تخشى أفراس النهر ولا تقترب منها؛ لأن فرس النهر يستطيع أن يقصم التمساح نصفين لو ضربه بفكه الضخم القوي. كنت خائفًا على «الزُّبَيْر»، لكنني في نفس الوقت كنت مندهشًا جدًّا لجرأته وجسارته.

اجتمع العرب جميعهم رجالًا ونساء على ضفة النيل واغتسلوا وتطهروا ثم صفَّهم عثمان بن عفان صفًّا واحدًا وصفَّ النساء خلفهم وبدءوا يصلون ويدعون للملك النجاشي

بالظهور على عدوه والتمكين له في بلاده.

وطال الانتظار والترقب بضع ساعات، لم تخل من الصلاة والتوتر. وفجأة لمح أحد العرب «الزُّبَيْر» مقبلًا يسبح على قِرْبته قادمًا من الطرف الغربي للنيل، وظن الجميع أن الهزيمة قد حاقت بجيش النجاشي وأن «الزُّبَيْر» قد عاد مسرعًا ليحذر أصحابه حتى يتوجهوا إلى المراكب الشراعية لينجوا من بطش الأعداء كما نصحهم النجاشي قبل الحرب. ولكن «الزُّبَيْر» كان يلوح بثوبه ويصيح بصوت قوي، ونقل الماء صوت «الزُّبَيْر» الذي كان يحمل البشارة بانتصار الملك النجاشي أَصْحَمَةَ بن الأبجر !

حين وصل «الزُّبَيْر» قال للعرب الذين كان يعانق بعضهم بعضًا وهم ينتشلونه من الماء:

– أبشروا بانتصار الملك أَصْحَمَةَ، وهزيمة الخونة الأعداء. لقد رأيت جيوش العَنَج العمالقة تطارد فلول المندحرين وتمزقهم كل ممزق.

وقتل «كالب» في المعركة وتم أسر بعض الكهنة أحياء.

على الفور طرنا أنا و«الزُّبَيْر» طيرانًا لنبشر الملك أَصْحَمَةَ بانتصار جيوش سويا على الأعداء. ركبت فرسي وأردفت «الزُّبَيْر» خلفي. وكان الفرس يعرف طريقه. ودخلنا قصر النجاشي على الفور. وكنا نجري جريًا نحو منصة الملك. وتأهب الحرس بحرابهم المشرعة لمنع «الزُّبَيْر» من الاقتراب من الملك فقد كانوا يعرفونني ولا يعرفون «الزُّبَيْر». ولكن الملك أشار إليهم بيده فسمحوا لنا بالاقتراب معًا. وسجدت للملك بينما أشار «الزُّبَيْر» بيده بالتحية وقال:

– أبشر أيها الملك فقد أجرى الله النصر على يدي جيوشك! ودحر الأعداء فتفرقوا وانطلقوا هاربين، وقُتل قائدهم «كالب» وأُسر بعض الكهنة الخونة. رأيت كل هذا بعيني. فقد عبرت إلى هناك وكنت في ميدان المعركة وقريبًا من

كل هؤلاء.

كان وجه الملك يكاد يضيء من الفرح. وعلى الفور قام وأخذ بيد «الزُّبَيْر» وأجلسه على كرسيه وقدَّم له منسأته هدية. ثم أعلن الملك النجاشي قيام مدينة سوبأ على الجانب الغربي للنيل أيضًا مثلما هي قائمة على الجانب الشرقي منه. وعلى الفور انطلق منادي الملك في سوبأ وما حولها يعلن النبأ للناس. وتقاطر الناس حول قصر الملك.

قلت للزبير مازحًا:

– غدًا ستعلمني العوم في النيل يا «زبير» وتحكي لي كيف فعلت فعلتك هذه؟ أنا الذي كنت أسبح في النيل كل يوم ما كنت لأجرؤ أن أفعل ما فعلت أنت اليوم.

كان «الزُّبَيْر» فرحًا بمنسأة الملك فغمزني بها في صدري وقال:

– الموضوع كله يكمن هنا. ثق بالله وتوكل عليه ولا تبال وأنت ستصنع العجائب.

وبالمناسبة إن كنت لن تموت إلا مرة واحدة، وأنت لا تعرف متى ولا أين ولا كيف، فمم تخاف؟

قال عبد الرحمن بن عوف:

– هذه المنسأة تساوي ثروة يا زبير فحافظ عليها.

– بل هي من الآن هدية مني لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

هؤلاء العرب يحبون نبيهم حبًّا ما رأيت مثله، فأحببته معهم قبل أن أراه، وتمنيت أن أراه. ربما لو كان هنا في عَلَوَة لسعيت حتى أقابله وأسلم عليه.

انقلبت سوبأ كلها بين عشية وضحاها من مدينة الترقب والتوجس والخوف والأشباح والسكون إلى مدينة الفرح والاحتفالات بالنصر. تحولت فجأة إلى مدينة تعجُّ بالحركة والحياة. كان النحاس الضخم يملأ الساحة ويصم الآذان بصوته القوي وكانت العصي الخشبية المكسوة

بجلود أذناب البقر في أيادي الموقعين على الطبول النحاسية تجعل القلوب تئزُّ قبل أن يئز النحاس. وتوافدت أسراب الفتيات يرقصن ويطلقن الزغاريد. وتبارى الفتيان في الرقص واستعراض الفتوة والقوة. نافخو الأبواق وضاربو الطبول صاروا يقومون بحركات استعراضية وهم يلبسون الملابس المزركشة. الفرحة كانت على كل وجه والزهو كان يملأ المكان.

مجلس الملك النجاشي أصبح عامرًا وغاصًّا بالمهنئين. الحرس وجدوا صعوبة كبيرة في كبح حماس القادمين للتهنئة. الناس سجدوا للملك والوزراء قبلوا يديه والجواري صرن أكثر قربًا من الملك، وتتمنى كل واحدة منهن أن تنال شرف لمس جسده أو ملابسه أو الوقوف خلفه. شهد القصر نشاطًا مجنونًا لأول مرة منذ وقت طويل.

الكنيسة أصبحت مضطربة جدًّا. القساوسة

كانوا يأتون مهرولين في محاولة يائسة لإثبات ولائهم المطلق للملك. الخوف كان يملأ كل جوانح الكنيسة وقساوستها وكهنتها.

الكاهن «أنطونيوس» جاء في كامل لباسه وزيه وقد اصطف خلفه جميع الكهنة في أزيائهم المميزة. حرصت على أن يستقبلهم الملك كالعادة ولكن بطريقة مغايرة، حتى يعلم الناس أن الملك لم يتغير، وفي الوقت نفسه يُريهم أنه قد كشف ما كانوا يدبرون. كان الملك عازمًا على تنحية الكنيسة بعيدًا عن البلاط الملكي وتدمير ما يُسمَّى جيش الكنيسة. تولى الملك بنفسه نزع ملابس الكهنوت عن الكهنة الخونة، وجردهم من رتبهم ونزع عنهم الألقاب، وكان يقول إنهم لا يستحقون أن يخدموا في الكنيسة. الكاهن «أنطونيوس» اكتفى بالصمت.

الملك لم يجلس بقية الكهنة في صدر البلاط مثل كل مرة، واكتفى بإبقائهم في ركن قصي

منه، خلف الجالسين. وأخبر الكاهن «أنطونيوس» بأنه سوف يرسل مندوبًا من بلاط الملك ليساعدهم في إدارة ممتلكات الكنيسة والإشراف على مستودعاتها. «أنطونيوس» كان يموت ببطء في داخله ولكنه لم يعترض على قرار الملك. بكلمات قليلة وضع الملك يده على ذهب الكنيسة وأموالها وقضى على أحلامها في السيطرة. وحين همَّ الكهنة بالخروج قال الملك:

– قل لي أيها الأب «أنطونيوس» من أين أتيتم بالكتاب المقدس الذي اعتمدتموه مرجعًا لكم في كنيسة مملكة عَلَوَة؟

– من الإسكندرية بالطبع يا سيدي الملك المبجَّل.

– لماذا نستورد نسخة من الإسكندرية وعندنا أصل الكتاب المقدس بخط «فرمنتيوس السرياني»؟

– لأن النسخة التي عندنا بالكنيسة هي المعتمدة من مجمع نيقية يا سيدي الملك بينما

يطلقون على نسخة «فرمنتيوس» أبوكريفا.

– وهل قرأتها أيها الأب المحترم؟

– لا لم أقرأها يا سيدي !!

– ولكنني قرأتها وأنا الآن أعتمدها مرجعًا للكنيسة في مملكة عَلَوَة باعتباري رئيس الكنيسة وراعيها.

كانت أوصال الكاهن «أنطونيوس» تضطرم كلها، وكان يختلج اختلاجة المذبوح وهو يخرج من قصر الملك. وفي الطريق إلى فرسه عثر مرتين وكاد يسقط على الأرض. وساعده الحرس على امتطاء فرسه فقد كان عاجزًا عن الركوب وحده. واستحثَّ فرسه ليخرج بسرعة من باب القصر، ثم غاب عن عيني ولم أره بعدها!

خلال أسبوع واحد أو عشرة أيام بدأت وفود المهنئين من مملكة المقرة ومملكة أكسوم ومملكة النوبة تتقاطر على مملكة عَلَوَة وضاقت بهم بيوت الضيافة. وجاء رؤساء

القبائل وزعماؤها. حتى الزنج والزنافج أرسلوا وفودهم. القوات التي كانت محتشدة على الحدود في الجنوب الشرقي من مملكة عَلَوَة تراجعت بعيدًا ولم يعد لها أثر.

انتعشت أسواق سوبأ. وحتى سوق العبيد صار منتعشًا فقد بيع فيه الأسرى عبيدًا. الملك تعلل بأن بيع الأسرى عبيدًا من شأنه أن يقوي شوكة المملكة فلن يفكر أحد في الخروج ضد الملك بعدها، والأسرى يدفعون ثمن خروجهم ضد الملك. وكان يعلم ما يعانيه العبد في الأسر فأراد أن يذوق الأعداء من هذه الكأس.

استمر بناء الجزء الغربي من مدينة سوبأ غرب النيل وتم بناء مساكن كثيرة للعنج والجنود على الشاطئ الغربي.

انتعش حي العرب وازدهر. شوارعه أصبحت دائبة الحركة، والناس يروحون ويجيئون في طرقاته. الناس في سوبأ استبشروا خيرًا بالعرب، فقد تغيرت سوبأ وازدهرت أحوالها.

أهل سوياً أصبحوا أكثر قربًا من بعضهم البعض وكان العرب هم الرابط الذي يجمع بين أهل سوياً. لم يعد للكنيسة سلطان قوي لحل المشكلات، وتقلص عدد المصلين في الكنيسة. الناس بدءوا يلتفون حول العرب ويغشون مجالسهم ويتعلمون منهم. كانت وجوه هؤلاء العرب هي غير الوجوه التي اعتاد الناس رؤيتها حين يأتي العرب للتجارة ويروحون. هؤلاء العرب الجدد تميزوا بحسن المعاملة وطيب المعشر. والناس في سوياً أصبحوا يبحثون عن أي سبب أو مبرر للتقرب منهم ومخالطتهم.

أمس وصل كتاب من محمد بن عبد الله رسول الإسلام يحمله «عمرو» ابن أمية الضمري إلى الملك أَصْحَمَةَ يخطب أم حبيبة، فقرأته عليه، وعلى الفور أرسل النجاشي جاريته «أبرهة» لتخطبها وتأتيه بردها إن هي وافقت على الزواج. وحين عرف أنها موافقة تكفل بمهرها بالإنابة عن رسول المسلمين. فدفع أربعة آلاف درهم على الفور.

قالت لي «تَانيشَا» إنها كانت مع أم حبيبة حين جاءت «أَبرهة» جارية النجاشي التي تتولى شئونه الخاصة موفدة من الملك النجاشي فاستأذنت للدخول عليها فأذنت لها.

قالت «أبرهة»: إن مولاي الملك النجاشي أرسلني يقول لك إن النبي محمدًا كتب إليَّ أن أزوجكه فقلت لها بشرك الله بالخير، ونزعت سواري الفضة والخذمتين اللتين كانتا عليَّ وخواتيم الفضة التي كانت في أصابع رجلي وأعطيتها كل ذلك سرورًا بما بشرتني به.

قالت لي «أبرهة» يقول لك الملك وكِّلي من يزوجك، فأرسلت إلى «خالد ابن سعيد بن العاص» على الفور فوكلته .

قالت لها حسنة:

مبارك إن شاء الله يا «أم حبيبة». وسوف أرسلك إلى يثرب مع ابني «شرحبيل».

قالت «بَرَكَة»:

– خذيني معك يا أم حبيبة. فأنا كما ترين بلا زوج، ولا أهل لي هنا. وقد أحببتك حبًّا جمًّا، فخذيني معك حيث توجهت ركابك.

– حسنًا يا «بَرَكَة» سنكون معًا بإذن الله، وستكونين رفيقتي إلى يثرب. وقد أخبرني «سِيسِّي» أن الملك النجاشي سوف يبعث معنا «ذا مخمر» ليخدم النبي ويكون معه. وإذن فسيكون هناك ركب إلى يثرب. كما أن «الزُّبَيْر» أعطاني منسأة الملك هدية منه لرسول الله وسوف أحملها إليه.

النجاشي تولَّى بنفسه وكالة الزواج بالإنابة عن رسول الإسلام، ولما أن كان من العشي أمر الملك النجاشي «جعفر بن أبي طالب» وجميع المسلمين أن يحضروا واحتفل الجميع بهذا العرس. ثم سكب الملك الدنانير بين يدي القوم فأخذها خالد بن سعيد فقبضها ثم أرادوا أن يقوموا فقال الملك النجاشي:

– اجلسوا فإنه لا بد أن يؤكل طعام على

التزويج.

فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا.

مَكْتَبُ التَّرْجُمَان

بعد صراع نفسي طويل بدأت أعتاد الجلوس في مكتب جدي «دِلمار». فقد كنت أتهيبه ولا أجرؤ على المكث فيه طويلًا. سكان القصر كانوا ينادونني «دَلمار الصغير» ثم أطلقوا على المكان «مكتب سِيسِّي» بعد أن كان اسمه «مكتب دَلمار». واحترامًا لجدي أُمرت بتسمية المكان «مكتب الترجمان». حين دخلت المكتب لأول مرة بعد أن تنيح «دَلمار» أحسست كأنني أتعدَّى على مكتبه، وكنت أراني آخذ شيئًا ليس لي. وحين جلست على منبره الذي كان يكتب منه، كنت أحس بطيفه يحوم حول رأسي. وكنت أتهيب المكان جدًّا، ولكنني مع مرور الوقت بدأت الاعتياد عليه. كان المكتب يسوده الهدوء فهو يقع في الجزء الشمالي من القصر ويطلُّ على الشرفة الشمالية الجميلة. والمكان بحكم محتوياته

محظور لا يدخله أحد أبدًا إلا بعض الجواري اللاتي يأتين لتنظيف المكان أو تقديم الخدمة ثم ينصرفن على الفور. مكتب «دَلمار» ضخم ومتسع وكأنه إحدى قاعات المكتبات وقد عُلِّقت على جدرانه كثير من الهدايا الملكية التي تأتِي بها الوفود. وبه خزانات مليئة بالوثائق والأوراق والصحف والمخطوطات الجلدية. وخزائنه تعجُّ بالأسرار الملكية. حين ملكت الجرأة على تفحصها للمرة الأولى بعد وفاة جدي رأيت كثيرًا من الخرائط والمخططات، وجداول بها مقاييس ارتفاع واتساع وأعماق النيل وحساب أوقات الفيضان وتقويم الزراعة والحصاد وحساب أيام زراعة كل محصول وأوقات الري وتواريخ الحصاد. وهناك قسم مخصص لجرد مناجم الذهب في الجبال الشرْقيَّة والجنوبية الغربية وحصر مصاهر الحديد. الكنيسة تملك مناجم كثيرة للذهب في عَلَوَة. وفي إحدى الخزائن وجدت سجلًا لتأريخ الكنيسة والرهبان وزيارات البطارقة، ووجدت

قوائم للقساوسة والرهبان والراهبات وخدم الكنيسة. وكان يبدو مما اطلعت عليه أن القصر يراقب حركة الكنيسة بدقة متناهية، ويبدو أن الكنيسة تشكل أكبر خطر داخلي على المملكة، فهي تفرض سياسات كثيرة على الملك وتنفذ سياسات وحكم الرومان في المنطقة. ووجدت سجلًّا بالعبيد في القصر وملفًّا لكل فرد منهم. ورأيت قماطر بها الكتب والرسائل من الملوك والرؤساء، بعضها مكتوب على الجلود وأخرى منقوشة على القماش أو العظام وحتى الحجارة والخشب. استطعت أن أحكم على عظمة الممالك وقوتها أو غناها وفقرها من رؤيتي للرسائل الواردة منها. كانت الرسائل مكتوبة بلغات كثيرة، بعضها أعلمه والكثير منها مجهول بالنسبة لي. وكانت هناك خزانة مليئة بالأختام وبعضها من الذهب الخالص. كانت الملكة تزورني في مكتبي أحيانًا أو ترسل بعض الجواري لأذهب إليها في مقرها بالقصر. وكانت تحتاجني لكتابة الرسائل أو

قراءتها، واستشارتي فيما يتعلق بالرسائل المصاحبة للهدايا المقدمة للملكات والأميرات في الممالك المجاورة. وكنا نتحدث أثناء هذا عن أمي «تَانِيشَا» أو جدي المتنيح «دَلمار». كانت الملكة الشابة مثالًا للجمال. وكانت الفتيات يقلدنها في زينتها وملابسها وعطورها وحتى مشيتها. كانت أمي قد أحسنت الاختيار للملك فلا أظن أن في مملكة عَلَوَة من هي أنسب منها للملك الشاب سيدنا «أَصْحَمَةَ» النجاشي. قالت الملكة:

أنتم يا «سِيسِّي» من أسرة لها فضل كبير على مملكة عَلَوَة وعلى سيدنا الملك نفسه وعلى الملكة التي أنت ماثل أمامها. لقد اختارتني أمك «تَانِيشَا» من بين جميع بنات عَلَوَة ورشحتني لأكون زوجة للملك، وقامت بتعليمي وإرشادي كيف أتصرف كملكة. وأنا لا أعجب من أين جاءت بكل هذه المعرفة وذلك لكونها من سلالة «أرياط» الشهير، ولكنني أعجب كيف استطاعت أن تفعل هذا وتحتفظ بجأشها

وتوازنها كل هذه الفترة في غياب أبيك. إنها امرأة قوية بلا أدنى شك. وأنا أغبطها على شخصيتها. ألا ترى أنها أفضل صديقاتي والمقربات مني رغم فارق السن؟.

حين كنت أفحص خزائن الرسائل لفت انتباهي أن هناك نسخة واحدة على الأقل من كل كتاب أو رسالة بعثها الملك النجاشي لأي ملك أو رئيس قبيلة، وعجبت كيف تمكن جدي «دَلمار» من كتابة كل هذا العدد من الرسائل وبهذه اللغات المختلفة. ولفت انتباهي رسائل مكتوبة باللغة العربية. ولما كنت من هواة مطالعة العربية وقراءتها فقد سمحت لنفسي بقراءة الرسائل الصادرة المكتوبة بها، ولفت انتباهي أيضًا أن هناك نسخة من رسالة حديثة صادرة ومرفق معها أصل رسالة حديثة أيضًا واردة بالعربية وإذا هي من محمد رسول الله إلى أَصْحَمَةَ بن أبجر نجاشي الحبشة.

نازعني الفضول لقراءتها فقد سمعت كثيرًا

عن هذا الرجل من الزُّبَيْر والعرب القادمين، ولما اطلعت على الرسالة وجدتها لا تشبه رسائل الملوك والرؤساء فلم يكن فيها العبارات الفخمة، وكلمات التباهي والفخر، ولكنها كانت مختصرة ، وكانت تدعو الملك النجاشي إلى عبادة الله الواحد والدخول في دين الإسلام. وكانت عباراتها آسرة ومعانيها قاصدة. طويتُ الرسالة بعد قراءتها وأعدتها في مكانها.

القصر كان به كثير من الجواري والعبيد. كنت تجدهم في كل مكان، بدءًا بالملاحق الخارجية التي خُصِّصت للطبخ، ومخازن ومستودعات الطعام والثياب والمؤن، وحظائر الخيل ومساكن العبيد والجواري واستراحات الحراس وانتهاء بقاعات القصر ومخدع الملك والمكاتب الإدارية، وقاعات الطعام والضيافة والاحتفالات، والساحات الأمامية والخلفية. بين الفينة وأختها كنت تلمح الجواري يفتحن الطاقات العلوية ليتجدد الهواء في القصر أو يطلقن البخور الفاخرة ذات الرائحة الجميلة

النفاذة أو ينظفن الأثاث. كل قسم من الأقسام به عدد من الغلمان والجواري للخدمة والضيافة والترفيه. وكانت هناك أقسام محظورة إلا لفئة معينة من الخدم والجواري. وقد كان العبيد درجات، فالقدامى هم الرؤساء. رئيس العبيد «يوناس» كان صارم القسمات متجهم الوجه يخافه الجميع ويخشونه، وهو بمثابة الآمر الناهي لجميع العبيد في القصر، ولكنك قلما تراه يمشي في أروقة القصر، وإذا رأيته فلا بد أن هناك حدثًا كبيرًا ، أو أمرًا خطيرًا يستدعي مجيء «يوناس». أما «مهارين» رئيسة الجواري فهي دربة ماهرة كثيرة الحركة والتطواف لا تكاد تستقر في مكان وكانت تراقب الجواري بانتظام.

وكنت قد اعتدت وقع أقدام الجواري والعبيد وهم يمرُّون أمام مكتب الترجمان لدرجة أنني كنت أستطيع أن أميز وقع أقدام الجواري على الأرضية الحجرية، فقد كانت مثل نقر طائر الدوري على نافذة بيتي صباحًا، بينما كان وقع

أقدام العبيد مثل صوت عصي التنظيف حين تخرج الجواري لنفض الغبار عن الوسائد. الجواري كن يمشين على أطراف أصابعهن بينما كان العبيد يطرقون الأرضية الحجرية بكعوب أقدامهم. أما «مهارين» فقد كانت تمشي مشية عسكرية وكنت أستطيع أن أميز وقع أقدامها بمجرد أن تضع أول خطوة في بداية الممر الحجري أمام مكتب الترجمان. كانت تصطحب الجارية التي يتم نقلها إلى أي قسم من الأقسام لتقديمها إلى المسئولين ولتتأكد من قيامها بواجبها على الوجه الأكمل. وفي ذلك الصباح الغريب سمعت وقع أقدام «مهارين» في الممر يجاويه وقع أقدام خافتة تمشي على استحياء فعلمت أن هناك جارية جديدة تم نقلها إلى مكتب الترجمان. ولم أُعرِ الأمر اهتمامًا في البداية فقد اعتدت تغيير الجواري اللاتي كن يأتين للتنظيف والخدمة أو للمساعدة في ترتيب القماطر ورص المصاحف أو تحضير الحبر والأقلام. حين وصلت

«مهارين» في ذلك الصباح كنت منشغلًا بمراجعة جدول العمل اليومي ومنكبًّا عليه فلم أر وجه الجارية الجديدة التي قدمتها رئيسة الجواري، ولكن «مهارين» قبل انصرافها قالت إن سيدتي الملكة هي التي أوصت بنقل هذه الجارية إلى مكتب الترجمان. ولفت ذلك الكلام انتباهي إلا أنني آثرت الاستمرار في المراجعة، فبقيت فيما أنا فيه، لكنني انتبهت لما قالت هذا ثم انصرفت وأغلقت الباب وتركت الجارية وراءها. وحين لم أكن معتادًا على هذا التصرف فقد رفعت رأسي لأستطلع الأمر. واتسعت حدقتا عيني من الدهشة الممزوجة بالصدمة، فقد كانت الجارية تقف أمام مكتبي مباشرة وعيناها إلى الأرض وقد عقدت أصابع يديها وأبقتهما مفتوحتين أمامها متجهة راحتاهما إلى الأعلى في إشارة إلى أنها رهن إشارتي.

كانت هي بلا أدنى شك. بشعرها الأسود الطويل المعقود ضفيرتين تتدليان من فوق كتفيها وتستقران فوق خصرها. هي هي

بابتسامتها البريئة ووجهها الطفولي وعينيها الواسعتين المتسائلتين. كانت المفاجأة قد عقدت لساني عن الكلام. توقعت كل أحد في مكتبي إلا هي. توقعت أن أرى «سِيسِّيا» أو«مُونيتَا» أو«سُونِيتَا» ، توقعت كل أحد إلا هي. ربمَا لأنني في ضميري المغيب كنت أريد أن أنساها أو أتناساها فألغيتها من مخيلتي ومن واقع حياتي. ألغيت وجودها في حياتي. نحّيت طيفها وذكراها وماضيها من عقلي الحاضر ولكنها بقيت رغم ذلك تملأ كل مكان في ضمير الغيب عندي. كانت لحظة واحدة من الظهور الحقيقي المفاجئ كافية أن تهز أعماقي وتقلب كياني، وتعيدني إلى واقعي وتوقظني من سبات المشاعر، وتفك الحصار المفروض لأكثر من عشر سنوات على العاطفة المتمردة المتأججة في دواخلي، واللهيب المستعر الذي لم يكن ليطفئه الزمن أو تخمده الأيام. تركتها تقف أمامي وحاولت الهروب من الواقع الماثل إلى الماضي المختبئ، إلى ذكريات الطفولة البريئة

لعلي أجد مخرجًا أو مهربًا من هذا الواقع الماثل.. فجأة وجدت نفسي أركض في طرقات سوياً، حيث كانت تختبئ مني ونحن نلعب بين شجيرات الصفصاف عند شاطئ النيل. فجأة وجدت نفسي أشدها من شعرها وأمسك بضفائرها السوداء الجميلة وكانت تمسك بيدي القابضة على مؤخرة رأسها وتتألم:

– آخ ، شعري شعري.. اترك شعري .. «سيس» أنت عنيف.

وكنت أكتفي بالابتسام ولا أرد عليها. فجأة وجدت نفسي أخطف عرائسها وأجري وهي تعدو خلفي لتمسك بي وتستعيد تلك العرائس المحشوة بليف شجر «المقل» وأنا أتفحصها قبل أن أتلفها وكأنني كنت أغار من تلك العرائس. ثم فجأة رأيتنا تحت شجرة الأراك، وأعواد السواك في أيدينا، ورائحة أنفاسها والخدر اللذيذ، والقبلة الأولى، والضفيرتان تتقلبان بالتبادل بين كتفها اليمنى واليسرى وهي

تجري وتهز رأسها يمينًا وشمالًا، وترفع عقبيها بتكلف فيضربان على ردفيها برفق وهي تجري. ابتسامتها البريئة، ووجهها الطفولي، وطعم فمها، وتلقائية كلامها الذي يحملك إلى عوالم مسحورة.وتحليقنا في عالم الخيال الجميل في أفق الفضاء، ومع الطيور والحوريات وعالم الجن وقصور الوهم على شواطئ الأحلام وقطف الأزهار البرية من روضات الحدائق النائمة عند السحر. فجأة عدنا منطلقين كمُهرين جامحين في البرية لا يقدر عليهما أحد. فجأة...

كانت طوال هذا الوقت واقفة ونظرها إلى الأرض. ولعلها لاحظت أنني تسمَّرت كأنني تمثال روماني قديم في ساحة سوياً، فرفعت عينيها المتسائلتين، اللتين كانتا تحاولان الضحك، لكن الحزن العميق كان يصرخ في أعماقهما. كان الغضب المكتوم في دواخلي قد تغلب على الأحلام الوردية في أعماقي، فخرج الكلام من فمي كحشرجة الخروف المذبوح:

- أنت !!

- نعم أنا، وإن كنت لا تريدني فسوف أنصرف وأطلب من السيدة «مهارين» ..

- لا لا . ابقي. أريد أن أتحدث معك.

- عمومًا مكتبك مرتب ولا يحتاج إلى مزيد من العمل يا «سيدي». وإذا..

- توقفي..

كان العرق قد بدأ يندى على جبيني وأخذت شفتاي تضطربان وأنا أتحدث. سادت لحظة من الصمت، لم ترفع عينيها لتنظر في عيني إطلاقًا. بقيت كما هي، نظرها إلى الأرض ويداها متشابكتان. لاحظت أنها نادتني «ياسيدي».

- رأيتك ذلك اليوم في قاعة الملك تقفين خلف سيدي النجاشي. حاولت أن أنظر إليك ولكنك تجاهلتني.

- كنت لا أريد أن ألفت الأنظار «يا سيدي»..

كلا كلا. كنت لا أستطيع أن أنظر إليك. تعرف. كلا. كنت.. كنت.

- أين ذهبت؟

- أنت لم تبحث عني!! كنت أعلم أنك سوف تبحث عني ولكنك لم تفعل.

- كيف عرفت أنني لم أبحث عنك؟

- لأنني انتظرت كثيرًا قبل أن ألجأ إلى القصر.وأنت لم تأت.

- لماذا توقفت عن الحضور تحت شجرة الأراك؟

- ...

- حقيقة أنت ما عدت تأتين. لماذا توقفت؟ لقد بقيت أنتظرك تحتها كل يوم. ولفترة طويلة.

- لماذا تظن أنه تم نقلي إلى القسم عندك هنا؟ هل هي مصادفة؟

- حقيقة لا أعلم لماذا؟ وهل الملكة هي حقًّا من أوصت بنقلك؟

– نعم، فالملكة تعلم كل شيء؟ فلماذا لا تسألها عن قصتي؟

– يا للهول تعلم كل شيء عنا؟ عني وعنك؟ من أخبرها؟

– أنا أخبرتها حين لجأت إليها.

– تعالي، «سُنْجَاتَا» انسي أنك تعملين عندي. تعالي اجلسي على هذا المنبر. حدثيني.

– هنا في القصـر لا ينـادون الجـواري بأسمائهـن يا «سيدي».. قل لي يا جارية.

– توقفي عن هذا يا «سُنْجَاتَا».. واجلسي!

فجأة تحولـت مشاعـري إلى الاهتمام العميـق والرغبة القوية لمعرفة ما عندها من أخبار. راقبتها وهي تتجه في تردد نحو المنبر ثم تصلح فستانها وتجمعه بيديها وتطرحه بعيداً عن مقعدتها وهي تجلس بهدوء حذر وشعرها ينساب ليسابق يديها فوق المنبر قبل أن تزيحه حتى لا تجلس عليه. كانت تنظر إلى الأرض في

انكسار. جمعت يديها في تصميم وكانت تنظر إليهما وهي تتحدث:

– أنت تعرف أن أمي هي كل ما كان لدى في الحياة. فقد قُتل أبي في المعارك. وكانت أمي قد حزنت عليه كثيرًا. ولكنها لم تنس تربيتي والاهتمام بي رغم الفاجعة التي حلَّت عليها. ولم يكن عندنا مصدر للمال، واضطرت أمي في فترة من الفترات إلى أن تستجدي الطعام من بيت قائد الجيش. ولما علمت زوجة قائد الجيش بحكايتها جعلتها تخدم عندها في البيت، فكانت أمي تخدم في بيت قائد الجيش سحابة النهار ثم تعود ليلًا وهي منهكة القوى ببعض الطعام لنسد به الرمق. وظل الحال على هذا سنة كاملة، ثم لاحظتُ أن أمي كانت تعود وهي باكية، وتفوح منها رائحة الخمر. وثيابها غير مرتبة. وكانت لا تريدني أن أراها على هذا الحال فكانت تجتهد لإخفاء ذلك عني. وكنت أتظاهر بالنوم حين تأتي آخر الليل رغم أن الجوع كان يقتلني ويمنعني النوم. وكنت أعلم في قرارة

نفسي أن أمي تتعرض للاعتداء كل ليلة في بيت قائد الجيش أو ربما في مقر الحراس عند البوابة. وعلمت أن ذلك كان يحدث بغير علم قائد الجيش، وعلمت أن الحرس كانوا يتحرشون بها ويهددونها بالاعتداء عليَّ إن لم ترضخ لرغباتهم، فكانت تتناول الخمر حتى تغيب عن الوعي قبل أن يعتدوا عليها. وكانت تفعل كل ذلك في مقابل أن يسمحوا لها بأخذ الطعام إلى البيت لتطعمني وتسد رمقي.

- يا للهول يا سُنْجَاتَا. وكيف عرفت كل هذا؟

- أتذكر «سمبا»؟ صديق الطفولة؟ هو الذي أخبرني بكل هذا فقد كان يعمل في بيت قائد الجيش قبل أن نأتي معًا إلى القصر. ولكن دعني أكمل لك الحكاية.

- عفوًا أكملي..

- كنت قد اعتـدت أن أترك أمي تنام حتى تستيقظ من تلقاء نفسها، ولم أكن أحب أن أوقظها لأنني كنت أعلم في قرارة نفسي أن وقت

النوم هو الوقت الوحيد الذي تنعم فيه بالسلام. وفي صباح أحد الأيام خرجتُ مبكرة ولم أشأ إيقاظ أمي بل لم أتفقدها في غرفتها أصلًا، وكنت أظنها نائمة ولكنها في واقع الأمر لم تكن قد عادت تلك الليلة. وحينما عدت في العشية وجدت «سمبا» جالسًا في غرفتي وهو قلق جدًّا وحينما رآني أخبرني أن الحرس قد غضبوا حين تغيبت أمي عن بيت قائد الجيش ذلك اليوم والليلة التي قبله وجاءوا يبحثون عنها ولكنهم لم يجدوها وأنه تخلف عنهم ليخبرني. وهرعت نحو غرفة أمي ولكنها كانت كما تركتها منذ يوم وليلة. وكان واضحًا أن أمي لم تبت فيها تلك الليلة ولا الليلة التي قبلها. كنت كقط مذعور وأنا أجري في طرقات سوبأ أبحث عن أمي. كانت هي محور الأمان في حياتي. كانت هي كل أسرتي. كل شيء عندي. كنت أتوسل للناس في الطرقات أن يخبروني إن كانوا قد رأوا أمي، وكان الناس لا يكترثون. ومن يكترث منهم يقول إنه لم يرها. وكان

«سمبا» يطوف معي ويسأل. ثم أخذني آخر الأمر إلى سوق العبيد فهو الملجأ الأخير لمن فقد ابنًا أو بنتًا أو أمًّا أو أخًا. وكنت تجد الأخبار هناك. وهناك علمت أن أمي تم اختطافها ليلًا حين كانت عائدة إلى البيت. كان هناك رجل اسمه «ميمون» تجده دائمًا في سوق العبيد وعنده الأخبار. وحين توسلت إليه أن يخبرني إن كان قد رأى أمي نظر إليَّ نظرة ملؤها الخبث وكأنه يريد أن يفترسني، ولكنه أجفل حين علم أن «سمبا» هو من أتى مرافقًا لي. وحين رأى أن «سمبا» يراقبه كلمني بأدب، فقد كان يعلم أن «سمبا» هو أحد حراس قائد الجيش. نصحني «ميمون» ألا أبحث عن أمي بعد اليوم، وحين ألححت عليه في السؤال قال لي:

– سوف أقول لك نصيحة ولكن أرجوك لا تخبري أحدًا أنني الذي أخبرتك بهذا لأنني ساعتها سوف أكون أحد ضحايا «ساري الليل». أمك تم اختطافها ليلًا وهي عائدة من

بيت قائد الجيش وتم أخذها بعيدًا عن سوياً. وواضح أن الذين اختطفوها هم أعوان «ساري الليل». عودي إلى بيتك وابدئي حياة جديدة وانسي أمر أمك فلن تريها مجددًا. ولم ينس أن يتقاضى ثمن هذه المعلومات فقد أخذ مني عقدي الذهبي مقابل إخباري بأمر أمي.

– يا للهول يا «سُنْجَاتَا» !!

– قال هذا وأخذ العقد الذهبي ثم أدار ظهره وانصرف. وعدت إلى البيت وكأنني شبح من الأشباح. لم أكن أحس وقع أقدامي على الأرض وفقدت الإحساس بجميع أطرافي وأصابتني الحمى. وبقيت في الفراش أيامًا وحين أفقت وجدت نفسي في بيت «سمبا» وكانت أمه هي من يقوم على خدمتي وتمريضي.

– ولماذا لم تأتي وتخبريني يا «سُنْجَاتَا»؟

– لم أكن أريدك أن تعرف هذا أو تراني وأنا ضعيفة!! رغم أنني كنت أعلم في قرارة نفسي أنك سوف تبحث عني. ولكن لم يطل بقائي

كثيرًا في بيت «سمبا» فقد قررنا اللجوء إلى القصر، أنا و«سمبا» الذي قدم نفسه عبدًا للملك بينما وهبت نفسي لأكون جارية، لأنني كنت قد أصبحت بلا عائل. والقصر يوفر الحماية والطعام والكساء والمأوى كما تعلم. وبالفعل حصل «يوناس» على الموافقة وتم تسليمي لـ«مهارين» وأنت تعرف بقية القصة.

– ولماذا لم تخبريني بالقصة يا «سُنْجَاتَا» أو ترسلي أحدًا ليخبرني بها؟

– قدرت ألا أخبرك حتى لا أسقط في نظرك. كنت أريد أن أبقى حية في ذاكرتك بتلك الأيام والذكريات الحلوة. كانت هي كل ما بقي لنا من ذكريات معًا، فلم أشأ تدميرها والقضاء عليها في نفسك حتى تبقى حية وقَّادة، وكنت أعلم أنها ستكون يومًا ما سببًا في جمع شملنا معًا. لقد افتقدتك كثيرًا يا «سيس» وبكيت من أجل أننا لم نعد كما كنا من قبل. ولكن لست المذنبة كما أنه ليس ذنبك. أنا لا ألومك ولكن لماذا لم

تبحث عني في القصر يا «سيس»؟

- وهل يعلم أحد غيرك بهذه القصة.

- الملكة تعلم كل شيء. لقد كانت تعرف أمي، وتعرف زوجة قائد الجيش، وبذلك فقد كانت تعلم أن أبي قد قتل في المعارك، وحين رأتني في القصر استدعتني إلى مخدعها وسألتني فأخبرتها بكل شيء عنّا. وحين علمت أنك أصبحت «ترجمان الملك» أرسلتني لأكون معك. وها أنا ذي.

كان صوتها وهي تحدثني كأنه ينبع من أعماق قلبي وليس من فمها. رأيت الحياة وهي تعود إلى عينيها، حين كانت تحدثني. والفرحة تحلق فوق رأسها ثم تحط على جبينها الوضاء. كانت قد بدأت الكلام هادئة ولكنها انطلقت تحكي في حماس. نسينا أين نحن فاقتربت أيدينا وتشابكت والتقت أعيننا لأول مرة منذ عشر سنوات. وطرنا معًا في عوالم مسحورة. عدنا كما كنا صبيين نلهو ونلعب في دنيانا التي

صنعناها بأنفسنا، غير عابئين بالناس والأشياء. كانت عوالمنا غير عوالم البشر وأحلامنا تحلق بلا أجنحة. لم نكن نحتاج للأجنحة. لم نسمع نداء «مهارين» وهي تعلن عن قدوم الملكة، ولا حركة الجواري وهن يتبعنها. الملكة أجفلت حين دخلت ورأت أن أعيننا لم تلحظ وجودها، وأيدينا تأبى أن تتخلى عن بعضها، وأننا في القصر بأجسادنا ولكن أرواحنا في عالم حقيقي بعيد. لم تكن تتوقع أن ترانا هكذا ولعلها كانت تطمع في حوار مرح ولذيذ معنا. ولكنها حين رأتنا هكذا أبرقت عيناها وابتسمت ابتسامة الرضا، ثم تراجعت في هدوء وهي تحاول أن تخفي وقع أقدامها حتى لا ننتبه، ووضعت أصبعها السبابة فوق شفتيها في إيماءة للجواري أن يصمتن، ثم أغلقت الباب وراءها برفق وهي تغادر، وانصرفت مسرورة.

بنات سِيمُونَةَ

أذكر أنني في مرة سألت جدي «دَلمار» عن «سِيمُونَةَ»، ما حكايتها، فقد كان عقلي مسكونًا بما رأيته في بيتها في جزيرة التمساح، وكانت تلك المشاهد التي رأيتها حين كنت مع أمي في جزيرة التمساح تراوح في ذاكرتي وتأبى أن تغيب، حتى إنني كنت أحلم بها وبكلابها وبناتها الساحرات كل ليلة، فقدكانت كابوسًا حقيقيًّا يجتاح جوانبي ويوقظني مذعورًا. «سِيمُونَةَ» اسم مخيف لا يريد أحد أن يذكره، وإذا ذكر في مجلس كان الناس ينفضون عنه ويسكتون عن الكلام.

قال لي جدي «دَلمار»:

«سِيمُونَة» التي رأيتها أنت ذلك اليوم هي أكبر مني سنًّا بالتأكيد يا «سِيسِّي». بل إنها أكبر بكثير، فقد كانت على نفس حالها هذه

حين كنت أنا «دَلمار» صبيًّا يافعًا ألعب عند ضفة النيل مقابل جزيرة التمساح، وكان سيدي النجاشي الأكبر قد أمر بترحيلها من مشارف سوبأ إلى تلك الجزيرة، وكانت يومها تمشي ساخطة تسب وتلعن حين كانوا يضعون ثيابها وأدواتها في مركب صغيريدفعون بها إلى الجزيرة، وكانوا قد خيروها بين الحرق والنفي فاختارت النفي مكرهة. وأقسمت يومها أن سوبأ كلها سوف تأتيها طائعة وتركع بين يديها وتطلب منها السماح وأنها سوف تكون تحت قبضتها ورهن إشارتها. ولم يكن ما قالته يومئذ مزحة فقد كان الناس يعرفون خطرها وقوة سحرها وتأثيرها. وبالفعل نفذت سِيمُونَةُ وعيدها فقد امتد تأثيرها وسحرها إلى الوزراء وقادة الجيش وكبار التجار وحتى الملكة ولا أكتمك إن قلت لك إن النجاشي الأبجر كان يخشى بطشها وسطوتها وسحرها. وقد كان يستعين بها كثيرًا ويلجأ إليها حين تتأزم الأمور. ولعله هو الذي أمر بعدم حرقها بعد أن تم

إحراق عدد من الساحرات في سوبأ قديمًا وكان يعلم أنه لا يقدر على إحراقها لأنه لو فعل ذلك لخان العهد المبرم. وكنت قد تجرأت مرة وسألته عن السر في إبقاء «سِيمُونَةَ» مع أن سوبأ وما حولها تخلو من الساحرات، فقال لي النجاشي يومها: «إن سِيمُونَةَ هي إحدى أكبر أسرار مملكة «أكسوم»، فهي من يهود الفلاشا، وهي مقيمة هنا في مملكة عَلَوَة باتفاق بين ملك أكسوم والنجاشي الجد ملك مملكة عَلَوَة. ولأنها سوف تقيم هنا ما شاءت فلن يتعرض لها أحد، ولولا ذلك لأمرت بإحراقها منذ زمان». وحين ألححت على النجاشي في المزيد قال لي: «يا دَلمار هناك أسرار كثيرة لا يعرفها إلا الملوك فيما بينهم، ولكن لكونك «ترجمان الملك» فسوف أطلعك على أحد أسرار الملك النجاشي. وهذا السر قديم ومتوارث منذ أيام الملك «منيليك الأول» ابن الحكماء ملك مملكة «أكسوم»، والذي هو ابن الملك سليمان، من أمه الملكة «مكيدة». فقد قام هذا الملك بجلب

تابوت العهد إلى أكسوم من أورشليم حين كان عمره عشرين عامًا، فقد زار والده في أورشليم بعد أن بلغ سن الرشد، وحين وصل أورشليم أصبح كهنة سليمان يغارون منه وأشاروا إلى الملك سليمان بضرورة عودته إلى سبأ لأنهم كانوا يخشون أن يرث عرش والده وكان كل واحد منهم يطمع أن يكون هو الوارث للعرش. وقبل الملك سليمان بهذا الأمر إلا أنه قال بأنه ينبغي على جميع الأبناء البكر للشيوخ الآخرين أن يصطحبوا منيليك، وقبل عودة منيليك توفي الملك سليمان واختلف الكهنة من بعده وخاف رئيس الكهنة «زادوق» على تابوت العهد فدبر نقل تابوت العهد لحفظه بعيدًا عن أورشليم فأرسل ابنه «آزاريوس» مع منيليك ليحملا التابوت سرًّا. وبالفعل قام منيليك بحمل التابوت إلى أكسوم وأسس هناك مدينة (القدس الثانية) في (أكسوم). وكان أول ملك يهودي لأكسوم ووضع تابوت العهد في كنيسة القديسة مريم بأكسوم. ولكن لما انكشف أمر التابوت

وأصبح اليهود يقيمون احتفال (تيمكات) رأى أحفاد منيليك ضرورة إخفاء مكان التابوت بعيدًا عن الأنظار فأوهموا الناس أن التابوت لا يزال في مكانه تحت رعاية حارس النذور الوحيد الذي سُمح له بمراقبة التابوت في منطقة «أسكون». ولكنهم في الحقيقة نقلوا التابوت سرًّا في قارب انطلقوا به خلال مجرى النيل حتى وصلوا إلى موقع جديد أطلقوا عليه اسم سوبا وهي مدينتنا هذه، ونصبوا عليها ملكًا من سلالتهم ليكون هو الحارس الحقيقي لتابوت العهد، وأنشئوا معبدهم الذي أصبح من بعد هو كنيسة «مارية». وقد كان هذا المعبد قبل ذلك هو بقايا معبد روماني قديم، وأخفوا تابوت العهد في قبو سري تحت الأرض كان الرومان قد أنشئوه منذ القديم، صنعوا هذا بذكاء شديد لأنه لا يوجد على ظهر الأرض من يتوقع إخفاء التابوت تحت قبو الكنيسة. وبالطبع فإنه لا بد من وجود حراسات لمراقبة التابوت.

– ولكن يا جدي ما علاقة هذه القصة

بالساحرة «سِيمُونَةَ»؟

- «سِيمُونَةُ» هي حارسة التابوت الحقيقية، وهي مسلحة بأخطر أسرار اليهود فهي تعرف السحر اليهودي الحقيقي ومهمتها هي الدفاع عن التابوت بكل أنواع السحر الأسود. وسِيمُونَةُ الحالية تجمع بين كونها من يهود الفلاشا وكونها من أعرف أهل زمانها بالسحر الأسود. أعلم يا «سِيسِّي» أنك ستسألني الآن كيف يمكن لسِيمُونَةَ أن تعيش كل هذه السنوات منذ أيام الملك سليمان وابنه منيليك. والجواب عن هذا سهل جدًّا.

- بالفعل يا جدي كنت سأسألك نفس السؤال.

- سوف تزيد دهشتك حين تعلم أن «سِيمُونَةَ « ليست امرأة واحدة فقط وإنما هي رمز يتكرر على مدار السنين ففي كل مرة تموت «سِيمُونَةُ» يتم إعداد امرأة أخرى تدعى «سِيمُونَةَ» ويتم إحضار عدد من بنات يهود

لهذا الغرض لِتكون كل واحدة منهن المرشحة لتصبح «سِيمُونَةَ» عند موت «سِيمُونَةَ» الحقيقية، وتقوم بخلافتها فورًا في احتفال تنصيب سري لا يعلم به إلا حكماء اليهود من سلالة منيليك.

– هل تريد أن تقول لي يا جدي إن البنات اللاتي مع «سِيمُونَة» هن فقط لمرافقة «سِيمُونَة» الحقيقية وتقليدها وليتم اختيار واحدة منهن في النهاية لخلافتها؟

– أحسنت يا «سِيسِّي». ولكن ليس هذا فقط، فإليك المزيد من المفاجآت: «البنات اليهوديات يتم ترشيحهن لنيل شرف حراسة تابوت العهد من بين سلالات أسباط اليهود، حيث يقوم أهلهن بترشيحهن لنيل هذا الشرف، فتهب الواحدة منهن نفسها لخدمة التابوت، ويتم إرسالهن لسِيمُونَةَ الحقيقية التي تقوم بإعدادهن وتعليمهن السحر الأسود وكيفية استخدامه لحماية التابوت والسيطرة على

الملوك والقادة والأباطرة، وتظل كل واحدة منهن في انتظار موت «سِيمُونَةَ» الحقيقية ليتم تنصيبها بدلًا منها. وعلى سِيمُونَةَ الحقيقية أن تجعل هؤلاء البنات يشبهنها في كل شيء، في شكلها ومشيتها وكلامها ومعرفتها بالسحر الأسود فتكون كل واحدة منهن نسخة حقيقية مصغرة لسِيمُونَةَ. وفي أثناء حياتها تكون سِيمُونَةُ قد اختارت خليفتها من بين البنات ولكنها لا تقوم بإخبارها بذلك. والبنات حين يتم اختيارهن وترشيحهن لا يعرفن دورهن الحقيقي إلا بعد موت «سِيمُونَةَ». وفي الحقيقة لا تعرف الوريثة الحقيقية منهن دورها إلا بعد اغتيال بقية البنات الأخريات في احتفال سري يقوم به أحد كهنة «فرسان الهيكل» الذي يظهر فجأة بعد نبأ موت «سِيمُونَةَ» فيأتي ليلًا ويفتح «صندوق الوصية» المخبأ في مكان لا يعلمه إلا «فرسان الهيكل»، والذي لا تعرف البنات عنه شيئًا، ويقوم بتنفيذ وصية «سِيمُونَةَ» المكتوبة والمخبأة في هذا الصندوق، فيبدأ بتنصيب

«سِيمُونَةَ» الجديدة، وحتى انتهاء التنصيب لا تكون بقية البنات يعلمن عن مصيرهن شيئًا، ولكن في الليلة التي تعقب التنصيب يقوم الكاهن باغتيال بقية البنات جميعًا، ثم يقوم بإرسال رسالة إلى كهنة سلالات الأسباط ليتم ترشيح المزيد من البنات لخلافة «سِيمُونَةَ» الحالية بعد وفاتها.

– يا للهول يا جدي!! ما أفظع هذا!

– اليهود يعتبرون أنهم بهذا يحمون تابوت العهد والوصايا بدمائهم ويحافظون على قدسيته لحين ظهور المعزي، وهم يعتقدون أن المعزي سوف يظهر في منطقتنا هذه أو في بلاد العرب، ولهذا فقد نزحوا وسكنوا في أكسوم وفي مأرب ويثرب واليمن.

– ولكن لماذا لم يسكنوا في عَلَوَة يا «جدي»

– الإجابة بسيطة يا «سِيسِّي» وهي أنهم لا يريدون لفت الأنظار إلى مكان تابوت العهد والوصايا ولذلك فقد أشاع اليهود أن تابوت

العهد موجود في أماكن كثيرة حتى يختلط على الناس أين هو تابوت العهد الحقيقي.

– وكيف تقوم سِيمُونَةُ أو بناتها بحراسة التابوت؟ ما هو دورهن بالتحديد؟

– سِيمونَةُ لديها طلاسم سحرية تقوم بها لإخفاء التابوت عن الأعين ولحراسته حتى لا يتمكن أحد من الاقتراب منه، وإذا اقترب منه أي كائن فإن تلك الطلاسم تكون بمثابة أسوأ كوابيسه فلن يتمكن من لمس التابوت أو فتحه. وهي تراقب التابوت وتحرسه بواسطة السحر الأسود، وتقوم بتجديد تلك الطلاسم كل فترة لتظل قوية وفاعلة. وهي حين تقوم بتعليم البنات تلك الطلاسم لا تعلم أي واحدة منهن أثرها ولا دورها في حماية التابوت، ولكنها تتعلم تلك الطلاسم التي يسمونها «الحجاب» ويعتبرنها طلاسم مقدسة، يقمن بتلاوتها كل يوم صباحًا ومساء. البنت المختارة فقط تعلم دور تلك الطلاسم بواسطة فارس الهيكل الذي يقوم

باغتيال البنات الأخريات. البنات محظور عليهن مصادقة البنات الأخريات وهن يحطن أنفسهن بهالة من الغموض حتى لا ينكشف سرهن أو يدفع الفضول سكان سوبأ لمعرفة ما وراءهن، ولهذا فأنت ترى كم هو مخيف اسم جزيرة التمساح وحي بَرَهُوْت، والناس يجتنبون زيارة الجزيرة أو معرفة أهلها وخاصة «سِيمُونَةَ» وبناتها الساحرات.

– ولكن يا جدي الذي أعلمه هو أن الناس ما زالوا يعتقدون أن التابوت هو في مكانه المعروف في منطقة «أسكون» تحت رعاية حارس النذور.

– صحيح وهذه هي إحدى خطط اليهود لإيهام الناس وصرف انتباههم عن مكانه الحقيقي.

– وهل التابوت الحقيقي موجود اليوم في كنيسة «مارية» وتحت أقبيتها فعلًا يا جدي؟

– الإجابة هي نعم ولا!!

– كيف ذلك؟ لقد زدتني حيرة..

– السر الأكبر الذي لا أقدر أن أؤكده لك يا «سِيسِّي» لكوني لا أستطيع فتح التابوت هو أن التابوت موجود داخل أقبية الكنيسة بالفعل، ولكن المؤكد هو أن ذلك التابوت لا يحتوي على لوحي الحجارة اللذين تلقاهما النبي موسى وهو على جبل الطور والمكتوب عليهما الوصايا فقد تم رفعهما إلى السماء منذ زمن طويل، واليهود يعلمون ذلك ولكنهم لو أذاعوه لانكشف سر الديانة اليهودية وافتضح أمرها، وهو أن اليهود قد ضيعوا الوصايا وفقدوا التوراة كما تنبأ النبي موسى حين قال للّاويين: «خذوا كتاب التوراة هذا، وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم، ليكون هناك شاهدًا عليكم؛ لأني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة، هوذا وأنا بعد حي معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب، فكيف بالحري بعد موتي .. لأني عارف بعد موتي تفسدون وتزيغون»[50] وكان النبي موسى حريصًا على ألا يضيع بنو إسرائيل التوراة والوصايا ولذلك لما كتبها النبي موسى،

أمر بوضعها في تابوت عهد الرب بين لوحي الحجر، وأمر أن تقرأ على بني إسرائيل كل سبع سنين. ولكنهم ضيعوها فكتبوا غيرها كلامًا بأيديهم واخترعوه من عندهم وقالوا للناس هذه هي شريعة الله وكلمته.

– سؤال أخير يا جدي! فهناك أمر لا أفهمه. هل تعلم الكنيسة بوجود تابوت العهد والوصايا داخل أقبية كنيستهم؟

– بالقطع لا يا «سِيسِّي»! رئيس الكهنة يعلم أن هناك قبوًا واحدًا محرمًا عليه وعلى الجميع دخوله بأمر من النجاشي وله باب واحد مغلق بأقفال متينة وخلف هذا الباب عدة جدران حجرية لا بد للداخل من كسرها، وهي مختومة بأختام الملك ومحروسة بطلاسم «سيمُونَةَ»، والكنيسة تعرف أمرًا واحدًا فقط هو أن هذا القبو يسمى «الوديعة» وبجواره أقبية أخرى مليئة بجرار الذهب. والجميع يظن أن هذا القبو به كنز من كنوز مملكة عَلَوَة. وكل نجاشي تتم

توليته على المملكة لا بد أن يكون وصيًّا على تابوت العهد وإلا تم اغتياله وتولية نجاشي من بعده يخضع لطلاسم «سِيمُونَةَ». وقد استمر هذا الأمر حتى الملك الأبجر، ولكن ملكنا الحالي «أَصْحَمَةَ» قد تعرض وهو صغير لطلاسم «سِيمُونَةَ» وبناتها. ولا ندري هل أفلحت هذه الطلاسم أم لا؛ لأن أَصْحَمَةَ عرفها وتمكن من إخراجها في وقتها من إحليله قبل أن تتمكن منه. وهو قد أخبرني بذلك الأمر حين كان صغيرًا. وفي ظني أنه هو الملك الوحيد الذي نجا حتى الآن من تأثير «سِيمُونَةَ» وسحرها.

شغلتني قصة «سِيمُونَةَ» وبناتها كثيرًا. وراجعت في ذهني مذكرات سيدي الملك النجاشي وما كتبه عن هؤلاء البنات حين تم اختطافه إلى جزيرة التمساح. ومحاولات «سِيمُونَةَ» لنفث السحر في إحليله حتى تتمكن من السيطرة عليه مستقبلًا حين يصبح ملكًا، وكيف أنها استغلت صغر سنه لاستدراجه

للجزيرة والقيام بأعمالها الشيطانية وكيف أنها استغلت إحدى أكثر بناتها دهاء ومكرًا لإغوائه واستدراجه. وتذكرت ما كتبه عن «دِيمُونَة» التي أرسلها أبوها «لبيد بن الأعصم» من جزيرة العرب لتتعلم السحر عند «سِيمُونَة». وفي واقع الأمر فقد أرسلها لتكون حارسة لتابوت العهد. ويبدو أن «لبيد» قرر التخلي عن ابنته هذه بسهولة لأنه كان قد سئم من ولادة البنات وعنده غيرها كثير، وهي التي قد ولدت في ظروف غريبة ولذلك فقد سهل عليه التخلص منها بإرسالها لحراسة التابوت، وهي نفسها تعلم ذلك فقد أخبرت النجاشي حين سألها عن معنى الاسم «دِيمُونَة» فأخبرته أن «دِيمُونَة» يعني «الجنوب» وأن أمها ولدتها حين كانت هي وأبوها في رحلة إلى أخوالها يهود اليمن جنوب جزيرة العرب. ثم تركها «لبيد» هي وأمها هناك حتى بلغت العاشرة، وحينئذ قرر إرسالها إلى عَلَوَة.

أَبِيلّو وَتَانِيشَا

لم أر أبي في حياتي فقد قيل لي: إنه تنيح قبل ميلادي، ولذا فلا أعرف غير جانب واحد من الحياة مع أمي. ولا أعرف كيف تكون الحياة مع الأم والأب معًا. كانت أمي «تَانِيشَا» هي كل ما عرفته مما يسمى أسرة، لو استثنينا جدي «دَلمار» بالطبع. وحين كنت أسأل عن أبي ما كنت أجد جوابًا يروي ظمئي. وكنت أعلم أن هناك أمرًا ما. وكان سكوت من أسألهم وارتباكهم في الإجابة يزيدني حيرةً، ولكنني بمرور الوقت استمرأت هذا، فأصبحت أستمتع بمنظر الاضطراب والحيرة على وجوههم، حتى تجرأت يومًا فسألت الملكة نفسها. وفي الحقيقة فقد سألت قبلها أناسًا كثيرين، ولدهشتي لم أر أنها فوجئت بسؤالي بل قالت:

– كنت أتوقع أن تسألني هذا السؤال!

وفي هذه المرة كنت أنا المحتار وسألتها:

- ولماذا يا سيدتي؟

- بصراحة لأنه لا أحد غيري يعرف الحقيقة، ويبدو أنك سألت الناس كلهم، بدليل أنك سألتني أنا. وبالطبع لم تجِد إجابة. وأمك ما كانت لتخبرك الحقيقة أبدًا.

- وكيف ذلك يا سيدتي؟

- لأن أمك لا تعرف الحقيقة وأنا عرفتها مؤخرًا من أحد عيوني المقربين، والملك نفسه لايعرف. لا أحد غيري يعرف الحقيقة يا «سِيسِّي» حتى ولا جدك «دَلمار» لم يكن يعلم. وبالطبع لم أخبر أمك «تَانِيشَا». هل تريد أن تعرف تفاصيل الحكاية يا «سِيسِّي»؟ اسمع إذن:

كانت أمك قد تعلقت بأبيك منذ الصغر. وكانت قصة حبهما على أفواه الجميع، فقد كانا يجلسان كل يوم تحت ظل شجرة الأراك التي قرب الكنيسة يتناجيان الحب ويتساقيان

كئوسه.

– يا للهول! ماذا تقولين يا سيدتي؟

– رويدك فقد بدأنا للتو. مالك انتفضت هكذا كالملدوغ؟ هل أغضبك أن أخبرك أن أباك وأمك كانا يلتقيان خلسة تحت شجرة الأراك؟ أم لا تريد أن تستمع للحكاية؟

– هل تخبريني عن أمي وأبي يا سيدتي؟

– من غيرهما إذن يا «سِيسِّي»؟ عجيب أنت . «أَبِيلُّو» و»تَانِيشَا»؟

– نعم يا «سِيسِّي» عجيب أنت، وهل يوجد غيرهما؟

– نعم يا سيدتي، يوجد..

– من غيرهما؟ من؟ أخبرني؟

– «سِيسِّي» و«سُنْجَاتَا»! أنا وهي كنا نجلس كل يوم منذ الصغر تحت تلك الشجرة، وكانت أول قبلة بيننا تحت تلك الشجرة. شجرة الأراك قرب الكنيسة.

- يا للهول يا «سِيسِّي».. هل كنت تعلم أن اسم تلك الشجرة شَجرة «أَبيلُّو وتَانِيشَا»؟ كل أهل سوبأ يعرفون هذا إلا أنت؟

لم أنتظر أن تقوم الملكة بإكمال الحكاية رغم لهفتي الشديدة لمعرفة الحقيقة التي كنت أسعى وراءها فأسأل كل أحد، إلا أنه راودني فجأة إحساس غريب ومخيف بأنني يجب أن أتوقف فورًا ولا أمضي في معرفة الحقيقة. قالت نفسي لنفسي كفى يا «سِيسِّي» أنت لا تريد أن تعرف أكثر من هذا. أبوك وأمك تزوجا بعد قصة حب يعرفها كل الناس، وقد ذهب أبوك قبل أن تولد، فما الذي ستستفيده من معرفة التفاصيل؟ أظن أن البقية غير مهمة. كنت في صراع أجهل كيف بدأ ولا أعرف نهايته. كنت مثل بحار فقد ربان سفينته وكل من معه على متن السفينة وأصبح يبحر بها وحيدًا في التيه والمجهول نحو عوالم لا يريد أن يعرفها وشواطئ غير معلومة. كنت كمقاتل أعزل وجد نفسه وسط المعركة بين جيشي الخوف والفضول. أمي لم تخبرني

عن أبي، وجدي «دَلمار» كان يحدثني عن جوانب محددة من حياة أبي ولكنه أخفى عني كثيرًا من الحقائق فقد كان يتجاهل أسئلتي. يا ترى لماذا لم يخبرني كثيرًا عن أبي؟ حتى «أبونا يُوأنَّسْ» لم يخبرني. فقط الملكة هي التي جرؤت. ولكن يا ترى لماذا؟

لم أترك الملكة تكمل القصة فاعتذرت بلطف متعللًا بأن الملك قد كلفني بمهمة وسأعود إليها. وبالطبع لم أكن أنوي العودة. فقد كنت أهرب من معرفة قصة حياة أبي بعد أن سألت عنها كل إنسان في سوبأ، ولكن لما وصلت لمن يعرفها أصبحت فجأة وأنا لا أريد أن أعرف. لا أريد أن أكون نسخة من حياة أبي. ولكنني اكتشفت أنني ودون قصد كنت أتبع خطواته. حتى المكان الذي كان يتبادل الحب فيه مع فتاته قصدته وجلست فيه وأنا لا أعلم. يا ترى هل هذا شيء زرعه أبي في روحى قبل أن أولد؟ ويا ترى هل حين أكبر ستكون سيرتي غامضة مثلما هي سيرة أبي؟

حين خرجت من عند الملكة أغلقت هذا المصحف في فؤادي وطويت صفحاته وانطلقت نحو مستقبلي. كانت كلمات أمي ترن في أذني بعد رحيل «الزُّبَيْر» وصحبه من عَلَوَة بعد أن قضوا معنا ثلاثة أشهر، في المرة الأولى:

– «يا ولدي، الأيام ستتداول عليك بالأفراح والأحزان. عش أفراحها وأحزانها، ولكن إياك أن تقع فريسة لها. انهض وأد دورك فيها، وإياك أن تضعف، فهي لا تفترس إلا الضعفاء».

حين خرجت من عند الملكة لم أفكر إلا في قصتي مع «سُنْجَاتَا» وكيف انتهى بها الحال «جارية» عند سيدي الملك النجاشي. وتساءلت لماذا اختارت أن تكون جارية للملك ولم تختر أن تأتي وتخبرني أو لتعيش معي في بيت أمي؟ ربما لو حدث هذا لما أصبحت جارية. ورأيت أن أطلب من سيدي النجاشي أن يأمر بتحريرها حتى يمكنها أن تصبح زوجة لي.

وحين ذكرت «سُنْجَاتَا» وأنها أصبحت

جارية، صرت أفكر في قرارات الملك التي اتخذها مؤخرًا فرأيت أنها كلها تتسم بالحكمة وبعد النظر إلا قرار عودة الاسترقاق فهو يصب في مصلحة الكنيسة ومن خلفها سياسات الرومان. ولا أدري لماذا سمح الملك مرة أخرى بعودة تجارة العبيد إلى أسواق سوبأ. كان الملك قد تعلل بأن الأسرى يستحقون هذا، وأن التجارة سوف تكون مقصورة فقط على بيع الأسرى عبيدًا. لم أتقبل هذا الأمر بسهولة ولكنني أذعنت لمشيئة الملك.

حين زرت سوق العبيد مؤخرًا، واستعدت تلك المناظر القبيحة، ورأيت الأسرى يساقون للبيع، غالبت حزني وألمي وبقيت أنظر. ولم أحتمل فذهبت إلى مولانا الملك لأخبره بقبح المناظر التي رأيتها وأنه يجب إيقاف تجارة العبيد في عَلَوَة على الفور، فقد كانت هي أحد أسباب الحرب الأخيرة التي كلفت عَلَوَة دماء وأموالًا وكثيرًا من الفتن والمشكلات.

لم يرد مولانا الملك النجاشي على كلامي وناولني رسالة من ملك مملكة أكسوم. فلما قرأتها قمت بترجمتها على الفور وكانت الرسالة غاضبة جدًّا فقد كان ملك مملكة أكسوم يشتكي من هجمات تجار الرقيق على مملكتهم وخطف الصبيان والنساء، ويقول بأن عيونهم ومخابراتهم ذكروا أن جميع هذه الهجمات بلا استثناء تأتي من مملكة عَلَوَة. ابتسمت سرًّا ولم أظهر سروري بهذه الرسالة للملك النجاشي فقد خفت أن يسيء الفهم.

قال لي الملك:

– فعلًا أنت محق، يجب أن نفعل شيئًا من أجل اجتثاث هذه التجارة البغيضة من مملكتنا. أنت مكلف منذ اليوم بالترتيب مع قائد الجيش ومن ترى الاستعانة بهم للقبض على تجار الرقيق الذين يخطفون الناس وتقديمهم للمحاكمة.

كنت أعلم أن هذا الأمر صعب للغاية فتجارة

العبيد منشؤها مجهول، والبحث عن التجار محفوف بالمخاطر والهلاك. وتجار العبيد من الأثرياء وذوي النفوذ الذين يستطيعون فعل أي شيء ولا يتورعون عن أي عمل. ويكفي أن مجرد ذكر اسم «ساري الليل» إمبراطور هذه التجارة يوقع الرعب في قلوب الجميع. ثم إنني ترجمان الملك ولست قائد الجيش ولا رئيس المخابرات. ولكنني سررت أيما سرور من أن الملك أصبح يثق في رأيي ويعتمد على مشورتي مثل اعتماده على جدي «دَلمار» في السابق.

نصحني «الزُّبَيْر» أن أسعى للقبض على أكبر تاجر من تجار العبيد إن أردت تجفيف منابع هذه التجارة والقضاء عليها من أصلها. قال «الزُّبَيْر»:

– من هو أشهر تجار العبيد؟

– «ساري الليل» بالطبع!

– اقبضوا عليه إذن.

قلت للزبير:

– أنت بالتأكيد لا تعلم من هو «ساري الليل» وإلا لما قلت كلامك هذا، فساري الليل أسطورة مرعبة. وهلاك محقق لمن يقترب منه ناهيك أن يفكر في القبض عليه.

قال «الزُّبَيْر» في غير اكتراث:

– لا شيء مستحيل، وما دام يمشي على قدمين فهو ليس عصيًّا. وأرى أن تكمنوا له في أحد الأماكن التي يكون فيها أقل حذرًا ولا يتوقع أن يهاجمه أحد، وأن تستعينوا على هذا الأمر بالكتمان فلا تصرحوا بإيقاف تجارة الرقيق ولا أنكم تنوون القبض عليه حتى لا يأخذ حذره. وأرى ألا تتسرعوا في هذا الأمر حتى تجمعوا أكبر قدر من المعلومات عنه. ثم تقبضوا عليه وتحاكموه علنًا بعد أن تكونوا أعلنتم للناس كلهم في جميع الممالك أنكم قبضتم على أشهر تجار الرقيق.

– لماذا لم تصبح قائدًا للجيش في بلدك يا زبير؟ أنت تفاجئني كل يوم بالجديد..

كان كلام «الزُّبَيْر» كله صائبًا، أو هكذا تخيلت فأنا أحب «الزُّبَيْر» لدرجة أنني لا أحتمل أن أراه مخطئًا في رأيه أو تصرفاته. «الزُّبَيْر» كان بلسمًا لروحي من مرض الخواء الذي اجتاحها طوال السنوات الماضيات.

كان من أثق بهم في مملكة عَلَوَة من القلة بحيث إنني استعنت برصفائي القدامى: «عبدي» و«دوجو» و«سمبا» و«دوماكا» لجمع الأخبار عن تحركات «ساري الليل» وأعوانه. ولم أكن مخطئًا في اختياري فقد انطلقوا متنكرين في جهات عَلَوَة الأربع يجوبون القرى والأحياء ويتحسسون الأخبار ويتبعون حركة أعوان «ساري الليل». وسرعان ما عادوا بالخبر اليقين. فقد أجمعوا على أن «ساري الليل» شُوهد مؤخرًا غرب النيل، وكان قد هجم على قرية من قرى الكرنينا واختطف بعض الفتيات. وبذا فإن منطقة الكرنينا قد أصبحت هي مرتكز أعماله وهجماته للأيام القادمات. حركة أعوانه كانت تشير إلى

أنه ما زال في المنطقة. أحد أعوانه اشترى مؤخرًا بعض التموينات من أسواق سوبأ وعبر بها النيل. «دوماكا» شاهد ذلك الرجل يضع المواد في زكيبة على ظهر حمار ويتجه بها نحو مزرعة للذرة على بعد عشرة أميال إلى الجنوب من سوبأ الغربية، في إحدى ضواحي قرى الكرنينا. وكانت المزرعة والكوخ الذي يتوسطها ملكًا لأحد المزارعين الذين قُتلوا أيام الحرب ضد الملك النجاشي فأصبحت مهجورة.

في الصباح أخبرت رئيس المخابرات بتوجيهات الملك لي بتنفيذ مهمة سرية تتعلق بأمن «مملكة عَلَوَة» كلها. ولم أفصح له عن فحوى المهمة، ولكنه كان متعاونًا حين طلبت منه تزويدي بفرقة خاصة، فلم يسألني عن التفاصيل ولا طبيعة المهمة. وكان يعلم أنني قد تلقيت تدريبات على مستوى عال في الفروسية والرمي بالسهام. كان الملك هو الوحيد الذي يعلم بالمهمة. المجموعة المسلحة الخاصة التي

انطلقت معي كانت مكونة جميعها من العَنَج العماليق الذين يكونون في مقدمة الجيش ويقومون بتنفيذ المهام الصعبة. جمعهم القائد وزودهم بالأوامر النهائية وأمرهم أن يطيعوني في كل شيء وأنني سأكون قائدهم الوحيد حتى انتهاء المهمة. لم يكونوا يعلمون وجهتهم ولا مهمتهم ولم يكونوا يكترثون. كانوا فرسانًا يمكنك الاعتماد عليهم.

عبرنا النيل فجرًا حين كانت سوبأ تغط في نوم عميق. لم يكن هناك سوى الحراس على قواربهم الشراعية. أحد الحراس أراد اعتراض قاربنا حين رأى البغال التي أخذناها معنا داخل القارب فظن أننا لصوص. وحين رأى معنا بعض الجنود الذين يعرفهم فهم الأمر فضحك وعاد بمركبه إلى حيث كان. تأكدت أن سوبأ باتت محروسة من الجهة الغربية أيضًا. حين عبرنا النيل وسرنا الأميال العشرة جنوبًا أحسست بالحاجة للراحة فدخلنا غابة كثيفة ممتدة على شريط النيل واختبأنا فيها وقضينا

معظم النهار هناك. كان مصحف مذكرات الملك في «مخلاتي» فأخرجته وبدأت أقرأ منه. امتلأت عروق وجهي بالدم وتدفقت أنهار الغضب في جسدي حين قرأت مذكرات الملك النجاشي حول اختطافه وتعذيبه وبيعه عبدًا. وبكيت حين قرأت كلامه عن النسوة اللاتي كن معه. لا بد أن لهذا الشيطان «ساري الليل» يدًا في هذا كله. وبالتأكيد هو من أعوان الوزراء الذين دبروا هذا الأمر كله. تذكرت أننا لو انتظرنا إلى الليل فلن نجد «ساري الليل» لأنه لا يتحرك إلا ليلًا ويبدو أنه ينام بالنهار. كان الجنود قد بدءوا يشوون أرانب اصطادوها من الغابة. أمرتهم في صرامة أن يطفئوا النار ففعلوا. قلت لهم:

– اجمعوا أشياءكم بسرعة فسوف نتحرك ونهاجم هذا الكلب قبل دخول الظلام. لا تقتلوه. أريده حيًّا!!

فهم الجنود أننا سوف نقبض على رجل

واحد، فتهللت أساريرهم وتحمسوا للأمر ويدءوا بتفقد أسلحتهم وعتادهم. كانت خطتي تقضي بأن نزحف نحو الكوخ بعد أن نتأكد من خلو المزرعة من الحراس والمراقبين. تركنا البغال مربوطة في الغابة وتحركنا راجلين. الجنود كانوا مهرة ويعرفون كيف يتسللون. بعد أن عبرنا حقل الذرة وأصبحنا قريبين من الكوخ كانوا يمشون على الأرض اليابسة ويتجنبون العشب، وإن كان لا بد من المشي فوق الأعشاب فقد كانوا يتخيرون أقل المناطق أعشابًا ولا يطئون العشب الجاف حتى لا يحدث صوتًا. كان باب الكوخ مفتوحًا. تأكدنا أنه موجود داخل الكوخ عندما سمعناه يسعل بالداخل. وعندها أعطيت الإشارة فهجم الجنود.

بوغت «ساري الليل» لدرجة أنه لم يبد أي مقاومة. لم يكن يتوقع أن يكون أحد بهذه الجرأة بحيث يهاجمه في وكره. كان ينظر إلى الجنود في دهشة وهم يهجمون جميعهم عليه مثل الوحوش الكاسرة تنقض على فريستها. كانوا

ضخام الأجسام طوالًا عمالقة أقوياء. ثبتوه على الأرض وانتهى الأمر بسرعة. ربطوا فمه بقطعة وقيدوا يديه ورجليه وربطوا يديه إلى رجليه وجاءوا بزكيبة كبيرة أدخلوه فيها وربطوا فمها بعد أن أحدثوا فيها فتحات حتى لا يموت اختناقًا. جمعنا أشياءه وأغراضه ووضعناها في زكيبة صغيرة، ولم ننس أن نضع معها قناعه الأسود المشهور.

أردنا ألا يعرف أحد من الناس ما الذي نحمله إلى سوياً. كنا نخشى أعوانه فقد كانوا كثيرين وخطرين، فجميعهم من عتاة المجرمين في عَلَوَة. تناوب الجنود على حمله فوق أكتافهم وأسرعنا به إلى الغابة. وسرعان ما كانت البغال تهملج به نحو شاطئ النيل. عدنا به ليلًا واخترت اثنين من الجنود الذين أثق في كتمانهم للأمر فحملناه إلى مكان مجهول وخبأناه وبقي الحارسان معه.

لم أصدق أننا قبضنا على «ساري الليل»

بهذه السهولة. حين أخبرت «الزُّبَيْر» بالأمر قال لي:

– ألم أقل لك إنه لا أحد عصي على القبض عليه؟

نشرنا الخبر في عَلَوَة والممالك المجاورة كلها. كان الناس يرقصون فرحًا في الطرقات. أعوان «ساري الليل» جن جنونهم وانطلقوا يبحثون عنه في كل مكان ليقتحموا المكان ويحرروه ولكنهم لم يهتدوا إلى مخبئه. الملك تهلل وابتهج للأمر وكافأني بقلادة ذهبية ضخمة نقش عليها شعار المملكة، وأمر بعقد محاكمة علنية في ساحة المحكمة الكبرى بسوبأ. كثير من الناس لم يصدقوا أننا قبضنا على «ساري الليل» وظنوا أن في الأمر نوعًا من الدعاية السياسية لكسب مزيد من التأييد للملك. الممالك الأخرى المجاورة أرسلت مناديب ووفودًا للتأكد من صحة الخبر بالقبض على «ساري الليل» ومحاكمته فقد كان عدوًّا

مشتركًا وكانت جميع هذه الممالك تسعى للقبض عليه حتى إن بعضها رصد جوائز قيمة لقاء تسليمه لهم حيًّا أو ميتًا.

جمهور الغاضبين الذين خطف أبناؤهم وبناتهم تجمعوا فجر ذلك اليوم في ساحة المحكمة. كثير من أهل سويأ دفعهم الفضول لمشاهدة «ساري الليل» لأول مرة فقد كان مثل الأشباح لا يعرفه أحد. الناس كانوا لا يعرفون من الذي قبض على «ساري الليل» ولا كيف تم القبض عليه ولكنهم كانوا مبتهجين وكفى.

لم أنم من الفرحة ليلة المحاكمة وانتظرت بزوغ الفجر بصبر نافد. كنت أحس بنشوة الانتصار تملأ جوانحي. كان هذا أهم إنجازاتي طوال سني حياتي في سويأ. أحسست أنني أصبحت رجلًا بحق. لو كان جدي «دَلمار» حيًّا لملأه الزهو والفخر وهو يرى هذا. أمي كانت تحدث النساء بفخر عن أن ابنها هو الذي نفذ القبض على «ساري الليل». شغلها الزهو

عن حضور مجالس الملكة فغابت عنها طوال هذه الأيام. كانت تقضي وقتًا طويلًا مع النساء العربيات تحدثهن عني! وكانت فخورة بي.

في صباح يوم المحاكمة تجمع الآلاف في ساحة المحكمة وغص بهم المكان. الجميع كان موجودًا. الملك، والملكة، الوزراء، والقادة، والتجار، الكهنة، والشمامسة، الوفود القادمة من الممالك المجاورة، الرجال والنساء والأطفال. الحشود تزاحمت أمام المنصة المنصوبة في العراء في ساحة المحكمة. وجاء القاضي وهيئة المحكمة فجلسوا.

كنا قد خبأنا «ساري الليل» في غرفة من الغرف السرية تحت أرض المحكمة. لم يكن أحد يعلم بمكانه، ولا كان أحد يعلم بوجود هذه الغرفة. دلني على مكانها «حمرون» رئيس البنائين الذين تولوا بناء قاعة المحكمة وكان صديقًا لجدي «دَلمار». كان رجلًا عجوزًا مات منذ سنتين وماتت معه أسراره. قال لي: إنهم

استخدموا هذه الغرفة للقيلولة من حر النهار لأنهم بنوا قاعة المحكمة في صيف قائظ. وقال لي إنهم كانوا يضعون فيها ملابسهم وطعامهم وأغراضهم الشخصية. وحين اكتمل البناء بقيت الغرفة مغلقة ونسيها الناس. كانت مكانًا مدهشًا خبأنا فيه «ساري الليل».

توقعنا أن يكون أعوان «ساري الليل» منبثين في الطرقات ينتظرون أن يجيء به الجنود من أحد السجون في أطراف سويا لينقضوا عليهم ويخلصوه منهم. ولكننا كنا قد أعددنا لهم مفاجأة كبيرة. أمر القاضي بإحضار المتهم وتعالت الأصوات حين أخرجنا «ساري الليل» من الغرفة التي تقع تحت قاعة المحكمة، وقد ألبسناه قناعه الأسود وأحاط به الحارسان. حين أوقفاه أمام المنصة تعالت الأصوات وارتفعت الهتافات الغاضبة المطالبة بشنقه وتقطيع أوصاله وإحراقه أمام الجمهور. أشار القاضي للحضور بالسكوت فساد صمت رهيب في ساحة المحكمة. لم نكن نسمع إلا

بكاء الأطفال الرضع تحملهم أمهاتهم.

أمر القاضي بنزع القناع عن وجه «ساري الليل» حتى يراه الجميع. فنزع الحارسان القناع وسط صيحات الناس وتعالت الأصوات وملأ الضجيج ساحة المحكمة وأجواء سوياً.

أشار القاضي للناس بيده فسكتوا. ثم سأل المتهم:

- نحن نعرف أن اسم «ساري الليل» هو مجرد لقب تتستر وراءه فما اسمك الحقيقي؟

هز الرجل كتفيه ورد في سخرية ولا مبالاة واضحة:

- أنا لست «ساري الليل». ولا يوجد أحد اسمه «ساري الليل»!

ضحك الحضور استهزاء وسخرية، وسأله القاضي:

- ما هذا الذي تقول يا رجل؟ أمجنون أنت؟ إن لم تكن ساري الليل فمن أنت؟

لم يأبه المتهم للقاضي ولا لسخرية الناس ولا لأصواتهم العالية فاستدار نحو الجمهور ومضى يتحدث:

– لعل البعض منكم يعرفني فقد اختفيت عن سوبأ أكثر من عشرين عامًا الآن. وأشكر لكم أنكم أعدتموني إليها حتى أرى أبي «دَلمار العظيم» وزوجتي وولدي. أنا «أَبِيلُّو» اسمي «أَبيلُّو بن دَلمار بن أرياط»! وهذه هي زوجتي! «تَاَنِيشَا»!

قالها وهو يشير إلى أمي «تَانِيشَا» التي هوت على وجهها. وساد الهرج والمرج في ساحة المحكمة. وقمت سريعًا فتلقيت أمي والتقطتها فبقيت بين ذراعي وكنت كمن سقط فوق رأسه جبل من السماء. وكانت مطرقة القاضي لا تتوقف طالبة الصمت من الحضور. استمر الرجل في الكلام وأشار ناحيتي هذه المرة بأصبعه وقال:

– وأظن أن هذا الذي يأخذها بين ذراعيه الآن

هو ابني. وهو الذي أنقذني. ابني الذي لم أره طوال حياتي. حرمني منه هؤلاء المجرمون. وحرموه مني. ابني الذي لا أعرف اسمه حتى الآن بعد عشرين عامًا. أدركت أنه ابني فور أن رأيته فهو يشبهني في كل شيء.

قال القاضي:

– وما قصتك؟ وما هي قصة ساري الليل؟

بدأ الرجل يشير إلى الوزراء القدامى المخلوعين فردًا فردًا ويقول:

– «ساري الليل» هو هذا .. وهذا.. وهذا.. وذاك!! «ساري الليل» هو اسم وهمي اختلقه هؤلاء الوزراء حتى لا يعرفه أحد ولا يجده. كانوا يتولون بأنفسهم إطلاق الشائعات بأن من يقوم بخطف النساء والصبيان هو «ساري الليل» ليبعدوا الشبهات عن أنفسهم، وحتى لا ينتبه إليهم أحد ولا يقدر أن يتتبعهم. كانوا يلبسون الأقنعة السوداء ويطلقون اسم «ساري الليل» على كل من يقوم بتنفيذ أعمال الخطف

لصالحهم. «ساري الليل» هو الرمز المتفق عليه ليميزهم عن بقية التجار الآخرين. خطفوا آلاف الصبيان والنساء وباعوهم عبيدًا باسم «ساري الليل» الوهم، الخيال، إمبراطور تجارة الرقيق. وأنا أسأل جميع الحاضرين هل رآه منكم أحد أو قابله يومًا؟ بالتأكيد لا فهو ليس له وجود أصلًا. أنا الوحيد الذي عرف سرهم واكتشف أمرهم. حاولوا قتلي مرارًا بدس السم في طعامي فلم يفلحوا فقد تعلمت من أبي صنع الترياق من دم الخيل فلا يؤثر السم في جسدي. وترصدوني ليقتلوني غدرًا ولكنني في كل مرة كنت أنجو منهم. وحين يئسوا من قتلي ساوموني بين مغادرة سوياً والسكوت عن فضحهم أوقتل أبي «دَلمار» وزوجتي «تَانِيشَا» فاخترت حياة أبي وزوجتي، وعشت حياتي كلها هاربًا منهم. كانوا يعرفون نقطة ضعفي. حبي لأبي وزوجتي. اخترت المنفى وعشت حياة البؤس وعرفت معنى الشقاء. كنت حيًّا كالميت أو ميتًا كالحي. كنت أعيش في

الخرابات والبيوت المهجورة والخلاء. وكان هناك بعض الأصدقاء يأتونني بالطعام أحيانًا. الكوخ الذي وجدتموني فيه كان هو نقطة انطلاق هؤلاء الوزراء الفاسدين لتنفيذ عملياتهم مؤخرًا. وكنت طوال هذه السنين أتتبعهم لأرصدهم وأعرفهم جميعًا. كنت أعرف أن هؤلاء هم السبب في بؤسي وحرماني ممن أحب، فهم الذين حرموني حتى من رؤية ابني. عرفت بعد ذلك أنهم قتلوا الملك «الأبجر» وحراسه، وأنهم خطفوا ابنه «أَصْحَمَةَ» الملك الحالي فباعوه عبدًا.

قاطعه القاضي قائلًا:

– وكيف تريد منا أن نصدق هذا الكلام؟ من يشهد لك؟

فجأة وقفت الملكة وتقدمت من المنصة وقالت:

– اسمح لي أيها القاضي. فأنا أشهد له. كنت أعرف قصته وكنت لا أقدر أن أحكيها لزوجته

«تَانِيشَا» حفاظًا على حياتها وحياة زوجها. وكنت وأنا الملكة لا أقدر على فضح هؤلاء الوزراء فكنت أخاف على حياتي وحياة زوجي منهم. فمن قتل الملك الأسبق وباع ابنه الملك الحالي عبدًا لا يتورع عن فعل أي شيء. رأيت وقتها أن السكوت هو أنسب شيء للحفاظ على حياة «أَبِيلُّو» وأسرته فهو فرد واحد وهو قوي يمكنه أن يقاوم، بينما أسرته ضعيفة ومغلوبة على أمرها. كنا جميعًا ضعفاء وهم كانوا أقوياء. والآن انقلب السحر على الساحر. وآن أوان دفع الثمن. ومن العجائب أن الابن هو الشخص الوحيد الذي اختاره القدير لإعادة أبيه وهو لم يكن يعلم. مرحبًا بك أيها البريء المظلوم «أَبِيلُّو بن دَلمار بن أرياط» بين أهلك وأسرتك. وحمدًا للقدير أنك عدت إلى زوجتك وابنك سالمًا. ولعلك لم تعلم أن أباك «دَلمار» قد تنيح منذ مدة وأن أصدقاءك قد آثروا ألا يخبروك حتى لا تتراكم عليك الأحزان وأنت في غنى عن المزيد منها فقد لقيت في سنوات

حياتك السابقة ما يكفي.

أرجو من القاضي الموقر أن يأمر بالقبض على هؤلاء الخونة وتقديمهم للمحاكمة فورًا. وأن يكرم هذا البريء وأسرته التكريم الذي يستحقه، فرجل بمثل هذه الأخلاق والمروءة والنبل لا يجوز أن تمر أعماله وبطولاته على تاريخ سوبأ عرضًا ويطويها النسيان.

ولدهشة جميع الحاضرين وقف الملك وقال:

– وأنا أشهد له أن هؤلاء الوزراء الفاسدين هم الذين قتلوا أبي «الأبجر» وهم الذين باعوني عبدًا ولكن الله ردني للملك. آمر أنا الملك «أُصْحَمَةَ بن الأبجر» بالقبض عليهم وتقديمهم للمحاكمة بتهمة خطف النساء والصبيان والتآمر على الملك والمملكة.

يا ألله!! أحقًّا هذا هو أبي؟ «أَبيلُّو بن دَلمار بن أرياط» العظيم؟ وأنا الذي كنتَ أظن أنني ولدت يتيمًا!! كان حولي وقريبًا مني طوال هذه السنوات. وكنت أحس بطيفه وأكلمه وأناجيه؟

كان هو الذي يجيبني بلا شك. كنت أسمع صوته في أذني. والعجيب أن صوته بعد أن عاد هو هو الذي كان يكلمني ولم يتغير.

أحسست أنني أحلق بعيدًا بجناحين فوق أجواء سويأ. طرت عاليًا في الفضاء. كان الناس حولي وتحتي صغارًا مثل النمل. وكانت الشمس قريبة من القمر في هذه المرة. لم يحجبها الضباب ولم تغطها السحب. وكان القمر يضحك للشمس! تخيلت وجه «سُنْجَاتَا» وقد عاد طفوليًّا مترعًا بالبراءة. كلهم عادوا أطفالًا: «سِيسِّيا» و«مونيتا» و«سُنْجَاتَا» و«دُوجُّو» و«مِنْيلِيك» و«سِمْبَا» و«دُوَماكا» و«عِبْدِي». حلمت ساعتها بـ «سُنْجَاتَا» تلعب بعرائس القماش المحشو بليف الدوم. وتناديني للعب معها. كنت أسمعها تقول:

– هذه عرائسي فافحصها. خذها إنها هدية مني لك. وأنا سوف أكتفي بالخذروف.

أردت أن أعود طفلًا من جديد. أريد أن أعيد

دورة الحياة الماضية التي فاتتني. انطلقت أركض خلف الجحوش والمهارى الصغيرة النافرة ولكنها أتت في هذه المرة طائعة نحوي لأمتطي ظهورها وأقوم بترويضها، لم تخفض رأسها إلى الأرض وتركل الهواء برجليها الخلفيتين ولم تقف عليهما وترفع أرجلها الأمامية عاليًا في الهواء لتلقي بي من فوق ظهورها. لا..لا.. لا أريد الاستكانة. أريدها كأشد ما تكون المهارى نفورًا. أريد أن أعدو خلفها في البرية وأطاردها طوال اليوم.

حين مررت بـ «مبروكة» البدوية بائعة اللبن و«الروب» لم تتجاوزني بحمارها كما في كل مرة، بل ترجلت من الحمار، وغرفت بمغرفتها الخشبية من «سعن» الحليب وقدمته لي في صمت يضج بالامتنان، ثم قفزت على ظهر الحمار ولوحت بعصاها القصيرة تستحثه في فرح. كان كل فرع من شجرة الأراك يهمس لي، وكانت العصافير فوق الأغصان يحدث بعضها البعض عن «سِيسِّي وسُنْجَاتَا» و«أَبِيلُّو

وتَانِيشَا». حين مررت بجوار كنيسة «مارية» رأيت صورة العذراء وهي تبتسم فوق باب المدخل. طائر الدوري عاد إلى نافذتي ليبدأ دورة تفريخ جديدة. الطبول النحاسية المنتصبة في ساحة المدينة كانت تُرَقِّصُنِي حتى وهي صامتة ساكنة. الأسدان الحجريان أمام قصر الملك كانا ينظران وينتظران في ترقب. أحسست كأنهما يدعوانني للاقتراب منهما ليتمكنا من شم ثيابي ولثم قدمي والتمسح بي. النيل كان فاتحًا ذراعيه لي. سمعت أمواجه وهي تغويني. أسرعت نحوه ودست بقدمي الحافيتين على «البرجوب» المتناثر على شاطئه. كان «البرجوب» يتكسر تحت قدمي في غنج ودلال. لم أخلع ملابسي ودخلت بها في الماء. أحسست ببرودة الماء تحتويني وكأنها حبيب فتح ذراعيه لحبيب طال غيابه عنه يضمه إليه. الأسماك التي كانت قريبة من الشاطئ جاءت تنظر بفضول مثل صبايا جئن يشهدن العروس ويتمنين ما نالت من حظوة لدى

العريس. عيون الأسماك كانت مثل عيون الصبايا، تنضح بالبراءة وتضج بالفرح. أحاط الماء صدري بأمواجه، وقبلني في عنقي، وربت على شعر رأسي. مضيت قدمًا ليضمني النيل إلى صدره. أشتاق إلى صدر يضمني. أغمضت عيني وحلمت بجدي «دَلمار»، وأبي «أَبيلُّو» وأمي «تَانِيشَا» وأخي «الزُّبَيْر»! وحين فَتحتهما ونظرت إلى الأعلى كانت التماسيح تطفو وتتراقص على سطح الماء هناك فوق رأسي، وكأنها تحرسني، وكان شعاع الشمس يتراقص حولي، والقمر قريبًا من الشمس في أفق السماء.

حين قادتني قدماي إلى شجرة الأراك فوجئت بـ«سُنْجَاتَا» جالسة تنتظر. ولما رأتني قادمًا أسرعت نحوي وأمسكت بيدي وسرنا معًا صامتين. قلوبنا وأعيننا كانت تتحدث وتقول كلامًا كثيرًا. لم نجلس تحت شجرة «أَبِيلّو وتَانِيشَا» بل مضينا إلى البيت ويدانا متشابكتان. كانت كل شجرة في الطريق تبدو

لي وكأنها شجرة الأراك التي بجوار الكنيسة. وكانت الاحتفالات تملأ الطرقات والفرحة على الوجوه مثل فرحة انتصار الملك على جيوش الكارنينا. ولكننا لم نقف لنشارك الآخرين. مضينا نحو البيت ودلفنا من الباب الخارجي. كان العرب قد تجمعوا كلهم رجالًا ونساء في «الدانقة» الكبيرة في بيت أبي. حين دخلت الدانقة رأيت «عثمان بن عفان» يتقدمهم في الصلاة وقد صف الرجال خلفه واصطفت النساء خلف الرجال. كان أبي «أَبِيلُّو بن دَلمار بن أرياط» يقف في الصف مع الرجال، جوار الزُّبَيْر، وكانت أمي «تَانِيشَا» تقف في الصف مع النساء. نظرت إلى «سُنْجَاتَا» وبادلتني النظرة، ففهمت وفهمت، ولم نتكلم. تطهرنا أنا و«سُنْجَاتَا»، التي انضمت إلى صفوف النساء ووقفت جوار «تَانِيشَا». وتقدمتُ الصفوف حتى وصلت إلى مكان أبي فوقفت جواره في الصف مع الرجال.

نبذة عن المؤلف

أ. عمر فضل الله



أحدث الإصدارات

الأسـتــاذ

عمر فضل اللّه

■ ترجمــان الـمــلـك..

حاشية

[1] سفر أشعياء إصحاح 18 عدد 2.

[2] البُطَانَةُ: هِيَ السَّهْلُ الممتدُّ شَرْقَ النّيل الأَزْرَق، وهِيَ أَرضٌ خِصْبَةُ المرْعَى، نَقِيَّةُ اَلهَوَاءِ.

[3] الدَّسُّوسِيَّةُ: هي لعبة الغميضة أو الاستغماية يلعبها الصغار فيختبئ أحدهم ويقوم الآخرون بالبحث عنه.

[4] ساحرة مشهورة أيام مملكة علوة.

[5] نسبة إلى قبيلة البجة.

[6] البحر الأحمر.

[7] ثمرة الهجليلج.

[8] ثمرة السدر.

[9] ثمرة التنطب.

[10] المنبر: (بلغة الحبشة) هو المقعد وقد يطلق على الكرسي.

[11] المصحف: (بلغة الحبشة) هو الدفتر

والكتاب.

[12] سفر التكوين: الإصحاح 10 عدد 7.

[13] سفر أخبار الأيام الأول: الإصحاح 1 عدد 9.

[14] سفر أشعياء: الإصحاح 18.

[15] أهل تلك المنطقة دائمًا ما يطلقون لفظ البحر ويقصدون به النيل.

[16] الداوكاتي: (بلغة النوبة) أي الكبير، وهي وظيفة دائمة في بلاط الملوك يكون الموظف فيها حلقة الوصل بين ديوان الملك والرعية.

[17] الخذروف: بَيْضَةٌ خَشَبِيَّةٌ أَعْلاَهَا رَأْسٌ مُسْتَدِيرٌ ، وَفِي أَسْفَلِهَا مِسْمَارٌ يُدَارُ عَلَيْه خَيْطٌ يُمْسِكُ نِصْفَهَا وَيَظَلُّ طَرَفُهُ عَالِقًا بِأَحَد أَصَابِعِ اليد عِنْدَمَا تُرْمَى أَرْضًا لِتَدُورَ عَلَى نَفْسِهَا دَوْرَاتٍ سَرِيعَةً جِدًّا. (المعجم الغني)

[18] مكيدة: (بلغة الحبشة) هي بلقيس ملكة سبأ وفقًا للتراث الحبشي القديم.

[19] إنجيل متى إصحاح 5 أعداد 34 – 37
[20] الدانقة: (بلغة النوية) هي البيت الكبير أو الديوان، وهو اسم نوبي قديم.
[21] إنجيل يوحنا إصحاح 13 أعداد: 5–10
[22] إنجيل يوحنا إصحاح 8 عدد 40.
[23] سفر العدد إصحاح 19 عدد 23.
[24] البرجوب: (بلغة النوبة) هو قشرة الطمي على شاطئ النيل.
[25] سورة الرحمن: الآيات 1 – 4.
[26] الترجمة العربية المشتركة: سفر حزقيال إصحاح 21 الأعداد: 25 – 27.
[27] سفر التكوين 10:49 (لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب).
[28] سفر أشعياء إصحاح 57: الأعداد 3، 4.
[29] سوط العنج: نوع من السياط مشهور في

منطقة عَلَوَة اشتهرت به قبيلة العَنَج حتى نسب إليهم وكانوا يصنعونه من جلود أفراس النهر.

[30] الدردور: (بلغة النوبة) هو البناء الدائري أو الكوخ.

[31] القنجة: ثوب يحد به على الميت المقرب (الأب أو الأخ أو الزوج أو الابن)، وهو من النسيج الخشن ويكون أبيض اللون مائلًا إلى الاصفرار، ولا يغسل بالماء الصافي حتى لا يصبح أبيض ناصع البياض ويكون وكأنه قديم.

[32] القرن: هو إزارٌ شاملٌ قصيرٌ أبيضُ أو على لونه الطبيعيّ.

[33] القرقاب: قطعة من القماش تلف حول الخصر أسفل قميص المرأة ويكون غالبًا من فركة الصفيح وهي أحد أنواع الفرك مثلها مثل فركة القرمصيص التي تستخدم في الزواج وختان الإناث لكنها أقل منها جودة.

[34] الرحط: إزار يصنع من سيور الجلد الناعم

تُربّطُ على سيورٍ جلدية أقوى منها تحيط بخصر الفتاة وعند العرس يتولى العريس قطعه إشارة إلى أنها لم تعد فتاة.

[35] الشملة: قطعة من القماش الخشن سوداء اللون تستخدمها النساء عند الجلوس للدخان غالبًا.

[36] القرمسيس: قماش حريري تغطى به العروس ليلة الدخلة.

[37] الفردة: نوع من القماش القديم اشتهرت مدينة شندي به منذ القدم ويصنع من خيط القطن المفتول.

[38] الزراق: ثوب يصنع من نبتة النيلة (النيلنج) أزرق اللون (كحلي) وغالبًا ما يتم صبغه باللون الأزرق.

[39] الأدعج: شديد سواد العين.

[40] الأبلج: أبيض ما بين الحاجبين.

[41] سورة مريم: الآيات 16 – 26.

[42] الترجمة اليسوعية: أعمال الرسل إصحاح 3 عدد 26.

[43] الترجمة اليسوعية: أعمال الرسل إصحاح 4 عدد 27.

[44] الترجمة الكاثوليكية: أعمال الرسل إصحاح 4: عدد 30.

[45] ترجمة سميث وفاندايك: إنجيل يوحنا: 13 :16.

[46] ترجمة سميث وفاندايك: أعمال الرسل إصحاح 2 عدد 22.

[47] إنجيل لوقا 4 : 43.

[48] إنجيل متى 21 : 43 وإنجيل مرقس 12 : 12 .

[49] التثنية: إصحاح 18 عدد 15 .

[50] التثنية: 31/24 – 30.